إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفكر الأخلاقى فى الإسلام

أ.د. حامد طاهر

إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

يسعدنى أن أقدم هذا الكتاب لطلبة كلية دار العلوم فى مقرر الأخلاق ، والذى يركز بصفة خاصة على الأخلاق الإسلامية ، على أمل أن يجد فيه الطالب ما يتزود به معرفيًا وسلوكيا . فهو يضم جانبا نظريا يتلوه جانب تطبيقى يتمثل فى عدد من النماذج التى يمكن أن يستهدى بها المسلم المعاصر فى حياته اليومية ، ولا شك أن هذه إحدى مميزات الأخلاق الإسلامية ، وهى أنها ليست مبادئ ومثلا عليا فقط ، وإنما هى عبارة عن سلوكيات وتصرفات واقعية تتجلى فى مختلف المواقف التى يتعرض لها الإنسان فى كل لحظة من حياته داخل المجتمع الذى يعيش فيه .

نحن الآن فى مرحلة تحول هام . فقد تخلصت مصر من عهد بغيض كان يتسم بالكثير من اللاأخلاقية فى تصرفات الهيئة الحاكمة . ومهما قيل عن المشكلات والأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تعرض لها المجتمع المصرى خلال الفترة الماضية ، فإنها كانت ترجع فى الأساس إلى ضعف الشعور الأخلاقى، وإسكات صوت الضمير الأخلاقى فى نفوس القائمين على الأمور ، والمسئولين عن السلطة . وأذكر أننى نشرت مقالاً صحفيًا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فى هذا الزمن البغيض بعنوان "المشكلة أخلاقية" لكى أنبههم لذلك ، لكنهم كانوا لا يقرأون ، وإذا قرأوا لا يهتمون .

من هنا فإننى أهيب بالمسئولين عن التعليم فى مصر أن يجعلوا من (مادة الأخلاق) جزءًا لا يتجزأ من النظام التعليمى فى كل مراحله بدءًا من مرحلة الحضانة ، وحتى الدراسات العليا ، على أساس أن الإنسان يحتاج دائما إلى تذكير مستمر بها ، وتنبيه إلى فضائلها وما نهى عنه من رذائل . ورحم الله أحمد شوقى الذى قال :

وإنما الأمم الأخـلاق مـا بقيـت فإن هُمو ذهبـت أخلاقهـم ذهبـوا

يتضمن هذا الكتاب قسمين متمايزين . القسم الأول حول مقدمات تمهيدية فى علم الأخلاق ، ثم عرض للأخلاق الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية . أما القسم الثانى فيضم مجموعة مختارة بعناية من الكتابات الأخلاقية لدى علماء المسلمين وفقهائهم وأدبائهم حول موضوعات محددة ، يمكن ببساطة تطبيقها على واقع الحياة اليومية التى نعيشها فى عصرنا الحاضر .

والله ولى التوفيق ،،،

المؤلف

مقدمات تمهيدية فى علم الأخلاق

مفهوم الخُلُق وتحليله :

الأخلاق جمع خُلق . والخلق هو الفعل الإرادى ، الذى يصدر عن الإنسان بصورة عفوية ، نتيجة التكرار والعادة ، ويكون مرتبطا بالضمير ، وتصدق عليه معايير الخير أو الشر .

وهناك من يصف الخير بأنه العمل الطيب والصالح والنافع للناس ، ويصف الشر بأنه العمل السئ والضار والمؤذى للناس . كما أن هناك من يصف الخير بأنه العمل الأخلاقى ، والشر بأنه العمل غير الأخلاقى أو اللأخلاقى . وفى رأينا أن اختلاف التسميات لا يمثل مشكلة ، فنحن لدينا قائمة محددة بأخلاق الخير ، وقائمة أخرى مقابلة بأخلاق الشر. وكلاهما نتحدث عنها فى علم الأخلاق .

وعند تحليل الخلُق نجده ينقسم ببساطه إلى دافع وسلوك . الدافع داخلى أو باطنى يشعر به كل إنسان فى ذاته شعورًا واضحًا ومحددا ، بينما يتمثل السلوك فى الفعل الظاهرى الذى يخرج للناس ، ويراه الآخرون من صاحبه ، وبسببه يحكمون عليه بأنه إنسان فاضل أو شرير .

وقد نبهنا القرآن الكريم إلى بعض الأفراد الذين لا تتفق دوافع أفعالهم مع ظواهرها . وهم المنافقون الذين يبطنون غير ما يظهرون،

إهداء من شبكة الألوكة

ويقولون ما لا يفعلون . ومن أمثلته ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] وهناك مثل عالمى يتوعد الذين يظهرون لمجتمعاتهم غير ما يبطنون يقول : "إنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس .. طول الوقت".

نشأة الأخلاق وعالميتها :

من الممكن أن نتصور كيفية نشأة الأخلاق على أيدى أفراد متميزين فى مجتمعاتهم ، تحيط بهم هالة من الحب والاحترام ، ثم تصبح أفعال هؤلاء الأفراد المتميزين وأقوالهم نماذج تسعى مجتمعاتهم إلى محاكاتها ، والالتزام بها .. إلى أن تتحول مع مرور الزمن إلى قيم وتصرفات عامة وسائدة ومقبولة من الجميع ، بل إن الخروج عنها أو انتهاكها يعرض صاحبها لخطر انتقام المجتمع كله ، أو على الأقل ازدرائه له" .

إن تاريخ الأخلاق فى العالم يثبت أن كل شعب من شعوبه قد توصل إلى منظومة أخلاقية خاصة به ، ارتبطت بظروفه ، وامتزجت بتصوراته ، واختلطت أحيانا بعاداته وتقاليده . ومن أهم خصائص الأخلاق أنها ذات طابع تراكمى طويل الأمد ، كما أنها تحظى باتفاق جماعى .

الأخلاق والعادات :

وهنا ينبغى التمييز جيدًا بين الأخلاق والعادات : فالأخلاق كما سبق القول هى عبارة عن أفعال الإنسان الإراديه التى يمكن أن

توصف بالخير أو الشر ، أما العادات فهى أنواع السلوك التى تستقر فى المجتمع عبر زمان طويل دون أن يراعى فيها مقياس الخير أو الشر . مثال : عادة زيارة المصريين فى الأعياد لقبور موتاهم ، والمبيت أحيانا بجوارها . فهذا عمل لا يمكن وصفه بالمعايير الأخلاقية ، فى حين أن من يمارسونه قد يعتقدنه كذلك . بينما يمكن اعتبار إعداد الطعام لأهل المتوفى فى حال انشغالهم بتلقى العزاء فيه عملاً تضامنيا ذا طابع أخلاقى محمود .

الأخلاق والقانون :

وبالطبع ينبغى التمييز بين الأخلاق والقانون. فالأخلاق تتضمن (معايير) موجودة فى العقل الجماعى للمجتمع ، وكذلك فى ضمير الفرد. وهى فى العادة غير مكتوبه ولا مسجله . أما القانون فهو عبارة عن (الأحكام) التى يفرضها المجتمع فرضًا على جميع الأفراد فيه . ولذلك يعتبر الخارج عن القانون مجرمًا تقوم السلطة القضائية بمحاكمته ، وتحديد العقاب المناسب له ، بينما يعتبر المخالف للمعايير الأخلاقية منتهكا لضمير الجماعة الكائن فيه . والجريمة هنا لا يحاسبه المجتمع عليها ، وإنما يحاسبه ضميره . ولا شك أن القانون فى كل بلاد العالم قد استمدّ الكثير من أحكامه من الأخلاق التى أجمع عليها البشر ، واستقرت فى حياتهم ، لكنه لا يتضمن ما تحتوى عليه الأخلاق من تفصيلات دقيقة تتعلق بالنية ، والأهواء ، والدوافع الشخصية، والنزعات والتقلبات النفسية ..

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مثال : إذا كانت السرقة بتوصيفها القانونى جريمة محددة يعاقب عليها القانون ، فإن أشكالها وأنواعها وساديبها المستحدثة تكاد تخرج عن سيطرته . فهناك السارق الواضح الذى يستولى سرًا على ممتلكات الآخرين ، لكن هناك مَنْ يوحى إليه ، ومن يسهل له القيام بذلك ، ومن يسكت عنه ، ومن يشترى منه المسروقات ، وأخيرًا من يدافع عنه فى المحكمة ويخرجه بريئًا فى بعض الأحيان من جريمته . وهنا يمكن القول بأن بعض المجرمين قد يفلتون بالحيلة والتحايل من عقاب المجتمع ، لكنهم جميعا لا يمكنهم أن يهربوا أو يتهربوا من محاسبة ضمائرهم .

الخُلُق : طبع أم اكتساب :

بحث علماء الأخلاق ، وعلماء النفس ، وعلماء الجريمة هذا الموضوع باهتمام كبير ، وتناولوا تفصيلاته من خلال آلاف النماذج الفعلية التى أجروا عليها أبحاثهم . ومع ذلك تبقى النتائج غير حاسمة.

فالذين ذهبوا إلى أن الأخلاق مطبوعة فى الإنسان أو فطرية استعان بعضهم بارتباط ملامح الشخص بالسلوك الإجرامى الذى ينتهك به قوانين المجتمع . وقد اعتمد هؤلاء على كثير من النماذج التى وجدوها تثبت وجهة نظرهم . لكن ما دحضها هو وجود العديد من النماذج الأخرى المقابلة لها ، أى التى تكون فيه ملامح الشخص صارمة ومخيفة لكن قلبه يمتلئ بالطيبة والعطف والتسامح .

الخُلُق والوراثه :

وهناك أيضا من اعتمدوا على الوراثة ، أى انتقال الشر من الأجداد إلى الآباء إلى الأحفاد ، من خلال جينات متشابهه تحمل فى طياتها جرثومة الشر وبذوره . ومع ذلك فإن القاعدة هنا لا تحظى بالقبول الكامل ، ولا الإجماع . فهناك أبناء يكونون أفضل من آبائهم، وأحفاد يكونون أطيب من أجدادهم ، كما أن العكس صحيح تماما . ومن هنا جاء المثل المصرى الذى يقول "يطلع من ضهر العالم فاسد".

الخُلُق والبيئه :

لا شك أن البيئة لها دور فى تكوين وتطوير أخلاقيات الأفراد الذين يعيشون فيها . وهذا الدور يتمثل فى أن الفرد بحكم حاجته إلى الجماعة يحاول أن يرضيها ، وبالتالى فإنه لا يقوم بالأفعال التى تجعله منبوذًا منها . ومع استمرار واستقرار هذا الشعور فى أعماقه ، تبدأ أفعاله تتجه نحو الالتزام بما تقره الجماعة من عادات وأعراف . ومع ذلك وعلى الرغم منه ، فإننا نشاهد كل يوم من يخرج على أعراف المجتمع ، وأخلاق البيئة ، سواء كانت بيئة صالحة أم فاسدة : فمثلا كيف تفسر سلوك إنسان تربى فى بيئة صالحة عندما يرتكب القتل أو السرقة أو النصب ؟! ونفس الأمر بالنسبة إلى إنسان تربى فى بيئة فاسدة وهو يمسك نفسه عن أفعالها ، ويساعد الضعفاء ، ويعطف على المساكين؟!

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الخُلُق والتربية :

هنا بالفعل قد نجد عنصرًا فعالاً فى التأثير ، ولكنه غير كامل. فالطفل ينشأ فى حضن والديه ، وهو يأخذ منهما وعنهما الكثير . فهما اللذان يزودناه بالطعام ، واللعب ، وتحقيق الرغبات . كما أنهما اللذان ينهيانه عما يضره ، أو ما ينبغى ألا يقترب منه . ولا شك أن طبيعة الطفولة فى فترتها تكون قابلة للتشكيل . فبالنسبة للتعليم مثلا يقال : "التعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر" أى أنه يبقى ولا يزول بسهولة.

لكن هنا أمرًا هامًا يغفله الكثيرون . وهو أننا عندما نتحدث عن الأسرة ، فإننا نتجاهل العديد من الأسر الفاسدة ، أو المنحرفة . وهذه الأسر كيف تُنشّى طفلا فاضلا ؟! ثم إننا فى العصر الحاضر ، نشاهد بوضوح كيف يتلقى الطفل كل معرفته وسلوكه وقيمه من خلال ما يشاهده فى التلفزيون ، وعندما يكبر قليلا يلجأ إلى الانترنت .. وفى هذه الحالة ، يقل بل يكاد ينعدم تأثير التربية الأسرية فى حياة أطفالها .

الطبيعة الانسانية والأخلاق :

وهكذا إذا تبين عدم إنفراد واحد من العوامل السابقة كالوراثة أو البيئة أو التربية بشكل حاسم فى أخلاق الإنسان ، فلم يبق إلا أن نرجع إلى طبيعة الإنسان ذاتها لنتعرف عليها ، مع الاعتراف بصعوبة ذلك ، وبالتالى يمكننا أن نقف على تكون الأخلاق كدوافع

نفسية أولاً ، ثم تجليها بعد ذلك فى صورة أفعال وتصرفات أمام الآخرين .

وفى البداية لابد من استبعاد أن الإنسان كائن بيولوجى خالص. وقد جعله أرسطو يشارك النبات فى الغذاء والنمو ، ويشارك الحيوان فى الحركة .. لكنه بعد ذلك كله يمتلك عقلاً يفكر به ، بل ويبدع ، كما يمتلك جهازًا وجدانيًا راقيا يحب به ويكره ، ويتسامح به وينتقم ..

كذلك ليس الإنسان كائنا ميكانيكيا تسير حياته بصورة آلية ، بحيث يمكن التنبؤ فيها بأفعاله الحالية أو المستقبلية بناء على أفعاله السابقة . ومهما قيل عن مشابهة العقل البشرى للكمبيوتر فإنه سيظل متفوقًا عليه بمزايا التنبؤ ، والاسترجاع ، والربط بين الأفكار وتوليد أفكار جديدة منها ..

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم ، وجدناه يصف الإنسان بمجموعة من الصفات التى تساعدنا على معرفة طبيعته من ناحية ، وإمكانية التنبؤ بأفعاله الأخلاقية من ناحية أخرى .

وفيما يلى عرض لهذه الأوصاف :

-﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] .

-﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد : ٤] .

-﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر : ٢] .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

-﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [يونس : ١٢] .

-﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود : ٩]

-﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ١٠] .

-﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

-﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٦]

-﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] .

-﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحجر : ٦٦] .

-﴿ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] .

-﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف : ١٥] .

-﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عيسى : ١٧] .

-﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

-﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء : ١٠] .

-﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ٤] .

-﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

-﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : ٦] .

-﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ [يس : ٧٧].

-﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] .

-﴿ إِنَّهُ (الْإِنسَانُ) كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الاحزاب : ٧٢] .

-﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج ١٩ ، ٢٠ ، ٢١] .

-﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق : ٦] .

إن تدبر هذه الآيات القرآنية جيدًا يوقفنا على قدرة الإنسان وإمكانياته ، وكذلك على نزعاته واختياراته . فهناك بعض الصفات القليلة التى تؤكد ضعف الإنسان وميله إلى العجلة فى تحقيق رغباته، وهذه الصفات تتصل مباشرة بطبيعته التى خلق عليها ، لكن غالبته الصفات تشير إلى سوء اختياره ، أو إلى اتخاذه بنفسه مواقف معينه . فهو مثلا عندما يوصف بأنه (كفور) أى غير معترف بالنعمة ولا مقدر للمنعم بها عليه يكشف عما نشاهده ونعاينة فى حياتنا اليومية من رؤية أشخاص قد تحسن إليهم ، لكنهم يقابلون إحسانك بالنكران ! ونفس الأمر يظهر عندما يصف القرآن الكريم الإنسان بالظلم ، أو الجهل ، أو البخل أو الطغيان نتيجة الغنى ، وكذلك بالخصام والجدل

إهداء من شبكة الألوكة

بالباطل ، فإن كل هذه الصفات تعتبر من مكتسبات الإنسان ، أى من اختياراته الشخصية التى كان من الممكن أن يختار نقيضها .

الأخلاق والمسئولية الفردية :

ليس من المعقول ولا حتى من العدل أن يكلف الإنسان بما لا يطيق . وبالتالى فإن الثواب والعقاب يرتبطان دائمًا بإمكانية الإنسان وارادته الحرة فى اختيار الفعل الذى يستحق أيّا منهما . وقد عبر أحد الشعراء عن اعتراضه على موقف القائلين بالجبر ، أى بانعدام الحرية الإنسانية فى الاختيار والفعل بقوله :

ألقاه فى اليم مكتوفًا وقال له : إياك إياك أن تبتل بالماء!

فكيف يلقى إنسان وهو مكتوف الدين فى الماء ، ثم يطلب منه ألا يبتل به ؟! وكيف نحاسبه إذا لم يفعل ؟!

إذن لكى يقوم نظام أخلاقى صحيح ، يقدّر الإنسان الفاضل ، ويزدرى الشرير ، لابد أن يكون من المقرر فيه أن هذا الإنسان قابل وقادر وحر الإرادة تماما فى اختياره بين فعل الخير ، وفعل الشر .

والواقع أن الإسلام قد فتح لكل انسان صفحة جديدة تماما ، وخاصة به وحده . فهو لا يتحمل – من الناحية الأخلاقية والدينية عموما – ما اقترفه أبوه أو أمه أو أحد من إخوته . ولا يبدأ المسلم فى تحمل مسئوليته عن أفعاله إلا بمجرد وصوله إلى مرحلة البلوغ . وهى المرحلة التى يعتبرها الإسلام شرطا من شروط المسئولية

الشخصية . وتعنى وصول العقل إلى درجة من النضج يستطيع بها أن يميز بين الصواب والخطأ ، والحق والباطل ، والخير والشر . يقول الله تعالى :

١-﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] .

٢-﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة : ١٤] .

٣-﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [فاطر : ١٨] .

٤-﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

٥-﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٤٥] .

الأخلاق والضمير :

لا يستطيع العلم الحديث أن يحدد طبيعة الضمير ولا مكانه . وإنما الذى نعرفه فقط أنه المرآة الشخصية التى يرى فيها الإنسان نفسه ، ولا تتسع لرؤية شخص آخر ، كما أنه الحاسة الباطنة فى الإنسان والتى تشبه الترموتر ، الفائق الدقة ، الذى يحدد ارتفاع الزئبق وانخفاضه فيه المستوى الأخلاقى الذى يتردد فيه بين جانبى الخير والشر ، بل إنه هو الذى يحدد أيضا أى مستويات الخير يصعد إليه ، وأى مستويات الشر يهبط فيه . وهكذا فإن الضمير هو معيار الأخلاق فى الفرد ، كما أن القانون هو أساس انتظام الحياة فى المجتمع .

إهداء من شبكة الألوكة

يمكن للإنسان أن يُخفت فى بعض الأحيان ضميره ، لكنه لا يستطيع أبدًا أن يسكته . فالضمير لا يترك صاحبه ينسى جرائمه الكبرى ، ولا حتى أخطاءه الصغيره . وهو يظل يدق فى أعماقه منبها إياه إلى مدى قصوره وتقصيره . بل إنه فى حال الندم يظهر فى أحلامه ، ويوقظه أحيانا منها . وهو بهذا يعتبر من أهم معايير الأخلاق بل يمكن القول بأنه أهمها على الإطلاق .

الإسلام هو آخر الأديان السماوية ، أنزله الله تعالى للبشرية كلها . وقد جاء القرآن الكريم مصدقا لما سبقه من الكتب المنزّلة ، ومنها التوراة والإنجيل ، كما احتوى على بعض المبادئ والتعاليم السابقة ، والتى لم تفسدها يد التحريف . وبالنسبة إلى الجانب الأخلاقى فإن الإسلام يعتبر بحق هو المجموع الذى يضم كل الفضائل التى وردت فى الأديان السابقة ، وكذلك ما توصلت إليه الشعوب والأمم ، بعد أن قام بتنقيتها وتصفيتها. ولعلنا فى هذا الصدد يمكن أن نفهم بسهولة قول الرسول ، ﷺ : "مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأكمله وزيّنه ، إلا موضع لبنة . فصار الناس يطوفون بالبيت ويقولون : ما أجمل هذا البيت لولا هذه اللبنة ! فأنا هذه اللبنة . وأنا خاتم النبيين" .

إن مصادر الأخلاق الإسلامية يمكن تلمسها فى القرآن الكريم، والسنة النبوية ، القولية والفعلية ، ثم فى حياة الصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم ، وكذلك فى مواقف الكثير من الشخصيات المتميزة فى تاريخ الإسلام ، وأخيرًا فى المؤلفات التى تناولت جانبًا أو أكثر من الأخلاق الإسلامية ، سواء ما يتعلق بالحث على الفضائل، أو التحذير من الرذائل .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وسوف نتناول فيما يلى جانبًا من الأخلاق الإسلامية كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية . لكنا سوف نمهد لذلك بإيراد لمحة سريعة عن أخلاق العرب فى الجاهلية ، يتلوها تحديد لموقع الأخلاق من المفهوم المتكامل للإسلام . وبعد ذلك سوف نقدم عددًا من النماذج المختارة التى كتبها بعض العلماء والفقهاء والأدباء والفلاسفة حول موضوعات محددة من الأخلاق الإسلامية .

أخلاق العرب فى الجاهلية :

لكى يتضح لنا قيمة ما جاء به الإسلام من أخلاق ، لابد أن نلقى نظرة على أخلاق العرب الذين ظهر الإسلام فيهم ، ونجح بفضل الله تعالى خلال فترة قصيره فى أن يحدث انقلابا هائلاً فى حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية والأخلاقية .

كان العرب مثل كل شعوب العالم قد توصلوا إلى منظومة أخلاقية خاصة بهم ، ارتبطت بظروف بيئتهم ، وأسلوب معيشتهم ، ومستوى ثقافتهم .

الصحراء الشاسعة والقاحلة اضطرتهم أن يتنقلوا فيها بحثًا عن مساقط المياه ومواطن الكلأ لحاجة قطعانهم . وقد دفعهم ذلك إلى الاقتتال عليها والقتل دونها . وحين كان يعوزهم الطعام كانوا يقومون بالإغارة على القبائل التى تمتلكه ، ولم يكن يرون فى ذلك أى عيب، بل كان يتفاخرون بها !

وفى مثل تلك البيئة القاسية ، كان الفرد ، الضعيف وحده ، يتقوى بانتمائه إلى قبيلته ، والتى وجد فيها الدعم والحماية . ولذلك كان يضحى بنفسه من أجلها ، وينصرها على أعدائها سواء كانت ظالمة أو مظلومة !

وقد اشتهر العربى بالكرم المبالغ فيه ، حتى أنه كان يذبح ناقته الوحيدة للضيف . ولم يكن ذلك بدافع أخلاقى خالص ، بقدر ما كان يهدف إلى أن يشتهر عنه ويتحدث به الناس .

أما المرأة فكانت قليلة القيمة أو معدومتها تقريبا ، ولذلك كان العربى يلجأ أحيانا إلى وأد ابنته حتى لا تكون عبئا عليه ، وخوفًا من أن تلوث شرفه إذا أخطأت ، كما كانوا لا يورثون النساء ، ويضمون أموال اليتامى إلى أموالهم !

وفى المدن العربية القليلة والمتناثرة فى شبه الجزيرة العربية ، كان العرب يشتغلون بالتجارة . ومع التجارة شاع بينهم التعامل بالربا، الذى كان يؤدى فى كثير من الأحيان إلى الرق ، وخاصة عندما لا يتمكن المدين من دفع فوائد الدين المتراكمة عليه .

ويبدو أن امتداد الصحراء اللانهائى فى أمام أعين العرب ، واختلاف الليل والنهار بدون مفاجئات قد جعلهم يتمسكون بتقاليدهم ، ويرفضون بالتالى أى جديد أو تجديد فى حياتهم . وقد شاعت بينهم العرافة والكهانة ، وكان يعتقدون فى التطير ، كما كانوا يكثرون من شرب الخمر ، ولعب القمار ، وارتياد خيام الدعارة .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وعموما فإن أخلاق العرب فى الجاهلية كانت تحتوى على الكثير من العيوب والرذائل ، وتتسم بالخشونة وعدم التعقل ، على الرغم مما كان يوجد لديهم أحيانا من وفاء شيوخ القبائل لعهودهم ، وعدم نقضهم التحالفات التى كانت تعقد بينهم .

موقع الأخلاق من المفهوم المتكامل للإسلام :

الأخلاق هى أفعال الإنسان الإرادية التى تصدر عنه بصورة عفوية ؛ ويمكن أن ينطبق عليها أوصاف الخير أو الشر .

والأخلاق هى المقوم الثالث من مقومات الإسلام الأربعة ، وهى :

-العقيدة .

-الشعائر .

-الأخلاق .

-التشريع .

وتقوم **العقيدة** الإسلامية على أصلين راسخين هما : الإيمان بالله الواحد ، والإيمان بالبعث بعد الموت .

والشعائر الأربع هى حسب ترتيب نزولها : الصلاة والصوم والزكاة والحج .

والأخلاق هى أنواع السلوك التى يتعامل بها الإنسان المسلم مع غيره ، وهى انعكاس مباشر لكل من قوة العقيدة فى قلبه ، وصدق أدائه للشعائر .

والتشريع هو مجموع الأحكام التى تتعلق بحياة الفرد ونظام المجتمع . وهى تتمثل فى دوائر يمكن أن نطلق عليها : الدائرة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية والقضائية والأمنية .. وتختتم أخيرًا بعقوبات الجرائم (الحدود والتعزيرات) .

إن هذه المقومات الأربعة هى التى ينهض عليها وبها المفهوم المتكامل للإسلام ، وهو المفهوم الذى ينبغى أن يكون حاضرًا بوضوح فى أذهان المسلمين ، ومن واجب العلماء والدعاة أن يواصلوا عرضه وشرحه بصورة كلية ، لكى لا تتوزع أجزائه ، ولا تتناثر جزئياته ، وتغيب من الأذهان الهدف الأساسى والمنشود منه .

ومن الملاحظ أن التركيز على بعض مقومات الإسلام ، وإهمال أو إغفال بعضها الآخر هو الذى ما زال يقف حائلاً دون اكتمال الحياة الإسلامية لدى المسلمين ، وفى عيون العالم كله . وهو الذى يجعل الناس يتساءلون : لماذا تعدّ مبادئ الإسلام وتعاليمه بهذا السمو ، بينما المسلمون يعانون من التخلف بمختلف ضروبه من جهل وفقر ومرض ، وعدم مشاركة حقيقية فى التقدم الذى يشهده العالم من حولهم ؟!

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والمشكلة ببساطة أننا لا نترك النتائج تخرج بصورة طبيعية من مقوماتها . فالعقيدة الإسلامية تتطلب أن يكون الإيمان بركنيها(توحيد الله ، والبعث بعد الموت) قويا وعميقا وصادقا ، بحيث يستشعر المسلم حضور الله فى حياته ، وعظمته فى آفاق الكون ، وعدالته فى توزيع الأرزاق ، وقدرته على البعث بمثل قدرته على الخلق الأول والمتجدد . ثم عندما يضيف المسلم إلى هذه العقيدة الصحيحة ما يؤكدها من الشعائر بالصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، وصوم شهر رمضان كل عام ، وبالزكاة المفروضة والصدقات المفتوحة للفقراء والمحتاجين ، وأخيرًا تأدية الحج لمن استطاع إليه سبيلا .. عندئذ يصبح هذا المسلم عنصرًا صالحا فى ذاته، وبالنسبة إلى المجتمع الإسلامى ، بل والمجتمع الإنسانى كله.. وهنا تتجلى مظاهر الأخلاق التى تمثل المقوم الثالث للإسلام .

الأخلاق هى الواجهة التى يظهر بها المسلم أمام الآخرين ، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، وسواء كان من يتعامل معه جمادا أو نباتا أو حيونا .. وإذا كانت الأخلاق فى تحليلها البسيط تنقسم إلى دوافع داخلية وسلوك خارجى ، فإن الإسلام من خلال العقيدة والشعائر يقوم بدور إيجابى كبير فى تهذيب الدوافع الأخلاقية وإعلائها لتصبح دستورًا خاصًا بكل مسلم ، لا يفرض عليه بالقوانين والأحكام ، وإنما يمهده له ، ويثبته عنده بالوصايا ، والنماذج المضيئة، وأخيرًا بالتطبيق العملى فى حياة الرسول ﷺ الذى وصفه

الله تعالى بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] ويُعدّ بالنسبة لجميع المسلمين "أسوة حسنة" يتطلعون إليه ، ويحاولون على قدر الطاقة محاكاة أفعاله وتصرفاته .

وهنا قد يطرح سؤال : وماذا إذا لم يستجيب المسلم لنتائج عقيدته وشعائره التى تدعوه إلى الأخلاق الفاضلة ، ولا يتمكن من أن يهجر الأخلاق الذميمة؟ والجواب حاضر فى المقوم الرابع للإسلام ، وهو التشريع الذى يحتوى على مجموعة من الأحكام التى تنظم حياة الفرد والمجتمع ، وتضبط سلوك الخارجين عن النظام الإسلامى والمحاولين إفساده ، وتعكير صفو الحياة المستقرة فيه .

هناك قول مأثور من كلام النبوة الأولى كما ذكره الرسول ﷺ: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت" ومعناه أن الإنسان إذا لم يرتدع من ذات نفسه ، ومن خلال نظامه الأخلاقى الخاص به ، فإنه يصبح قابلاً لارتكاب أى شىء من المحرمات . وقد ضبط الإسلام ذلك ، فجعل التشريع الملزم – من خلال الأحكام فى مختلف مجالات الحياة ، وكذلك عقوبات الجرائم (الحدود والتعزير) – رادعا لأمثال هذا الشخص الذى لم يستح .. أى الذى لم يمنعه الحياء الذاتى من ارتكاب الشر ، فمنعه بالأحكام الخارجية فى نظام المجتمع .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأخلاق من القرآن الكريم :

يتضمن القرآن الكريم دستورًا كاملاً للأخلاق الإسلامية ، وهى تأتى إما فى صورة نصائح وتعاليم وإما فى صورة نماذج وقصص ذات مغزى ودلالة .

ويمكننا ببساطة أن نميز بين الآيات التى تختص بأحكام التشريع التى تنهى مثلاً عن القتل ، أو شرب الخمر ، أو القذف ، أو الزنا أو أكل الميتة .. وبين الآيات التى تتعلق بمعايير الأخلاق المذمومة مثل التجسس والغش وخيانة الأمانة وأكل مال اليتيم والتعاون على الإثم والعدوان .

وميزة النص القرآنى أنه محكم الآيات ، مفصل المعانى ، متنوع المستويات ، لا يخاطب جانبا واحدا من جوانب الإنسان ، وإنما يتجه إلى كيانه كله : العقلى والحسّى والوجدانى ، لكى يطلعه على حقيقة وجوده ، والهدف من خلقه ، ويرشده إلى الطريق الصحيح الذى ينبغى سلوكه ، ويحذره من المسالك التى تؤدى به إلى التهلكة .

وسوف نحاول فيما يلى أن نستعرض بعض الأخلاق القرآنية التى تتصل مباشرة بحياة الإنسان – الفرد ، مثل سلوكه مع أسرته ، وأقاربه ، وجيرانه ، ومعاملته مع أصدقائه ، والمسلمين عموما ، ثم مع المسلمين ، وأخيرًا موقفه من عناصر البيئة من نبات وحيوان وجماد .

فى دائرة الأسرة :

يأتى حسن معاملة الأبوين على رأس المعاملة الأخلاقية فيما ينبغى على المسلم تجاه أقرب الأقربين إليه :

-﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الاسراء : ٢٣] .

-﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت : ٨] .

-﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] .

ولا تكاد توجد فى اللغة العربية كلها جملة تسمو إلى بلاغة (خفض جناح الذل من الرحمة) للتعبير عن مدى الطاعة والخضوع والاستجابة لكل متطلبات الوالدين ثم الدعاء لهما بالرحمة لقاء تربيتهما للإنسان منذ الصغر ، وما لقياه من سهر ومشقة لرعايته وتنشئته حتى يصبح شخصا ناضجا .

ومن الطبيعى أن تكون العناية بالأم أكثر من الأب . فهى الجانب الأضعف من ناحية ، كما أنها هى التى بذلت الأكثر فى التربية وتحمل مشاق الحمل والرضاعة والتربية والرعاية .. ويذكر القرآن الكريم من فضائل عيسى عليه السلام أنه كان (بارا بوالدته) [سورة مريم : ٣٢] .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لكن طاعة الوالدين لا تذهب إلى حد الاستجابة لدعوتهما الابن إلى الشرك بالله. فالشرك ظلم عظيم . والله تعالى لا يقبله ، ولا يرضاه لعباده ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان : ١٥] ومع ذلك فإنه يدعوه إلى أن يستمر فى مصاحبتها فى الدنيا بالمعروف ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان : ١٥] .

يتلو ذلك **معاملة الزوجه** التى خلقها الله تعالى من نفس الرجل لتكون له سكنا .

- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [سورة الروم : ٢١] .

وهذا هو طابع الزواج السعيد والمستقر .

وسوف نجد فى التشريع القرآنى تفصلات دقيقة وحكيمة لنظام الزواج ، حتى من قبل أن يبدأ ، وطوال فترة بقائه ، وأخيرًا فى ظروف حل عقدته بوفاة أحد الزوجين أو بالطلاق . لكن الملاحظ هنا أن الجانب الأخلاقى يتداخل بل يتماهى مع الجانب التشريعى فى هذا المجال .

ويوصى القرآن الكريم العائلات المسلمة أن تساعد فى تزويج الأرامل ، والفقراء الصالحين والصالحات على وعد إلهى بأن يغنيهن الله من فضله .

- ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٢] ومع ذلك فإنه يحض الشباب المسلم ، غير القادر على تكاليف الزواج بالصبر ، حتى يأذن الله بالفرج بعد الشدة :

- ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور : ٣٣] .

ومن ناحية أخرى ، فإن القرآن الكريم يحذر المسلمين جميعا ، متزوجين وغير متزوجين ، من التطلع إلى ما منحه الله للبعض من زوجات جميلات ، فإن ذلك فى الحقيقة فتنة لهم :

- ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الروم : ٢١] .

أما سلوك المسلم مع زوجته فتندرج كل تفاصيله فى التعبير القرآنى الحميم فى قوله تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ومعناه باللهجة العامية المصرية : "النساء ستر وغطا بالنسبة إلى أزواجهن ، والأزواج نفس الشىء بالنسبة لزوجاتهم" . وفى سورة النساء ، يحذر الأزواج من الاستيلاء على المهر الذى

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

قسوة للنساء . فيقول ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [آية ٢١] والإفضاء يعنى تمام المكاشفة بين الزوجين ، اللذين ينبغى أن تقوم العلاقة بينهما على المحبة والمودة والحفاظ على مشاعر كل منهما للآخر ، وليس فقط حفظ ماله ومصلحته .

لكن العلاقة الزوجية قد تصاب أحيانا بالخلل . وعندئذ لا ينبغى التسرع فى اتخاذ قرار بالانفصال ، بل إن القرآن الكريم يدعو إلى مزيد من التريث وعدم التهور . وهنا يمكن للحكماء من أهل الزوج وأهل الزوجة أن يتدخلا محاولين إعادة الأمور إلى نصابها ، وأن يحكما على المخطئ حتى يرجع عن خطأه ، ويدعوا الطرف الآخر إلى التسامح والعفو :

- ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء : ٣٥] .

أما إذا تعذر الصلح ، واستحالت العشرة لم يعد من الطلاق مفر . وحينئذ يمكن أن ينفصل الزوجان بصورة هادئة لا عنف فيها ولا ظلم ولا استقواء . يقول الله تعالى ﴿ الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وفى ذلك كله ، يلاحظ أنه لا يوجد لجوء إلى القضاء الرسمى ولا إلى المحاكم ، ولا إلى ما طبق فى مصر خلال فترة طويلة مما يسمى ببيت الطاعة .. فإن العلاقة الزوجية أسمى من ذلك

وأرق ، وهى كما بدأت بالحسنى ، واستمرت بالمودة والرحمة ، ينبغى إذا انتهت أن تنتهى بالإحسان .

علاقة المسلم بأقاربه :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى [النحل : ٩٠] وجعل للأقارب حقا فى مال المسلم ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [الاسراء ٢٦ ، الروم ٣٨] ومهما يفعل الأقارب ، فمن الأفضل مساعدتهم . يقول الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى﴾ [النور ٢٢] ويميز بين البر الظاهرى، والبر الحقيقى بقوله تعالى ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة ١٧٧] .

لكن مساعدة الأقارب لا تقتصر على المعونة المالية فقط ، وإنما ينبغى أن تمتد لتشمل التواصل الحميم معهم ، وعدم قطع الصلة بهم :

- ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ [النساء ١] .
- ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد ٢٢] .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

علاقة المسلم بجيرانه :

يوصى القرآن الكريم المسلمين بضرور الإحسان إلى وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ [النساء ٣٦] ، أى سواء كان من الأقرباء أو من غيرهم ، وذلك فى اطار الإحسان عامة إلى الوالديْن، والأقرباء ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ..

والواقع أن الإسلام يعتبر الجار امتدادًا للأسرة ، فهو أقرب الناس إليها ، وأسرعهم عند الشدائد لمساعدتها ، وعند الخطوب المفاجئة لنجدتها . وليس أكثر اطمئنانا وأمانا من أن ينام المسلم فى بيته وجاره حريص على توفير الأمان له ولأسرته . وقد جاء فى الحديث النبوى . قال رسول الله ، ﷺ : "ما زال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه" .

ان المجتمع الإسلامى الحقيقى لا يقوم على وجود الأفراد الصالحين فحسب ، وإنما أيضا على البيوت الصالحة المتجاورة فى تعاون وتواد ، وتخلو من العداوة والبغضاء والقطيعة .

وقد حدد الإمام الغزالى عددًا من الواجبات والآداب الأخلاقية التى ينبغى على المسلم أن يعامل بها جاره ، ومنها :

-أن يبدأه بالسلام .

-ألا يطيل معه الكلام .

-ألا يكثر عنه السؤال .

-ألا يتبعه النظر فيما يحمل إلى داره .

-أن يعوده فى المرض .

-أن يعزيه فى المصيبة ، ويظل معه فى العزاء .

-أن يهنئه فى الفرح .

-أن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما .

-ألا يطلع من السطح على عوراته .

-ألا يؤذيه بوضع جذع على جداره ، أو القاء التراب فى فنائه .

-ألا يغفل عن ملاحظة داره فى غيبته .

-أن يغض بصره عن حرمته .

-أن يتلطف إلى أولاده .

-أن يرشده إلى ما قد يجهله من أمر دينه ودنياه .

معاملة المسلم لأصدقائه :

الصداقة أو الصحبة من أهم العلاقات الإنسانية التى باركها الإسلام ، فقد فتح لها الأبواب على أوسع مدى حين أكد على مبدأ التعارف بين الأمم والشعوب :

-﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبالنسبة للمسلمين ، فقد دعا القرآن الكريم إلى أهمية الألفة بينهم ، بما تشتمل عليه من تضامن وحميمية ، مقررًا أن الله تعالى هو الذى يؤلف بين القلوب .

- ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال ٦٣] .

وهو يعتبر الصداقة التى تصل إلى حد الأخوة : نعمة من الله تعالى :

-﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران ١٠٣] .

ويقول حاكيًا عن أهل النار :

-﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء ٢٠١] فبيّن أن من مظاهر عقابهم فيها : حرمانهم من الصديق الحميم .

ويلخص أبو حامد الغزالى أهم مظاهر علاقة الصداقة فى نص متميز ، عنوانه "حقوق المسلم" يقول فيه :

-أن تسلم عليه إذا لقيته ،

-وتجيبه إذا دعاك ،

-وتشمته إذا عطس ،

-وتعوده إذا مرض ،

-وتشهد جنازته إذا مات ،

-وتبر قسمه إذا أقسم عليك ،

-وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ،

-وتحب له ما تحب لنفسك .

-وتكره له ما تكره لنفسك .

وهذا بالطبع مستمد من قول الرسول ، ﷺ : "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" .

معاملة المسلمين :

يقرر القرآن الكريم قيام العلاقة بين المسلمين جميعا على أساس الأخوّة الخالصة ، فيقول ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ومع التدرج فى التحليل يمكننا أن نقف على أن أخوّة الإيمان أقوى وأصفى وأنقى من أخوة الدم والقرابة ، بل إن أخوة القرابة قد يعتريها الحسد والحقد والعداوة ، وخاصة إذا علا أحد الإخوة عليهم ، أو حصل على ما لم يحصلوا عليه كما أخبرنا القرآن الكريم عن ولدىْ آدم ، وكما ورد بالتفصيل فى قصة إخوة يوسف .

ويدعو القرآن الكريم جميع المسلمين إلى الوحدة والاتحاد الذى يعنى التواصل والتواد والنجدة ونبذ الفرقة والاختلاف ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ولذلك يحضّ على إزاله أسباب العداء ووقف الاقتتال إذا وقع بين جماعتين من المسلمين عن طريق التدخل الودى أولاً ثم الحاسم والسريع لإقرار الصلح

إهداء من شبكة الألوكة

بينهما ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وإذا حاولنا استخلاص أمهات الأخلاق التى يتعامل بها المسلم مع المسلمين ، كما حددها القرآن الكريم ، ونثرها فى العديد من آياته، كما مزجها أحيانا بآيات التشريع ، فمن الممكن أن نسردها فيما يلى :

- الصدق فى القول .
- الإخلاص فى العمل .
- أداء الأمانات إلى أصحابها .
- الوفاء بالعهد .
- الصبر فى البأساء والضراء .
- معاقبه المعتدى بالعدل ، مع إمكانية العفو عنه .
- التواضع .
- الإنفاق دون إسراف ولا تقتير .
- التعاون على البر والتقوى .
- طلب العلم ونشره .
- الإيثار لمن يستحق .

- إعطاء الصدقة فى الخفاء .
- العفو والمغفرة عند الغضب .
- دفع السيئة بالحسنة .
- الاستئذان قبل الدخول .
- خفض الصوت .
- إلقاء التحية عند الدخول .
- رد التحية بأحسن منها .
- التفسح فى المجالس .
- الاستئذان قبل الانصراف .

وبالنسبة إلى الاخلاق المنهى عنها :

- عدم مخالطة الجاهلين والسفهاء .
- عدم شهادة الزور .
- عدم كتمان الشهادة .
- تجنب الغش بكل أنواعه .
- تجنب الكذب .
- تجنب الظلم .
- تجنب البخل ، وكنز المال .

إهداء من شبكة الألوكة www.alu

- تجنب إيذاء المؤمنين والمؤمنات .
- عدم التعاون على الإثم والعدوان .
- تجنب الخيانة ، والدفاع عن الخونة .
- تجنب الجهر بالسوء من القول .
- تجنب سوء معاملة اليتيم .
- تجنب السخرية من الأفراد والطوائف .
- عدم التنابز بالألقاب .
- عدم احتقار أحد من الخلق .
- تجنب الاختيال والفخر .
- تجنب التجسس على الآخرين .
- تجنب الافتراء والغيبة .
- تجنب الإسراع فى تصديق الفاسق .
- عدم السكوت عن المنكر العام .
- عدم مناداة الكبار من خارج البيوت .

معاملة غير المسلمين :

لا يستطيع أى باحث مدقق أن يصف المجتمع الإسلامى بأنه مجتمع متعصب أو مغلق على المسلمين وحدهم ، وذلك من واقع ما

أقامه المسلمون من علاقات طيبة مع أصحاب الأديان الأخرى . وفى مقدمتهم المسيحيون واليهود . فقد عاش هؤلاء بينهم متمتعين بنفس الحقوق التى كانت للمسلمين ، كما ساهموا فى وثبات النهضة التى كانت تحدث فى الدولة الإسلامية عندما كان يتولى مسئوليتها حكام مستنيرون . ويمتلئ التاريخ الإسلامى بأمثله محددة على تولى كل من المسيحين واليهود مناصب عليا فى الدولة ، ومنها منصب الوزارة ، إلى جانب اشتغالهم بالطب ، الذى كان يقربهم كثيرا من دائرة الحكام المسلمين ، كما كان لهم دور بارز فى الجوانب المالية والاقتصادية نتيجة خبرتهم الطويلة فيها . ولا تقل مساهمة أصحاب الأديان الأخرى فى الدولة الإسلامية – فى الجانب العلمى – عنه فى سائر الجوانب الأخرى . فقد كان منهم علماء برزوا إلى جانب العلماء المسلمين فى الفلسفة والأخلاق والرياضيات والكيمياء .. الخ ولعل أبرز مساهماتهم كانت فى مجال الترجمة من وإلى اللغة العربية ، فقد ترجموا فى عهد الدولة العباسية الأول الكثير من المؤلفات الإغريقية كما ترجموا إبان ازدهار الحضارة الإسلامية فى الأندلس الكثير من المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية ، وكان هذا سبب معرفة أوربا بها.

والواقع أن موقف المسلمين من أصحاب الأديان الأخرى لم يكن نتيجة الحاجة أو الضرورة أو السعى لتحقيق مصلحة ، بقدر ما كان نابعًا من موقف الإسلام نفسه ، والقرآن الكريم الذى أعلن بكل

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قوة ووضوح تكريم الله تعالى للإنسان كانسان ، أى قبل أن يعتنق أى دين ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] واعتبر النفس الإنسانية أثمن ما منحه الله تعالى للإنسان ، ولذلك حذر تحذيرًا بالغا من الاعتداء عليها أو إزهاقها دون قصاص أو إفساد ﴿ ومَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة :٦٢] .

ويقول أيضا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] .

ويعتبر القرآن الكريم النصارى هم أقرب أتباع الأديان الأخرى للمسلمين فى المودة ، فيقول : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ﴾ [المائدة : ٨٢] .

تعامل المسلم مع البيئة :

نود فى البداية أن نشير فى هذا المجال إلى فكرتين مهمتين وردتا فى القرآن الكريم ، وهما (فكرة الاستخلاف) استخلاف الله تعالى للإنسان فى الأرض .

- ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠].
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥ .

وفكرة (استعمار الأرض) أى إقامة العمران فيها :

- ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١]

ومن الواضح أن هاتين الفكرتين مرتبطان ، بل متداخلتان إحداهما فى الأخرى . فقد خلق الله تعالى الأرض وما عليها ، وما تحتها عبارة عن مواد أولية ، بعضها يمكن للإنسان الاستفادة المباشرة منه ، وبعضها الآخر يتطلب عملاً وجهدًا وتصنيعا . ولأن الإنسان – كما ذكر القرآن الكريم خلق ضعيفا ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] فقد سخر الله تعالى له كل ما فى السموات والأرض ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان : ٢٠] حتى أصبح بحق هو سيد هذه الأرض. فقد تغلب على الكثير من قوى الطبيعة وأزاح الحيوانات المفترسة من مكان إقامته ، واستأنس العديد من أضاف الحيوانات والطيور التى أباحها الله تعالى لطعامه ، كما استثمر الأرض بالزراعة وراح ينتج منها المحاصيل والخضروات والفواكه بصورة منتظمة ، ويصنع الآلات التى تساعده على اختصار الوقت والمجهود .. وهكذا يمكن القول بأن الإنسان الذى يدرك جيدا حقيقة وجوده يمكنه أن يصنع

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بنفسه جنته الأرضية التى لا يفوقها سوى جنة الآخرة التى وعد الله تعالى عباده الصالحين بالخلود فيها ، والتمتع الدائم بخيراتها .

فإذا استعرضنا بعد ذلك جانبا من تعامل المسلم مع البيئة وجدنا الإسلام يدعوه إلى (النظافة) التى تعتبر مقدمة ضرورية لأداء الشعائر. فالوضوء أو الاغتسال يكون غالبا بالماء . والماء لابد أن يكون طاهرا ، أى لم تلق فيه نجاسة أو قذارة ، ثم أن الأرض كلها مكان صالح للصلاة، وبالتالى فلابد من تمهيدها لذلك ، فتزال منها الأشواك والصخور ومختلف القاذورات . ولا يدعو الإسلام أتباعه إلى نظافة ملابسهم فقط ، بل يحثهم كذلك على أخذ زينتهم عند كل مسجد ، كما لا يرضى لهم أن يصدر عنهم ما يؤذى الآخرين ، فينهاهم الرسول ﷺ عن حضور صلاة الجماعة وقد أكلوا الثوم أو البصل حتى لا تزعج رائحتهما أحدا . ولا شك أن هذه التعاليم تفتح الباب واسعا أمام وقف كل أنواع التلوث (البصرى والشمى والسمعى ..) الذى يصيب البيئة عن قصد أو غير قصد ، ويتطلب إزالته على وجه السرعة ، والمحافظة على ما تتطلبه من نظافة ونقاء.

المسلم مطالب بإماطة الأذى من الطريق . وعدم قطع شجرة أو إحراقها ، كما أنه مطالب بالرفق بالحيوان الذى يستخدمه أو يعيش معه . والقرآن الكريم يدعو المسلمين إلى الاعتبار المستمر من

مشاهدة آثار الأمم السابقة . وهذا يدل على احترام تلك الآثار وعدم المساس بها ، أو تدميرها .

ويبقى أن المسلمين فى أى مكان وجدوا فيه قد أقاموا حياة عمرانية متكاملة : فى كل مدينة أو قرية أقاموا المسجد ، وبداخله أو بجواره المدرسة ، وقريبا منها السوق ، ثم المستشفى ، ودار القضاء، وديوان المظالم ، وقصر الحاكم ، والسجن للخارجين على القانون . وفى المساء كانت تغلق الحارات على أصحابها حتى يناموا فى أمان، بينما يسهر على حراستها رجال شرطة متجولون. وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد تركت لنا بعض بقايا قصور الأغنياء ، وهى تحتوى على حمامات خاصة بداخلها ، فإن الحمامات العامة بلغت فى مدينة واحدة مثل قرطبة بالأندلس حوالى خمسمائة حمام عام .

الأخلاق من السنة النبوية :

إذا كان القرآن الكريم يقدم لنا دستورًا متكاملاً من الأخلاق ، فإننا قد رأينا أنها قد جاء فى صورة وصايا وتعاليم ، وقصص يمكن استمداد العبرة منها . وعلى نفس المنوال تمضى السنة النبوية (القولية) ، فى حين تقدم لنا السنة (الفعلية) نموذجا مجسدًا للأخلاق الإسلامية ، مستمدًا من حياة الرسول ﷺ فى مختلف المواقف التى مرت به . فما هى دلالات ذلك ؟

إهداء من شبكة الألوكة

أولاً : أن الأخلاق التى جاء بها القرآن الكريم ليست من نوع الأخلاق الطوباوية ، وهى التى صورها أو تخيلها فلاسفة الأخلاق دون أن تكون لها إمكانية التطبيق الفعلى فى حياة البشر .

ثانيًا : أن تنزيل المبادئ والتعاليم إلى مستوى التصرفات والسلوك أمر ممكن ، وليس مستحيلا . وعندما يتحقق فى شخص واحد فإن أتباعه يمكنهم أن يقتربوا منه أو يحاكوه فى كل زمان ومكان ..

ثالثًا : أن رسول الله ﷺ عندما حقق فى سلوكه ما دعا إليه من أخلاق عليا ، ومبادئ إنسانية سامية ، ينفرد عن كل مشاهير العالم وزعمائه بدون استثناء ، لأننا عندما نقرأ سير حياتهم نجدها لا تخلو من نقائص أخلاقية ، وكذلك من مواقف يتناقض فيها القول مع الفعل، والنظرية مع التطبيق .

إن التكريم الإلهى لمحمد ، ﷺ ، فى القرآن الكريم يفوق تكريم سائر الأنبياء ، ويكفى أن الله تعالى خاطبة بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فأىّ شهادة أعلى وأسمى وأرفع من ذلك ؟! كما أسرى به إلى بيت المقدس وجعله يصلى إماما بالأنبياء جميعا ، وعرج به جبريل إلى السماوات ، وأطلعه على الملكوت الإلهى حتى بلغ سدرة المنتهى التى لم يبلغها بشر على الإطلاق . كما أنه تعالى منحه الشفاعة الكبرى يوم القيامة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة ١٤٣] بل إنه تعالى

جعله شهيدًا على سائر الشهداء يوم القيامة ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] وأخيرًا ، وليس آخرًا ، فقد جعله خاتم النبيين والرسل ، ودعا اتباعه كلهم لكى يقتدوا به ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب ٢١] ، وجعل طاعته مقرونة بطاعة الله تعالى ﴿ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال ٢٠] .

وسوف نعرض فيما يلى جانبا من الأخلاق التى دعا إليها الرسول ﷺ فى سنته القولية ، نتلوها بمقتطعات أخرى من أخلاقه، كما سجلها عنه الصحابة الذين كانوا يتابعون كل حركاته وسكناته ﷺ .

من السنة القولية :

- أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم (الترمذى).
- إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا (الترمذى) .
- إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم (أبو داود ، وابن حبان ، وابن حنبل) .
- تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة (الترمذى ، وابن حبان) .
- إن الله يحب الرفق فى الأمر كله (متفق عليه) .

- إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا فى وجوههم التراب (مسلم والترمذى).
- سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر (متفق عليه) .
- لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها ، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة (متفق عليه).
- لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين (متفق عليه)
- إن شر الناس ذو الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه (متفق عليه).
- من سره أن يتمثّل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار (الترمذى وأبو داود) .
- خير المجالس أوسعها (أبو داود وأحمد والحاكم) .
- الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة ، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم (الطبرانى ، والبيهقى) .
- أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فَجَر (البخارى) .
- ما من مسلم غرس غرسا ، فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة (البخارى) .

- ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى (البخارى).
- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت (البخارى) .
- لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام (البخارى) .
- نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ (البخارى) .

من السنّة الفعليه :

سوف نقتصر فى هذا المجال على ما جمعه السيوطى فى (الجامع الصغير) تحت حرف الكاف . وهو من الشمائل أى من الصفات الطيبة التى رصدها وتابعها وسجلها الصحابة رضوان الله عليهم ، والتى تعتبر فى الواقع هى الأخلاق الحقيقية للرسول ﷺ ، التى كانت تتجلى فى سلوكه وتصرفاته :

- كان أحسن الناس خلقا (أبو داود ، مسلم) .
- كان أصبر الناس على أقذار الناس (حديث صحيح) .
- كان كلامه فصلا يفهمه كل من سمعه (أبو داود) .
- كان أبغض الخلق إليه : الكذب (البيهقى) .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- كان أحب العمل إليه ما دووم عليه وإن قل (الترمذى ، النسائى) .
- كان إذا أتاه الأمر يسرّه قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصحات، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال (الحاكم، صحيح).
- كان إذا أتى بطعام سأل عنه : أهدية أم صدقة ؟

فإن قيل : صدقة قال لأصحابه : كلوا ، ولم يأكل .

وإن قيل : هدية ، ضرب بيده فأكل معهم (الدارقطنى ، النسائى).

- كان إذا أفطر قال : اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت (أبو داود).
- كان إذا بعث أميرا قال : أقصر الخطبة ، وأقل الكلام ، فإن من الكلام سحرًا (الطبرانى – صحيح) .
- كان إذا حزبه أمر صلى (أحمد فى المسند ، أبو داود) .
- كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله ، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نضل أو نظلِم أو نظلَم أو نجهل أو يجهل علينا (الترمذى – صحيح) .
- كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك (حديث صحيح) .
- كان إذا سمع الاسم القبيح حوّله إلى ما هو أحسن منه (ابن سعد) .

- كان إذا شهد جنازة أكثر الصمات ، وأكثر حديث نفسه (حديث حسن).
- كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وخفض بها صوته (أبو داود ، الترمذى ، الحاكم) .
- كان إذا غضب وهو قائم جلس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع، فيذهب غضبه (ابن أبى الدنيا) .
- كان إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته (أحمد ، مسلم ، أبو داود) .
- كان إذا مشى لم يلتفت (حديث صحيح) .
- كان إذا ودع رجلاً أخذه بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده ويقول : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك (أحمد ، الترمذى ، النسائى) .
- كان أكثر دعوة يدعو بها : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (حديث صحيح) .
- كان خلقه القرآن (أحمد ، مسلم ، أبو داود) .
- كان طويل الصمت ، قليل الضحك (أحمد فى المسند) .
- كان ممن يقول للخادم : ألك حاجة ؟ (أحمد فى مسنده) .
- كان لا يحدث حديثا إلا تبسم (أحمد فى مسنده – حديث حسن) .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- كان لا يدخر شيئا لغد (الترمذى) .
- كان لا يرد الطيب (أحمد ، الترمذى) .
- كان لا يطيل الموعظة يوم الجمعة (أبو داود ، الحاكم) .
- كان لا يواجه أحدًا فى وجهه بشىء يكرهه (أحمد ، البخارى فى الأدب ، أبو داود) .
- كان يأتى ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم (أبو يعلى ، الطبرانى ، الحاكم) .
- كان ينهى عن التبتل نهيا شديد (أحمد فى مسنده – حسن) .
- كان يأمر بالهدية صلة بين الناس (حديث حسن) .
- كان يأمر بناته ونساءه أن يخرجن فى العيدين (أحمد فى المسند) .
- كان يتفاءل ولا يتطير (أحمد فى المسند – حديث حسن) .
- كان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير (الطبرانى . حديث صحيح).
- كان يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعمل بعمل الرجال فى بيوتهم (أحمد فى المسند – حسن) .
- كان يذكر الله على كل أحيانه (حديث صحيح).
- كان يزور الأنصار ، ويسلم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم (النسائى).

- كان يعجبه الريح الطيبة (أبو داود ، الحاكم) .
- كان يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه (الترمذى ، الحاكم) .
- كان يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه (ابو نعيم فى الحلية).
- كان يقبل بوجهه على شر القوم يتآلفه بذلك (الطبرانى).
- كان لا يأنف ولا يستنكر أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى له حاجته (النسائى ، الحاكم) .
- كان يكره نكاح السر حتى يضرب بدف (ابن أحمد بن حنبل فى الزوائد).
- كان آخر ما تكلم به : جلال ربى الرفيع فقد بلغت .. ثم قضى (حديث صحيح).

* *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

آداب المجالسة عند ابن المقفع

يعتبر ابن المقفع[1] من أكبر كتاب اللغة العربية ، وأحد القلائل الذين وصلوا بهذا اللغة إلى درجة عالية من البيان الراقى ، والتعبير الأدبى البليغ ، وهو كاتب حكيم ، تغلب على كتاباته الحكمة ، وتشيع فيها النصائح المتعلقة بآداب السلوك ، كما تتميز لغته بقدر كبير جدًا من التركيز .

عاش ابن المقفع فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، وقام بدور هام فى ترجمة أنفس المؤلفات الفارسية إلى اللغة العربية. وقد قيل عن أسلوبه فى الترجمة : "إنه لم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل إلى اللسان العربى شيئًا فى الأدب والعلم ، لا تحس فيه أثر اللغة المنقول عنها.. إلا ابن المقفع"[2] .

أسلم ابن المقفع بعد أن كان يدين بالمجوسية .. ولا يمكن أن يقال إنه قام بهذا العمل بغية الحصول على منصب فى الدولة الإسلامية الناشئة : لأنه كان – وهو مجوسى – يشغل فيها أرقى المناصب .

(١) انظر : "ابن المقفع" لخليل مردم، ط دمشق ١٩٣٠ ، "وابن المقفع" لعبد اللطيف حمزة ، دار النشر الحديث ، والمقالة الضافية التى كتبها جابرييلى F.Gabrieli فى الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية، النسخة الفرنسية .

(٢) انظر : "أمراء البيان" لمحمد كرد على ١٠٨/١ .

وقتل ابن المقفع حوالى سنة ١٤٥ هـ، فى عهد المنصور ، الخليفة العباسى . وكان مقتله سياسيًا بالدرجة الأولى ، على الرغم من اتهامه مرة بالزندقة ، وأخرى بالإلحاد . ومن المعلوم أن أمثال هذه الاتهامات كثيرًا ما ألصقت ببعض الشخصيات المغضوب عليها من قبل السلطات الحاكمة لتبرير القسوة التى تنزلها بهم[1] .

وصل إلينا من ترجمات ابن المقفع ومؤلفاته ثلاثة كتب :

أشهرها كتاب "كليلة ودمنة" وهو كتاب رائع ، عرفته أكثر من أمة ، وتروى قصصه على ألسنة البهائم والطير ، ويرمى إلى تهذيب الأخلاق ، وإصلاح النفوس. كان قد وضعه باللغة السنسكريتية (الهندية القديمة) فى ١٢ بابًا الفيلسوف الهندى بيدبا للملك دبشليم. ثم نقله برزويه إلى اللغة الفارسية القديمة (الفهلوية) بعد أن زاد عليه ثلاثة أبواب. ومن الفهلوية نقله ابن المقفع إلى اللغة العربية بعد أن زاد عليه ستة أبواب. وقد وجد الأصل الهندى. وفقد الأصل الفهلوى، ولم يبق من التراجم الأولى غير الترجمة العربية لابن المقفع، وعنها نقل إلى لغات الأمم الأخرى[2] .

أما الكتاب الثانى فهو بعنوان "الأدب الصغير" وفيه يقول ابن المقفع : "وقد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفًا (يقصد عبارات) فيها عون على عمارة القلوب وصقالها ، وتجلية

(١) انظر : ضحى الإسلام ٢٢٣/١ لأحمد أمين ، حيث ناقش زندقة ابن المقفع ونفاها .

(٢) ابن مسكويه لعبد العزيز عزت ، ص٢٠٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alu

أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ، ومكارم الأخلاق"[1] .

أما كتابه الثالث فهو "الأدب الكبير" ، وقد وقع خلط يتصل بعنوانه فى المراجع القديمة ؛ حيث ذكر مرة أنه هو نفسه كتاب "اليتيمة" لابن المقفع ، وذكر مرة أخرى أنه كتاب مستقل ، ولم يصلنا كتاب "اليتيمة" على أية حال. ومع ذلك، فقد رجح الأستاذ أحمد أمين أن "الأدب الكبير" غير "اليتيمة"[2] .

ومهما يكن من شىء ، فإن كتاب "الأدب الكبير" يتناول – فى تركيز بليغ – حشدًا هائلاً من التفصيلات التى تتعلق بسلوك الإنسان فى المجتمع ، وتؤكد – بصفة خاصة – على علاقته مع الرؤساء والأصدقاء ، وضروب التعامل معهم ، فى شكل نصائح عامة مدعومة بخبرة إنسانية عميقة فى دراسة أحوال البشر النفسية والاجتماعية .

كان من المهم أن نعرض لمنهج ابن المقفع فى كتابه ، غير أن ناشر الكتاب تدخل – مع الأسف – فى ترتيب معانيه ، تبعًا لما رآه

(١) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢) ضحى الإسلام ، ١٩٩/١ ، ٢٠٠ واعتمد فى ذلك على عدة حجج مقبولة، وانظر كذلك : ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة .

من تناسق ، واعتمادًا على أنه لم يعرف لترتيب بعينه رواية صحية عن ابن المقفع[1] .

ومع ذلك ، فلا يفوتنا الإشارة إلى طريقة أبن المقفع فى تسجيل تلك النصائح الأخلاقية ، وهى طريقة تقوم على التركيز الشديد فى فقرات قصار أو متوسطة ، تبدأ غالبًا بأمر أو نهى (افعل – لا تفعل) وأحيانًا ما تكون خاصة بموقف معين، فتبدأ بـ (إذا حدث كذا ...) لكنها تعود أيضًا فتأمر أو تنهى .

لست أدرى تمامًا، كيف تتجاوب النفوس مع هذا الأسلوب من الوعظ الأخلاقى ؟ ولكن الغالب على الظن أن كثيرًا من الناس لن يستمعوا – مثلا – إلى نصيحة ابن المقفع الخاصة بترغيب النفس فى العلم ، والتى يقول فيها : "حببْ إلى نفسك العلم حتى تلزمه وتألفه، ويكون هو لهوك ولذتك وسلوتك وتعللك وشهوتك، واعلم أن العلم علمان : علم للمنافع وعلم لتذكية العقول . وأفشى العلمين وأجداهما أن ينشط له صاحبه من غير أن يحض عليه : علم المنافع . وللعلم الذى هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها فضيلة منزلة عند أهل الفضيلة والألباب"[2] .

غير أن طريقة ابن المقفع تتخذ ، فى أحيان أخرى، منطق الإقناع العقلى، وتعتمد على كثير من الحقائق الاجتماعية المستقاة من

(١) مقدمة الأدب الكبير لمحمد المرصفى ، ص١٥ ، مطبعة مطر ، القاهرة ١٩١٣ .

(٢) الأدب الكبير ، ص٦٩ ، ٧٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

التجربة ، وتتوالى فى إيراد البراهين ، مع استخدام الأسلوب الملون بالاستفهام والتعجب. ومن الأمثلة على ذلك، تلك الفقرة التى يقرر فيها أن رضا الناس غاية لا تدرك. يقول :

"إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك، وكيف يتفق لك رأى المختلفين؟! وما حاجتك إلى رضا من رضاه الجور ، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة؟! فعليك باختيار رضا الأخيار منهم ، وذوى العقل. فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مئونة ما سواه"(١) .

أما النقطة المهمة ، فتتمثل فى أن ابن المقفع يحدد لنفسه مجال البحث ، وهو السلوك الاجتماعى القويم فى معاملة الحكام والأصدقاء. فلا يخرج من هذا المجال ، وينجح – إلى حد كبير – فى استقراء أنماط ذلك السلوك الاجتماعى ؛ استقراء يكاد يكون شبه كامل(٢). كما يقدم لموضوعه فى إقناع، ويحدد الهدف من كتابته فى تواضع ، وهى خصائص يمكن عدها بدايات جيدة لحركة التأليف فى الإسلام . ويكفى أن يتأمل القارئ تلك الفقرة الهادئة التى يقول فيها عند تقديم كتابه :

"وأنا واعظك فى أشياء من الأخلاق اللطيفة ، والأمور الغامضة التى لو حنكتك سن كنت خليقًا أن تعلمها ، وإن لم تخبر

(١) نفسه المصدر ، ص١٢ .

(٢) ذكر ابن المقفع فى هذا الصدد ٨٥ نمطًا .

عنها ، ولكننى قد أحببت أن أقدم إليك فيها قولاً لتروض نفسك على محاسنها قبل أن تجرى على عادة مساويها. فإن الإنسان قد تبتدر إليه فى شبيبته المساوئ ، وقد يغلب عليه ما بدر إليه منها للعادة . فإن لترك العادة مئونة شديدة ، ورياضة صعبة"(١) .

تبقى مسالة أخيرة، تتعلق بالمؤثرات الأجنبية فى كتابات ابن المقفع. من الواضح أن جنسيته الفارسية أولاً ، ثم إجادته للغة الفارسية ثانيًا يقطعان بوجود هذه المؤثرات. أما القضية التى ثار حولها بعض الجدل ، فهى مدى أصالة ابن المقفع فى كتابته : هل كان ينقل كل ما يكتبه عن الفارسية أم أن له فيه نصيبًا من الاختراع؟

ولا شك أن دارسى الأدب المقارن هم أولى من يقدم إجابة مقبولة عن هذا السؤال. أما ما يكفى أن نشير إليه هنا ، فهو ان ابن المقفع قد قدم للحضارة الإسلامية أجود ما انتقاه من أفكار ، مدركًا روح الأمة التى يخاطبها ، غير خارج عن تعاليم دينها ، أو مستهدفًا للنيل من مثلها العليا .

(١) الأدب الكبير ، ص٧ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

آداب المجالسة :

يشغل هذا الموضوع ما يقرب من نصف كتاب "الأدب الكبير"[1]. ويمكن القول بدءًا بأن ابن المقفع قدم فيه مادة طيبة وشاملة. وإذا كانت قد وردت متناثرة فمن الأفضل تصنيفها إلى العناصر التالية :

١-آداب الاستماع .

٢-آداب الحديث .

٣-آداب مجالسة الجماعة .

٤-آداب مجالسة الأصحاب .

٥-مقارنة بين القول والعمل .

٦-علاج عيوب المجالسة .

أولاً : آداب الاستماع :

الإنسان فى مجالسته الآخرين إما محدث أو مستمع. فإن كان يستمع إلى رئيس ، فعليه أن يركز انتباهه كله إلى حديثه ، ويستتبع هذا بالطبع إلزام بعض أعضاء الجسد وضعًا خاصًا ، يقول ابن المقفع : "إذا كلمك (الوالى) فأصغ إلى كلامه ، ولا تشغل طرفك عنه بنظره إلى غيره ، ولا أطرافك بعمل ، ولا قلبك بحديث نفس"[2] ، ثم

(١) الأدب الكبير ، ص٤٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص٥٤ .

يؤكد ضرورة تطبيق هذا السلوك بناء على ما يبدو من معرفته بنفسية الحكام والرؤساء ، فيقول : "واحذر هذه الخصلة من نفسك، وتعاهدها بجهدك"[1] .

أما إذا جلس الإنسان إلى عالم ، أو أستاذ ، أو من هو أكبر سنًا أو خبرة بوجه عام ، فمن اللائق أن يظهر له شعور الحاجة إلى المعرفة ، وهو شعور يتطلب من الإنسان أن يطرح ما لديه من أسئلة، ثم ينتظر الإجابة عنها. ومن الواضح أن انتظار الإجابة لا يتسق وكثرة التدخل فى الحديث بالمقاطعة ، أو الملاحقة ، أو التعقيب، بالقبول أو الرفض ، على بعض الفقرات. يقول ابن المقفع : "وليعرف العلماء ، حين تجالسهم ، أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول" .

والواقع أن مقاطعة الإنسان فى حديثه ، من الأمور التى أعطى لها ابن المقفع أهمية كبرى ، فهو يرى أن "من الأخلاق السيئة – على كل حال – مغالبة الرجل على كلامه ، والاعتراض فيه ، والقطع للحديث"[2] .

ويبين الآثار النفسية الناتجة عن مثل هذه المقاطعة قائلاً : "واعلم – فيما تكلم به صاحبك – أم مما يهجن صواب ما يأتى به ،

(١) الأدب الكبير ، ص٤٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويذهب بطعمه وبهجته ، ويزرى به فى قبوله : عجلتك بذلك ، وقطعك حديث الرجل قبل أن يفضى إليك بذات نفسه"[1] .

بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك ، حين ينهى المستمع ، الذى يعلم سلفًا ما يذكره المتحدث ، أن يسرع إلى اغتصاب الحديث منه قبل أن يبدأ ، أو يحاول افتتاح فقرة جديدة قبل أن ينهى المتحدث الفقرة السابقة عليها ، أو يشترك معه فى الكلام فى وقت واحد بغرض أن يظهر الآخرين على معرفته .

ومن المهم جدًا أن ابن المقفع يعد مثل هذا السلوك السيئ أحد الأنواع الغامضة لداء البخل ، مشيرًا إلى أن للبخل مظاهر خفية ، قلما يتنبه لها الناس ، فيقول : "ومن الأخلاق التى أنت جدير بتركها – إذا حدث الرجل حديثًا تعرفه – ألا تسابقه إليه ، وتفتحه عليه ، وتشاركه فيه ، حتى كأنك تظهر للناس بأنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذى يعلم ، وما عليك أن تهنئه بذلك ، وتفرده به.. وهذا الباب من أبواب البخل ، وأبوابه الغامضة كثيرة!" [2] .

ويحذر فى موضع آخر[3] أنك "إذا رأيت الرجل يحدث حديثًا علمته ، أو يخبر خبرًا قد سمعته ، فلا تشاركه فيه ، ولا تتعقبه عليه،

(١) نفس المصدر ، ص٩٦ .

(٢) الأدب الكبير ، ص٩٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص٥٨ .

حرصًا على أن يعلم الناس أنك قد علمته ، فإن فى ذلك خفة وشحا ، وسوء أدب وسخفًا"!!

وأخيرًا ، يجمع ابن المقفع آداب الاستماع ، بصفة عامة ، فى قوله :

"ومن حسن الاستماع :

- إمهال المتكلم حتى ينقضى حديثه ،
- وقلة التلفت إلى الجواب ،
- والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ،
- والوعى لما يقول"[1] .

ثانيًا : آداب الحديث :

فى البداية ، ينبه ابن المقفع إلى أن اللسان عبارة عن آلة حادة، ذات وظيفة خطيرة فى حياة الإنسان داخل المجتمع ، يمكن أن تستخدم استخدامًا عاقلاً فتصبح فى صالحه ، كما يمكن أن تستخدم استخدامًا منحرفًا أو غير منضبط فتصير من أهم عوامل فشله فى علاقاته مع الآخرين .

ويوضح ابن المقفع أن اللسان – ذلك العضو البسيط اللين – تسعى عدة قوى فى الإنسان إلى السيطرة عليه ؛ من أجل تسخيره

(١) الأدب الكبير ، ص٩٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.aluk

للتعبير عن نفوذها ومشيئتها. وهذه القوى هى : العقل، والغضب، والهوى، والجهل .

ومن الواضح أن القوة الأولى تقف فى مقابل القوى الثلاث الأخيرة. والإنسان – بما منح من حرية وإرادة – يستطيع أن يرجح كفة إحدى هذه القوى فى السيطرة على لسانه. يقول ابن المقفع : "اعلم أن لسانك أداة مصلتة ، يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك ... فإذا غلب عليه عقلك ، فهو لك. وإن غلب عليه شىء من أشباه ما سميت لك فهو لعدوك (أى فى غير صالحك) فإن استطعت أن تحتفظ به وتصونه ، فلا يكون إلا لك ، ولا يستولى عليه أو يشاركك فيه عدوك ، فافعل"[1] .

والأساس فى صون اللسان : أن يظل الإنسان صامتًا ، لا يتكلم إلا إذا دعت إلى الكلام ضرورة . ثم بعد ذلك توجد عدة آداب لاستخدام اللسان بصورة معتدلة وناجحة ، من أهمها : مراعاة الموقف، وظروف المخاطب ، وتجنب بعض العادات الرديئة مثل رواية كل ما يسمع الإنسان دون تمحيص ، وقطع الحديث بعد البدء به ، والتكرار الممل ، والقسم حيث لا مجال له ، والكذب ، والملق ... إلخ .

وسوف نتناول كل ذلك فيما يلى :

---

(١) الأدب الكبير ، ص٦٢ ، ٦٣ .

تعد مراعاة المواقف التى يحسن فيها الكلام من أهم ما ينبغى أن يتنبه له المتحدث ؛ إذ ليس فى كل موقف يحسن كل صواب "وإن كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خير من مائة كلمة يقولها الإنسان فى غير فرصها ومواضعها"[1] بل إن الإدلاء بالرأى الصواب – فى غير مكانه – قد يخرج إلى ما يشبه الخطأ. يقول ابن المقفع : اخزن عقلك وكلامك – إلا عند إصابة الموضع .. فإن تمام إصابة الرأى والقول بإصابة الموضع . فإن أخطأك ذلك أدخلت المحنة على عقلك وقولك ، حتى تأتى به فى موضعه . وإن أتيت به فى غير موضعه أتيت به وهو لا بهاء ولا طلاوة له"[2] .

وإذا كانت مراعاة الموقف تتضمن اعتبار عدة عناصر مهمة مثل الوقت ، والمكان ، والجو المناسب ، فإن هناك عنصرًا لا يقل عنها أهمية ، وهو الشخص الذى تتحدث إليه ، والوقوف على شعوره بالنسبة إليك ، أو إلى حديثك . يقول ابن المقفع : "ولا تحدثن إلا من يرى حديثك مغنمًا ، ما لم يغلبك اضطرار"[3] .

وبالإضافة إلى مراعاة المتحدث للموقف ، فإن عليه تجنب عدد من عيوب الحديث ، وأولها : أن تغلب على الإنسان شهوة الكلام ، دون دافع حقيقى له ، فيضطر إلى قطع حديثه بعد البدء به ، محاولاً

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٢ .

(٢) الأدب الكبير ، ص٥٣ ، ٥٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص٦٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تذكر بعض أجزائه ، نتيجة لعدم إعداده سلفًا أو التفكير فيه يقول ابن المقفع : "ولا يكونن من خلقك أن تبتدئ حديثًا ثم تقطعه ، وتقول : سوف – كأنك روأت فيه (نظرت وتدبرت) بعد ابتدائك إياه ، وليكن ترويك فيه قبل التفوه به ، فإن احتجان الحديث (حبسه ومنعه) بعد افتتاحه سخف وغم"[1] ، والواقع أن المتحدث بمثل هذه الطريقة إنما يرهق سامعه ، ويضطره إلى عناء الانتظار لما نسيه ، أو لم يتدبره ، دون أن يكون له ذنب فى النسيان أو عدم التفكر .

ومما يتصل بضرورة التروى فى الحديث قبل البدء به : ما يذكره ابن المقفع عن سرعة نقل الأخبار ، دون تمحيص لها ، أو حتى تصديق ، والسبب فى ذلك أن الإنسان قد تمر عليه الأحاديث المليحة أو الرائعة ، فيسرع إلى حفظها "فإن الحفظ موكل بما ملح وراع"[2] وعندئذ يتملكه شعور غريزى فى أن يشرك الآخرين فى إعجابه بهذه الأحاديث . فإن الحرص على التعجب من طبيعة الناس .

"ومن شأن الإنسان الحرص على الأخبار ، لا سيما ما يرتاع الناس له، فأكثر الناس من يحدث بما سمع ، ولا يبالى ممن سمع ، وذلك مفسدة للصدق ، ومزراة للمروءة" ، فإن استطعت ألا تخبر بشىء إلا وأنت مصدق به ، ولا يكون تصديقك إلا ببرهان فافعل ،

(١) نفس المصدر ، ص٥٣ .
(٢) الأدب الكبير ، ص٨٥ .

ولا تقل كما يقول السفهاء : أخبر بم - بين الناس سامع ، وإن السفهاء أكثر من هو قائل"[

ومن العيوب التى ينبغى أن يحذر من
وخاصة عندما تكون مادة الحديث غير معجبة للآخر
أن عدم الإعجاب يظهر فى طريقة استقبالهم للحديـ
المقفع : "وليس كل معجب لك معجبًا لغيرك . فإذا نشرت مرة والمرتين ، فلم تره وقع من السامعين موقعه منك ، فانزجر عن العودة ، فإن العجب من غير عجيب سخف شديد"[2] ثم يعلق على ذلك ببعض مشاهداته الشخصية فيقول : "وقد رأينا من الناس من تعلق بالشىء ولا يقلع عنه ، وعن الحديث به ، ولا يمنعه قلة قبول أصحابه له من أن يعود إليه ، ثم يعود"[3] .

والواقع أن ابن المقفع يدرك أنه "يكاد يكون لكل شخص (غالبة حديث) لا يزال يحدث به : إما عن بلد من البلدان ، أو ضرب من ضروب العلم ، أو صنف من صنوف الناس ، أو وجه من وجوه الرأى"[4] وهذا لا بأس به ، غير أنه عندما تتحول "غالبة الحديث" إلى لون من الغرام والهوى ، فإن العيب يكون فاضحًا ، ويبدو من الرجل

(١) نفس المصدر ، ص٨٥ ، ٨٦ .
(٢) الأدب الكبير ، ص٨٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص٨٥ ، ٨٦ .
(٤) نفس المصدر ، ص٤٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

تذكر بعض ويعرف منه الهوى" وهنا يوصى ابن المقفع قائلاً : "فاجتنب ذلك فى كل موطن ، ثم عند السلطان خاصة"(١) .

ويحتل القسم أو الحلف عند ابن المقفع مكانًا بارزًا فى عيوب الحديث ، فهو يحذر من استخدامه ، ويفصل القول فى دوافعه ، ويكفى أن يقف الإنسان عليها ليتجنبه ، فإنما يحمل الإنسان على الحلف إحدى هذه الخصال :

١- إما مهانة يجدها فى نفسه ، وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه .

٢- وإما عى بالكلام ، فيجعل الإيمان له حشوًا ووصلاً .

٣- وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه ، فهو ينزل نفسه منزلة من لا يقبل قوله إلا بعد جهد اليمين !

٤- وإما عبث بالقول ، وإرسال للسان على غير روية ، ولا حسن تقدير ، ولا تعويد له قول السداد والتثبيت(٢) .

ويرى ابن المقفع أنه من الأفضل للمتحدث أن يلتزم الصدق ، حتى فى مواقف الهزل ، فإن عاقبة الكذبة الهازلة وخيمة . يقول : "ولا تتهاونن بإرسال الكذبة – عند الوالى أو غيره – فى الهزل ، فإنها تسرع فى إبطال الحق ورد الصدق مما تأتى به"(٣) .

(١) نفس المصدر ، ص٤٦ .

(٢) الأدب الكبير ، ص٢٢ ، ٢٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

كما لا يرضى ابن المقفع عن عادة سيئة تشيع بين الناس عندما يتحدثون إلى رؤسائهم ، وتتمثل فى حشو الحديث بكلمات الملق، والدعاء ؛ رغبة فى اجتلاب منفعة ، أو خوفًا من نزول عقاب. وهو يشير إلى ذلك قائلاً : "إذا عرفت نفسك من الوالى بمنزلة الثقة ، فاعزل عنه كلام الملق ، ولا تكثرن من الدعاء له فى كل كلمة ، فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة"(١) .

وأخيرًا ، يمكن أن نشير إلى أصل جامع للحديث ، ذكره ابن المقفع فى مطلع كتابة قائلاً : "وأصل الأمر فى الكلام : أن تسلم من السقط بالتحفظ ، ثم إن قدرت على بارع الكلام فهو أفضل"(٢) .

ومعنى ذلك : إن الثرثرة لابد أن تعود على صاحبها بما يهز مركزه الاجتماعى ، كما أن على الإنسان أن يكون لديه ما يقوله للآخرين ؛ حتى يفرض عليهم احترامه ، ويضمن تقديرهم لما يأتى به دائمًا .

ثالثًا : آداب مجالسة الجماعة :

هناك مبدأ عام يضعه ابن المقفع لمن يريد أن يتعامل مع المجتمع بطريقة مثلى ، تجمع بين الاحترام والمودة ، ويتمثل هذا المبدأ فى قوله "كن عالمًا كجاهل ، وناطقًا كعيى" ومعنى ذلك : أن على الإنسان تحصيل أكبر قدر من المعرفة ؛ ليحصن بها نفسه من

(١) نفس المصدر ، ص٣٠ .

(٢) الأدب الكبير ، ص٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

الضلال والوهم ، وفى الوقت نفسه ، يكون مقتصدًا فى حديثه عما يعرف . وقد سبق أن للحديث مواقف ينبغى مراعاتها ؛ حتى تثمر نتيجته ، غير أن للصمت كذلك محاسن تخلع على الإنسان كثيرًا من الصفات الطيبة . يقول ابن المقفع : "فأما العلم فيزينك إليه – فيبلغك حاجتك ، وأما الصمت فيكسبك المحبة والوقار"(١) .

ويفسر ذلك فى موضع آخر(٢) فيقول : "اعلم أن البغضة خوف، وأن المودة أمن . فاستكثر من المودة صامتًا ، فإن الصمت الحسن يزيد فى ود الصديق ، ويستل سخيمة الوغر (الحقد والضغن) " .

ويوصى ابن المقفع بأن يلاقى الآخرين بما يودون أن يقابلوا به "لا تجالسن امرأ بغير طريقته ، فإنك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم ، والجافى بالفقه، والعربى بالبيان – لم تزد على أن تضيع علمك ، وتوذى جليسك ، بحملك عليه ثقل ما لا يعرف ، وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعجمى الذى لا يفقه"(٣) .

وهو يؤكد أن مقابلة الآخرين لما لم يعرفوه أو يألفوه تحدث دائمًا رد فعل مضادًا ، وتحرك فيهم طبيعة عدوانية تحاول أن تقلب العلم جهلاً ، بالإضافة إلى أنها قد تجعلهم يستشعرون الحزن فى

(١) نفس المصدر ، ص٥٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص٩٤ ، ٩٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص٩٢ .

مواقف الفرح . يقول ابن المقفع : "واعلم أنه ليس من علم تذكره ، عند غير أهله ، إلا عابوه ، ونصبوا له ، ونقضوه عليك ، وحرصوا على أن يجعلوه جهلاً ، حتى أن كثيرًا من اللهو واللعب الذى هو أخف الأشياء على الناس ، ليحضره من لا يعرفه ، فيثقل عليه، ويغتم به"(١) .

وكثيرًا ما يجلس الإنسان إلى جماعة ، لا يعرف أحدهم أو بعضهم ، وعندئذ ينبغى له أن يراعى ، بدقة بالغة ، مسيرة حديثه ، متجنبًا التصريح برأى شخصى فى موضع عام ، أو الكشف عن شعور داخلى إزاء أمر ما . يقول ابن المقفع : "إذا كنت فى جماعة ، فلا تعمن جيلاً من الناس ، أو أمة من الأمم بشتم ولا ذم ، فإنك لا تدرى : لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك مخطئًا ، فلا تأمن من مكافأتهم ، أو معتمدًا فتنسب إلى السفه !

ولا تذمنَّ ، مع ذلك ، أسمًا من أسماء الرجال أو النساء ، بأن تقول : إن هذا لقبيح من الأسماء ! فإنك لا تدرى : لعل ذلك غير موافق لبعض جلسائك ، ولعله يكون بعض أسماء الحرم والأهلين"(٢).

ثم يكشف ابن المقفع عن الأثر النفسى ، العميق والضار ، الذى ينشأ عن هذا الأمور الصغيرة ، فيقول : "ولا تستصغرن من هذا

(١) نفس المصدر ، ص٩٣ .
(٢) الأدب الكبير ، ص٩٨ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

شيئًا ، فكل ذلك يجرح فى القلب ، وجرح اللسان أشد من جرح اليد"[1].

كذلك من مراعاة شعور الجماعة : عدم تكذيب ما يأتى به متحدث منها، أو تسخيفه ، حتى ولو كانت مادة الحديث كاذبة أو سخيفة ، تجنبًا لإثارة شعور سيئ فى نفس المتحدث . يقول ابن المقفع: "اعلم أنك ستسمع من جلسائك الرأى والحديث تنكره وتستجفيه وتستشنعه من المتحدث به ، عن نفسه أو غيره، فلا يكونن منك التكذيب ولا التسخيف لشيء مما يأتى به جليسك ، ولا يجرئنك على ذلك أن تقول : إنما حدث عن غيره ! فإن كل مردود سيمتعض من الرد"[2] .

أما إذا خشى الإنسان من أن يرسخ هذا القول الكاذب فى أذهان بعض الحاضرين ، أو ينتشر من الناس عن طريقهم ، فما عليه إلا أن يبين له ذلك ، بعيدًا عن قائله ، وبهذا يحقق هدفين : تصحيح خطأ ربما يشيع ، واجتناب بغض قد يؤذى . يقول ابن المقفع : "وإن كان فى القوم من تكره أن يستقر فى قلبه ذلك القول لخطأ تخاف أن يعقد عليه ، أو مضرة تخشاها على أحد ، فإنك قادر على أن تنقض ذلك فى ستر ، فيكون ذلك أيسر للنقض ، وأبعد للبغضة"[3] .

(١) نفس المصدر ، ص٩٨ .
(٢) الأدب الكبير ، ص٩٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٩٤ .

ومن المواقف التى ينبغى على الإنسان أن يسلك فيها سلوكًا اجتماعيًا مهذبًا ؛ ذلك الموقف الذى يضم جماعة من الناس ، يطرح فيهم سؤال . فإن اختص السائل بسؤاله واحدًا معينًا من الجماعة ، لم يكن لآخر أن يجيب بدلاً عنه "فإن استلابك الكلام خفة بك ، واستخفاف منك بالمسئول وبالسائل . وما أنت قائل إذا قال لك السائل : ما إياك سألت ؟! أو قال لك المسئول – عند المسألة يعاد له بها : دونك فأجب؟![1] .

أما إذا لم يقصد السائل واحدًا بعينه ، وعم بسؤاله الجماعة ، فمن الأفضل ألاّ تبادر بالجواب ، ولا تسابق الجلساء ، ولا توائب بالكلام مواثبة ، فإن ذلك يجمع مع الشين التكلف والخفة !

فإنك إذا سبقت القوم إلى الكلام صاروا لكلامك خصما ، فتعقبوه بالعيب والطعن ، وإذا أنت لم تعجل بالجواب ، وخليته للقوم ، اعترضت أقاويلهم على عينك ، ثم تدبرتها وفكرت فيما عندك ، ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جوابًا رضيًا ، ثم استدبرت به أقاويلهم حين تصيخ إليك الأسماع ، ويهدأ عنك الخصوم"[2] .

ويطمئن ابن المقفع من فاتته المشاركة فى الإجابة ، اكتفاء بمن تحدث قبله قائلاً : "وإن لم يبلغك الكلام حتى يكتفى بغيرك ، أو ينقطع الحديث قبل ذلك، فلا يكون من العيب عندك ولا من الغبن فى نفسك

(١) نفس المصدر ، ص٤٠ .
(٢) الأدب الكبير ، ص٤٠ ، ٤١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فوت ما فاتك من الجواب ، فإن صيانة القول خير من سوء وضعه .. مع أن كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير ، وإن ظن صاحبه أنه أتقن وأحكم"[1] .

وبالإضافة إلى ذلك ، يقرر ابن المقفع ، مرة أخرى ، أن حرص الرجل على إظهار ما عنده ، وقلة وقاره فى ذلك – باب من أبواب البخل واللؤم ، وأن من خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرم[2] .

ثم يعلق ابن المقفع على هذا السلوك ونحوه بأنه من الأمور التى "لا تدرك ولا تملك إلا برحب الذرع عندما قيل وما لم يقل ، وقلة الإعظام لما ظهر من المروءة وما لم يظهر ، وسخاوة النفس عن كثير من الصواب ؛ مخافة الخلاف ؛ ومخافة العجلة ، ومخافة الحسد ؛ ومخافة المراء"[3] .

وأخيرًا ، يحذر ابن المقفع أولئك الذين يشغفون فى مجالسهم ، بالتعريض بأخطاء الآخرين وعيوبهم ، معتقدين أن ذلك يخفى على أحد ، فيقول: "واعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال ، فى الناس ، مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم . وكل ذلك أبين

(١) نفس المصدر ، ص٤١ .
(٢) نفس المصدر ، ص٥٨ .
(٣) نفس المصدر ، ص٤٢ .

عند سامعيه من وضح الصبح ، فلا تكونن من ذلك فى غرور ، ولا تجعلن نفسك من أهله"[1] .

رابعًا : آداب مجالسة الأصحاب :

يعد ابن المقفع الصداقة الحقيقية أفضل ما يمكن للإنسان أن يربحه من الحياة ، فإخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا : هم زينة فى الرخاء ؛ وعدة فى الشدة ؛ ومعونة على خير المعاش والمعاد . فلا تفرطن فى اكتسابهم ، وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم .

ومن هنا كان اهتمامه البالغ بمعاملة الأصدقاء ، والتنبيه إلى السلوك الذى يستبقى ودهم ، ويستزيد منه ، والتحذير من أدق التصرفات التى قد تسىء إلى شعورهم ، أو حتى تمسه !

فيحرص ابن المقفع على أن يترجم الإنسان مشاعره الطيبة ، تجاه صديقه ، إلى واقع عملى . ومن ذلك أن يعلم الصديق شفقتك عليه ، وعلى أصحابه "وإياك – إن عاشرك امرؤ أو رافقك – أن يرى منك الولوع (أى الاستخفاف) بأحد من أصحابه وإخوانه ، فإن ذلك يأخذ من أعنة القلوب مأخذا".

ويكشف ابن المقفع عن حقيقة نفسية هامة ، عندما يقول : "إن لطفك بصاحب صاحبك أحسن عنده موقعًا من لطفك به فى نفسه!" .

(١) نفس المصدر ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن حق الصديق مراعاة ظروفه الاجتماعية ، وحالاته النفسية ، واعتبار ذلك عند مجالسته ، فليس من اللياقة أن يظهر الإنسان سروره لدى صديق مكتئب . يقول ابن المقفع : "واتق الفرح عند المحزون . واعلم أنه يحقد على المنطلق ، ويشكر للمكتئب" .

وقى مقابل ذلك ، ينبغى مشاركة الصديق السعيد فى سعادته ، وتجنب الأقوال أو الأفعال التى قد تكدر صفاء تلك السعادة وبهجتها . وهنا يتحدث ابن المقفع عن مشاهداته قائلا : "قد رأينا من سوء المجالسة أن الرجل : تثقل عليه النعمة يراها بصاحبة ، فيكون ما يشفى بصاحبه – فى تصغير أمره ، وتكدير النعمة عليه – أن يذكر الزوال ، والفناء ، والدول ، كأنه واعظ وقاص ! فلا يخفى ذلك على من يعنى به ولا غيره" .

ويشير ابن المقفع إلى أن مثل هذا القول – حتى لو أراد صاحبه له أن يكون موعظة ، فإنه لن ينزل منزلة الوعظ ، وإنما سيؤخذ على أنه ضجر من النعمة التى نزلت بصاحبه ، واغتمام بها. ومن الطبيعى أن يولد هذا فى القلوب الفرقة ، ويؤكد بينها التنافر .

وعلى الإنسان أن يكون سمحًا فى تعامله مع الأصدقاء ، غير متشدد فى قبول أعذارهم . ولقبول الاعتذار سلوك طيب يرشد إليه ابن المقفع فى قوله : "إذا اعتذر لك معتذر ، فتلقه بوجه مشرق ، وبشر ، ولسان طلق – إلا أن يكون ممن قطيعته غنيمة"[1] .

(١) الأدب الكبير ، ص ٦٤ .

ومن التسامح فى الصداقة : أن يمسك الإنسان نفسه عن كثير من الآراء التى يراها أصوب من آراء أصدقائه ، وأن يتحفظ ، قدر الإمكان ، من التطاول عليهم بالقول أو بالفعل ، خشية أن يحسوا فى تصرفاته شيئًا من الاستعلاء ، فينقبضوا عنه ، أو ينصرفوا .. يقول ابن المقفع : "تحفظ فى مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطب نفسًا عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأى ؛ مداراة لأن يظن أصحابك أنك إنما تريد التطاول عليهم"[1] .

وإذا كان من الطبيعى أن يختلف الصديق مع صديقه فى الرأى، فلا ينبغى أن يكون ظهور الصواب فى جانب أحدهما دافعًا إلى أن يتخذ ذلك مدعاة لتقريع الآخر ، والتهوين من قدراته ، فإن مثل هذا السلوك يجمع إلى فساد التفكير سوء الخلق . يقول ابن المقفع: "ولا تلتمس غلبة صاحبك ، والظفر عليه ، عند كل كلمة ورأى ، ولا تجترئن على تقريعه بظفرك إذا استبان ، وحجتك عليه إذا وضحت .

فإن أقوامًا قد يحملهم حب الغلبة وسفه الرأى فى ذلك ، على أن يتعقبوا الكلمة بعدما تنسى ، فيلتمسوا فيها الحجة ، ثم يستطيلوا بها على الأصحاب ، وذلك ضعف فى العقل ، ولؤم فى الأخلاق"[2] .

(١) نفس المصدر ، ص٥٥ ، ٥٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وفى هذا الإطار أيضًا : ما يكون عن نتائج المشورة بين الأصدقاء . وهنا يقرر ابن المقفع أن أمور الدنيا لا تسير وفق خطة ميكانيكية ، يمكن التنبؤ بنتائجها إذا ما عرفت مقدماتها ؛ لذلك فإن المستشار فى أحد أمورها ليس بضامن صواب ما يدلى به . وإذن لا ينبغى على المستشير أن يعود عليه باللوم والتقريع . وفى مقابل ذلك، لا يصح للمستشار – إذا ظهر الصواب فى جانبه – أن يكثر من المن على صاحبه ، لقاء ما قدم له من مشورة . يقول ابن المقفع: "إذا أشار عليك صاحبك برأى ، ثم لم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعل ذلك عليه دينًا ، ولا تلزمه لومًا وعذلاً ، بأن تقول له : "أنت فعلت هذا بى" .. و"أنت أمرتنى" .. و "لولا أنت لم أفعل" .. و "لا جرم لا أطيعك بعدها" .. فإن هذا ضجر ، ولؤم ، وخفة !

فإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك ، أو تركه ، فبدا صوابك، فلا تمن به ، ولا تكثر من ذكره ، إن كان فيه نجاح ، ولا تلمه عليه، إن كان قد استبان فى تركه ضرر ، بأن تقول : "ألم أقل لك : افعل هذا" .. فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .

والواقع أن فضائل الإنسان لا تظهر بحديثه عنها ، بل على العكس قد تنقلب إلى رذائل لمجرد أنها تذاع على لسانك ، فضلاً عما هو معروف دائمًا من اتهام كل من يتحدث عن نفسه ، والنفور منه ، يقول ابن المقفع : "وإن آنست من نفسك فضلاً فتحرج أن تذكره أو تبديه ، واعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك فى قلوب الناس

من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل ، واعلم أنك إن صبرت ، ولم تعجل ، ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف عند الناس" .

ويحذر ابن المقفع الصديق الذى يتفضل على صديقه بمعروف أن يتفوه بكلمة ، أو يأتى بإشارة عما قدمه إليه . بل عليه أن يحاول نسيانه ، والتهوين من شأنه ما أمكن ، فإنه بذلك يعظم فى عين الصديق ، ويتمكن من قلبه . يقول : "إذا كانت لك عند أحد صنيعة ، أو كان لك عليه طول ، فالتمس إحياء ذلك بإماتته ، وتعظيمه بالتصغير له .. واحذر أن يكون فى مجالستك إياه ، وما تكلمه به ، أو تستعينه عليه ، أو تجاريه فيه : شىء من الاستطالة ، فإن الاستطالة تهدم الصنيعة وتكدر المعروف" .

بل إنه ينصح بتجنب ادعاء العلم ، وخاصة بين الأصدقاء ، مبينًا ما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج ضارة بموقف صاحبها الاجتماعى ، فيقول : "لا تكثرن من ادعاء العلم فى كل ما يعرض بينك وبين أصحابك ، فإنك من ذلك بين فضيحتين : إما أن ينازعوك فيما ادعيت ، فيهجم منك على الجهالة والصلف ، وإما ألا ينازعوك ويخلوا فى يديك ما ادعيت من الأمور ، فينكشف منك التصنع والمعجزة"[1] .

وهنا خلق سيئ يبدو فى سلوك كثير من الناس ، إذا سمع أحدهم من صاحبه حديثًا معجبًا ، أو رأيًا صائبًا ، لم يجد حرجًا فى

(١) الأدب الكبير ، ص٥٢ ، والمعجزة بفتح الميم هى العجز .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سرقته ، ثم التحديث به ، كأن ذلك له ؛ رغبة فى الفوز برضا الآخرين . يقول ابن المقفع : "إن سمعت من صاحبك كلامًا ما أو رأيت منه رأيًا يعجبك ، فلا تنتحله تزينًا به عند الناس ، واكتف من التزين بأن تجتنى الصواب إذا سمعته ، وتنسبه إلى صاحبه، واعلم أن انتحالك ذلك مسخطة لصاحبك ، وأن فيه مع ذلك عارًا وسخفًا"(١).

والأدهى من ذلك أنه ربما طاب لأحد الأصدقاء أن يحدث بحديث صديقه ، وهو جالس ، دون أن يشير إلى نسبته إليه "فإن بلغ بك ذلك : أن تشير برأى الرجل ، وتتكلم بكلامه – وهو يسمع – جمعت مع الظلم قلة الحياء، وهذا من سوء الأدب الفاشى فى الناس "(٢) .

أما السلوك المهذب الذى يدعو إليه ابن المقفع ، فى مثل هذه لمواقف ، فيتمثل فهى أن ينسب الإنسان إلى صديقه رأيه ، بل يعمل على تزيينه ما أمكنه ذلك . ومن ناحية أخرى ، لا يتشدد مع صديق آخر ، قد يقوم بسرقة رأيه هو ، والتحدث به ، فيقول : "ومن تمام حسن الخلق والأدب ، فى هذا الباب ، أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك ، وتنسب إليه رأيه وكلامه ، وتزينه مع ذلك ما استطعت"(٣) .

(١) نفس المصدر ، ص٥٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص٥٣ .
(٣) نفس المصدر ، ص٥٣ .

بل إن ابن المقفع يذهب إلى أبعد من ذلك ، حين يدعو الإنسان أن ينسب أحيانًا رأيه الصائب إلى صديقه ، تفضلاً منه وكرمًا ، مشيرًا إلى أن لمثل هذا السلوك النبيل من الآثار والنتائج فى نفس الصديق ما يفوق كل تصور .. فيقول : "وإن استطعت أن تعرف صاحبك أنك تنحله (هنا بمعنى تمنحه) صواب رأيك .. فضلاً عن أن تدعى صوابه – وتسند ذلك إليه ، وتزينه به ، فافعل ، فإن الذى أنت آخذ بذلك أكثر مما أنت معط بأضعاف"(١) .

وعلى الرغم من التبسط الذى يوجد عادة بين الأصدقاء ، وتستدعيه المودة بينهم ، فإن ابن المقفع يحذر من عدم تقدير المواقف التى تتمشى مع هذا التبسط ومن ذلك خلط الجد بالهزل ، أو العكس – فهو يقول : "ولا تخلطن بالجد هزلاً ، ولا بالهزل جدًا ، فإنك إن خلطت بالجد هزلاً هجنته ، وإن خلطت بالهزل جدًا كدرته"(٢) .

موقف واحد فقط هو الذى يحسن بالإنسان أن يتصرف فيه هذا التصرف ، أى أن يقابل الجد بالهزل ؛ تجنبًا من وقوع مشاجرة ؛ وقصدًا إلى عدم التورط فى شجار مع إنسان أحمق ، أو متهور . يقول ابن المقفع : "غير أنى قد علمت موطنًا واحدًا – إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأى ، وظهرت على الأقران : وذلك أن يتوردك متورد بالسفه والغضب وسوء اللفظة ، فتجيبه إجابة

(١) الأدب الكبير ، ص٤٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص٥٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الهازل المداعب ، برحب من الذرع ، وطلاقة من الوجه ، وثبات من المنطق"[1] .

خامسًا : مقارنة بين القول والعمل :

يفضل ابن المقفع أن يكون الإنسان مقتصدًا فى حديثه ، ما أمكنه ذلك ، وقد سبق أنه دعا إلى السلامة من السقط بالتحفظ ؛ لذلك نجده هنا ، فى مجال الصداقة ، حريصًا على أن يطبق هذا المبدأ . فلا ينبغى على الإنسان أن يتكلم أكثر مما يفعل . ومن الأفضل أن يحتفظ الصديق لنفسه ببعض نواياه ، حتى تتحقق فى الواقع ؛ لأن خروجها إلى الواقع هو فى حد ذاته أبلغ تعبير عنها . يقول : "إن استطعت ألا تخبر أخاك عن ذات نفسك بشىء إلا وأنت محتجن (محتبس وكاتم) عنه بعض ذلك ؛ التماسًا لفضل الفعل على القول ، واستعدادًا لتقصير فعل – إن قصر – فافعل .. واعلم أن فضل الفعل على القول زينة ، وفضل القول على الفعل هجنة ، وأن إحكام هذه الخلة من غرائب الخلال"[2] .

ويؤكد ابن المقفع ى موضع آخر[3] ، أنه دائمًا ما يقصر الإنسان فى أفعاله عما حدث عنه فى أقواله . فما الذى يدفعه إذن إلى

(١) نفس المصدر ، ص٥٤ ، ٥٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص٨٢ ، ٨٣ .
(٣) الأدب الكبير ، ص٥٨ ، ٥٩ .

أن يكتسب عارًا هو فى غنى عنه ، أو يطلب على نفسه شماته ليس أهلاً لها ؟! .

سادسًا : علاج عيوب المجالسة :

يعترف ابن المقفع بأن الإنسان يحتوى على جميع الطبائع ، سواء كانت خيرة أم شريرة ، وإنما يأتى التفاضل بين الناس ، بالنسبة إلى المجال الأخلاقى، فى مغالبة طبائعهم السيئة ، ومحاولة التحكم فيها[1] . "أما أن يسلم أحد من أن تكون فيه تلك الغرائز ، فليس فى ذلك مطمع ، إلا أن الرجل القوى إذا كابرها بالقمع لها كلما تطلعت ، لم يلبث أن يميتها حتى كأنها ليست فيه ، وهى فى ذلك كامنة كمون النار فى العود ، فإذا وجدت قادحًا من علة أو غفلة استورت كما تستورى النار عند القدح ، ثم لا يبدأ ضرها إلا بصاحبها ، كما لا تبدأ النار إلا بعودها الذى كانت فيه"[2] .

ويلاحظ أن ابن المقفع يعطى للإرادة الإنسانية أهمية كبرى فى علاج الأدواء الأخلاقية . وهو معتدل فى نظرته إلى الطبيعة الإنسانية من حيث اشتمالها على عنصرى الخير والشر ، أو كونها مستعدة لهما .

غير أنه يركز دائمًا – كما رأينا – على مجاهدة دوافع الشر ، بنا على أن الناس يتفاضلون ، فيما بينهم ، فى قمعها . وقد يقال : إنه

(١) نفس المصدر ، ص٦٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص٦٧ ، ٦٨ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يعط نفس القدر للجانب الخير فى الإنسان ، والمتمثل فى طبائع معينة ، كان من الممكن أن يركز على تنميتها ، كما فعل بالنسبة لطبائع الشر .

ومهما يكن من شىء ، فإن ابن المقفع قد قدم – بهذه المحاولة فى مجال السلوك الاجتماعى – نموذجًا فريدًا – ويبقى أن كثيرًا مما حض عليه ، أو حذر منه ما زال ينظر إليه بنفس المقاييس فى عصرنا الحاضر ، ولدى أرقى المجتمعات تحضرًا .

* *

ظاهرة الحسد عند الحارث المحاسبى

الحارث المحاسبى (ت ٢٤٣هـ) [١] أحد أعلام التصوف السنى . نشأ بالبصرة ، ثم انتقل إلى بغداد ، وأصبح أستاذًا لمدرستها الصوفية ، إلا أن شخصيته قد تركت آثارها على التصوف الإسلامى كله .

عاش المحاسبى فى القرن الثالث الهجرى ؛ أى أنه عايش تلك الحركة الثقافية النشطة التى كانت نتيجة لتفاعل الحضارة الإسلامية مع حضارات العالم القديم ، وبخاصة فى مجال الفلسفة اليونانية ، والتراث الدينى للفرس والهنود .

وبينما كان المعتزلة ، الذين نجحوا فى ضم الخليفة العباسى المأمون إلى جانبهم ، منهمكين فى نشر آرائهم الخاصة بمسائل علم الكلام ، ومستعينين فى ذلك بمنهج اليونان الجدلى ، وبأدلة عقلية خالية من دفء العقيدة .. راح المحاسبى يلقى دروسًا من نوع مختلف تمامًا على تلاميذه فى بغداد .

---

(١) انظر ترجمة المحاسبى فى : طبقات الصوفية للسلمى ص٦ ، والرسالة القشيرية ص٥٢، الطبقات الكبرى للشعرانى ٧٥/١ ، وكتاب د٠ عبد الحليم محمود : الحارث المحاسبى ، الذى كتبه فى البداية بالفرنسية ، ثم ترجمه ، وزاد عليه كثيرًا ، إلى العربية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان يتحدث فى الإخلاص ، وفى الورع ، وفى الزهد ، وفى الخشوع الخالص لله . وكان يتحدث فى محبة الله ، والأنس به ، والقرب منه ، وكان يتحدث فى هيبته ، وجلاله ، وعظمته . وكان حديثة عذبًا ، طلقًا ، ساميًا ، فكانت تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله من فضل ، فترق قلوبهم ويتعاهدون على الاستقامة !

وملأت سمعة المحاسبى أرجاء بغداد ، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء العالم الإسلامى ، وكلما أخذت شهرته فى الازدياد كثر خصومه وأعداؤه ، ولكنه كان يسير فى طريقه ثابت الخطى ، لا يعنيه سوى أن يكون الله راضيًا عنه !

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير ، ووصل إلى المعرفة الحقة، فأعلن طريقها. وطريقها ليس حسًا يخطئ ، وليس عقلاً يضل ، وإنما هو : بصيرة وضاءة وروح صافية"[1] .

هذا ، وقد وصلنا من إنتاج المحاسبى ثلاثة كتب ، فضلاً عما يوجد متناثرًا فى كتب التصوف وطبقاته من أقوال منسوبة إليه[2] . والكتب الثلاثة هى :

---

(١) مقدمة كتاب الرعاية ، ص٧ ، للدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) انظر : حلية الأولياء ١٠/٧٨ وما بعدها . حيث يورد أبو نعيم للمحاسبى رسالة هامة فى "المحبة" .

- التوهم : وفيه يتناول شعورى الخوف والرجاء اللذين ينتابان الإنسان ، وهو فى مفترق طريقى الجنة والنار .
- الوصايا : وفيه يكشف عن تجربته الخاصة فى الوصول إلى الحقيقة ، بين التيارات الثقافية والدينية العديدة التى كانت موجودة فى عصره . ويمكن أن يعد هذا الكتاب بداية رائدة للغزالى عندما قام بمحاولته المماثلة والمكتملة فى كتاب "المنقذ من الضلال" .
- الرعاية لحقوق الله : وهو أكبر كتبه وأشهرها . تناول فيه مفهوم التقوى ، وكيف يحاسب الإنسان نفسه على أقواله وأفعاله ، وما يبعث الإنسان المذنب على التوبة ، وكيف يتوب ، كما حلل ظاهرة الرياء : دوافعه ، ومظاهره وطريقة التخلص منه . وتعرض لموضوع الصحبة ، مبينًا كيف ينجو الإنسان من أصدقاء السوء ، وخاصة إذا خاف معهم على دينه . وقدم محاولة طيبة فى استبطان النفس ، ونبه على مواطن الشر فيها ، وحذر من الاقتداء بأهوائها . ودرس بالتفصيل شعور العجب البغيض ، وعدد مظاهره فى مجالات كثيرة مثل الدين ، والعمل ، والرأى ، والحب ، والمال . وبنفس الأسلوب درس ظاهرة الكبر ، وشرح وجوهه ، وحض على ضرورة النجاة منه . ثم عرض لاغترار كل إنسان بعمله ، سواء كان هذا العمل عبادة ، أو عملاً دنيويًا ، أو رأيًا عقليًا .. ونبه إلى اطمئنان الناس جميعًا بفسحة الأجل، وزيف هذا الإحساس . ثم عرض لموضوع الحسد ، الذى سنتناوله بالدراسة، ثم ختم الكتاب

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

بنبذة يسيرة عن أسلوب تربية المريد ، ورعايته من حيث الظاهر والباطن ، حتى لا ينحرف عن طريق الحق .

هذا عرض مركز لكتاب الرعاية الذى يعتبر أهم ما كتب فى الإخلاص، وتطهير النفس ، والحياة الأخلاقية الكاملة . وقد بلغ فى تحليل نزعات النفس ، ونزعات الهوى حدًا لا يجارى ، وعنه يقول المستشرق الفرنسى ماسنيون :

"إن المحاسبى سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً فى الآداب العالمية إلا نادرًا" .

والواقع أن الدراسة التى قدمها المحاسبى لظاهرة الحسد على المستويين النفسى والاجتماعى – تعد من أمتع فصول الكتاب[1] . وقد تمكن من الكشف عن أدق تفاصيل هذه الظاهرة ، ذات الجذور البعيدة فى أعماق الإنسان ، كما استطاع بثقافته الدينية المستوعبة من تحليلها تحليلاً بارعًا ، مع دعمها بالنماذج الاجتماعية والشواهد التاريخية . وأخيرًا فإن الجو الروحى الشفاف الذى أحاطه بها دليل آخر على إعطاء ظاهرة الحسد – كما درسها المحاسبى – أهمية كبرى فى مجال الأخلاق الإسلامية بوجه خاص ، وفى مجال الدراسات النفسية والأخلاقية بوجه عام .

---

(١) يستغرق فى كتاب الرعاية من ص٤١٨-٤٤٤ .

وقد أطلق المحاسبى على بحثه عنوان "كتاب الحسد" ثم قسمه إلى تسعة أبواب ، تتوالى على النحو التالى :

١- باب فى ذكر الحسد ، ووصفه ، وتفسير محرمه من مباحه .

٢- باب من الحسد ، وليس بالحسد بعينه .

٣- باب ما يكون من الحسد على الرياسة وحب المنزلة .

٤- باب ما يكون من الحسد عن الحقد والعداوة والبغضاء .

٥- باب ما يكون من الحسد عن حب ظاهر الدنيا .

٦- باب ما يكون من الحسد عن العجب .

٧- باب متى يعلم العبد أنه قد نفى الحسد .

٨- باب الرد على من قال : إن الحسد بالجوارح .

٩- باب هل على الحسد مظلمة للمحسود عند الحاسد ، إذا أصابه ما تمناه له ، أو هو ذنب بينه وبين الله عز وجل .

وبقدر يسير من التصنيف يمكن أن نكشف عن خطوات المنهج الذى اتبعه المحاسبى فى دراسة ظاهرة الحسد ، وسنجدها على الوجه التالى :

١- تحديد مفهوم الحسد ، والتفريق بينه وبين المنافسة .

٢- موضوع الحسد : النفس أم الجوارح .

٣- علاج داء الحسد .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٤- دوافع الحسد .

٥- الجزاء الأخلاقى للحسد .

ونلاحظ أنه مع نقل الخطوة الرابعة إلى مكانها الطبيعى بعد الخطوة الأولى ، ثم وضع الخطوة الثانية فى مكان الرابعة ، يصبح المنهج متسقًا من الناحية الموضوعية إلى حد كبير .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى طريقة المحاسبى فى معالجة الموضوع وجدناه :

أولاً : يستخدم طريقة الحوار . ومما يلفت النظر هنا أنه يقوم بدور السائل دائمًا فيستعمل كلمة : "قلت" فى حين يقدم الأجوبة على لسان مسئول مجهول مفتتحة بكلمة "قال .." .

وقد نجحت هذه الطريقة فى تحقيق النتائج التالية :

- تحليل الموضوع إلى أبسط عناصره .
- الإحاطة بمعظم هذه العناصر ، قدر الإمكان .
- تحقيق المشاركة العقلية والنفسية لدى المتلقى الذى تتولد فى ذهنه الأسئلة وهو يقرأ ، كما ينمو لديه الفضول العلمى إلى معرفة الإجابات ، وهو يتابع.

ثانيًا : يعتمد المحاسبى فى الاقتباسات التى يوردها شرحًا لنقطة غامضة ، أو تأكيدًا لمسألة مختلف فيها – على كل من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وأخبار السلف وأقوالهم من الصحابة

والتابعين ، ثم على بعض المفاهيم المصطلح عليها لمفردات اللغة العربية .

وحقيقة ، لا نكاد نعثر على أثر أجنبى واضح ، لدى المحاسبى، فى دراسة ظاهرة الحسد . اللهم إلا فى فكرة واحدة سنشير إليها فى موضعها . ومع ذلك ، لا يمكن إغفال الإشارة إلى أن المنهج ذا الخطوات المتسقة والأفكار الجزئية المرتبة الذى سار عليه المحاسبى – ليس يبعد كثيرًا عن "روح التأليف" التى بدأت تسود العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، والتى أسهم المعتزلة – خصوم أهل السنة والصوفية معًا – بنصيب كبير فى إشاعتها[1].

ثالثًا : اللغة التى استخدمها المحاسبى لغة واضحة ، بعيدة عن الغموض ، خالية من التعقيد . وعلى الرغم من أنه يميل إلى الشرح والتطويل ، فإن عباراته دقيقة ، وكلماته مختارة بعناية لتحديد المعنى المطلوب .

الحسد والمنافسة :

اعتمد المحاسبى فى بيان مفهوم الحسد على كل من القرآن الكريم والسنة النبوية ، والمصطلح اللغوى . وعن طريق استقراء هذه المصادر الثلاثة. استطاع أن يكشف عن نوعين من الحسد ، وصفهما

(١) انظر : "التصوف : الثورة الروحية فى الإسلام" للدكتور أبو العلا عفيفى ، ص٩٥ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وصفًا شرعيًا ، فسمى الأول : الحسد المحرم ، والثانى : الحسد غير المحرم .

أما الحسد غير المحرم فهو ما يعرف بالمنافسة . قال الله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (١) وقال : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٢) ولا تكون المسابقة من العبد إلا أن يسابق غيره .

وقال النبى ﷺ : "لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله ، عز وجل ، مالاً ، فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله ، عز وجل ، علمًا ، فهو يعمل به ، ويعلمه الناس" فقوله : "إلا فى اثنتين" أن الحسد فيهما جائز .

ويوضح المحاسبى المنافسة بأن يرى الإنسان بغيره نعمة ، فى دين أو دنيا ، فيغتم ألا يكون أنعم الله عليه بمثل تلك النعمة . فيجب أن يلحق به ، ويكون مثله ، لا يغتم من أجل المنعم عليه نفاسة منه عليه ، ولكن غمًا ألا يكون مثله .

ثم يصنف هذه المنافسة إلى أربعة أصناف : أولها فرض واجب ، والثانى فضل أو تطوع ، والثالث مباح ، والرابع غير جائز .

(١) سورة المطففين ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ٢١ .

وتتمثل المنافسة الواجبة فى أن يرى الإنسان أحدًا يؤدى ما فرضه الله عليه ، وينتهى عما نهاه عنه ، فيحب أن يكون مثله ، ويتمنى ذلك . فهذا هو الغرض الذى ينبغى أن يحاسد الإنسان فيه غيره ، بل إن عدم الشعور بذلك يعد من المعصية .

أما منافسة التطوع ، فتبدو من رؤية الإنسان أحدًا يزيد عما كتب عليه من الفرائض ، ويلزم نفسه بأكثر مما نهى عنه من المحرمات ، فيتمنى أن يكون مثله ، ويحب أن يلحق به ، فذلك فضل منه وتطوع .

ويلاحظ المحاسبى أن هذين الصنفين يتعلقان بالأمور الدينية . وعليهما يحض المحاسبى ، أما النوعان الآخران فيختصان بأمور الدنيا ، وعنهما ينهى المحاسبى .

فأولهما : المنافسة المباحة ، ، وهو أن يرى الإنسان شخصًا يتنعم فى حياته بما أسبغ الله عليه من الحلال ، فيغتم ألا يكون مثله ، ويحب أن يوسع عليه كما وسع على من نافسه ، وأن يلحق به فيكون متنعمًا مثله ؛ فذلك مباح له ، وليس بمحرم عليه ، وإنما هو نقص فى الفضل وانحراف عن الزهد المطلوب .

وثانيهما : المنافسة غير الجائزة . وهى أن يرى الإنسان أحدًا يكتسب الحرام ، وينفق ماله فيما لا يحل له ، ويرتكب المعاصى ، ويتلذذ بها ، فيغتم ألا يكون مثله ، ويحب أن يصيب من المال واللذة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مثل ما أصاب ؛ فذلك منه لا يجوز ، وإنما كان كذلك ؛ لأنه تمنى الحرام ، وأحبه .

ويستشهد المحاسبى على هذا الصنف الأخير يقول رسول الله ﷺ : "ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه فى معاصى الله ، عز وجل ، ورجل لم يؤته الله، عز وجل ، مالاً ، فيقول : لو أن لى مثل مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله ، فهما فى الوزر سواء" .

وأخيرًا ، يحدد المحاسبة مفهوم المنافسة بأنها : كراهة التقصير عن منزلة الغير ، ومحبة المساواة واللحوق به ، مع ترك التمنى : أن يزول على من نافسه حاله التى هو عليها .

وهنا نصل إلى مفهوم الحسد المحرم الذى ذمه الله تعالى ، فى كتابه ، والرسول ، ﷺ ، فى سنته ، واجتمع على التنفير منه علماء الإسلام ، وهو : كراهة النعم أن تكون بالناس ، ومحبة زوالها عنهم.

قال الله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ (١) وقال : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٢٠ .

وقالت صفية بنت حيى للنبى ﷺ : جاء أبى وعمى من عندك، فقال أبى لعمى : ما تقول فيه ؟ قال : أقول إنه النبى الذى بشر به موسى ، قال : فما ترى ؟ قال : أرى معاداته أيام الحياة ! (١) .

ثم ينتقل المحاسبى إلى الاستشهاد بالسنة ، فيروى عن الرسول ، ﷺ ، قوله : "لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا" كما أخبر ، ﷺ ، أن الحسد سيصيب المسلمين كما أصاب الأمم السابقة ، فقال : "دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء".

وأخيرًا يستشهد المحاسبى بأقوال الصحابة ، فيروى عن أبى قلابة قوله : "ما قتلوا عثمان ، ﷺ ، إلا حسدًا" أى حسدوه على الخلافة فأحبوا أن يزيلوها عنه .

كما يروى عن الحسن أنه عندما سئل : أيكون المؤمن حسودًا ؟ قال : لا أبا لك ، ما أنساك بنى يعقوب .. فعلوا بأخيهم ما فعلوا !

ويمسك المحاسبى بهذه الإجابة ؛ ليقدم لنا صورة حية من الحسد ، كما رواها القرآن الكريم ، فيقول : "ثم أخبرك عن إخوة يوسف ، حين حسدوا ، فعبروا بألسنتهم عما فى قلوبهم من حسده ،

(١) وبذلك وصف الله أهل الكتاب والمشركين أنهم كفروا بمحمد على علم ، فقال ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ ﴾ وقال : ﴿ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وانظر "تلبيس إبليس" لابن الجوزى ، ص٧٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فقالوا : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ (١) فكرهوا خصوصية أبيه له بالحب من بينهم ، وأرادوا أن يزيلوا حب أبيه له ، وبره به ، وتفضيله إياه عليهم ؛ بأن يغيبوه عنه، فيقبل بالحب عليهم والبر ، ويزول ذلك عن يوسف ، فقالوا : "يخل لكم وجه أبيكم" ليكون لهم إذا غاب ، حسدًا له على حب أبيه ، وبره ، وتفضيله إياه" .

موضع الحسد :

لا يوافق المحاسبى على وجهة النظر الشائعة التى ترى أن الحسد يكون بالجوارح أى بالعين ، ويعتمد فى نقدها على حجتين :

الحجة الأولى :

لغوية ، وتقوم على استقراء النصوص القرآنية التى وردت بشأن الحسد، ومنها يلاحظ أن القرآن استعمل دائمًا ، فى وصف شعور الحسد الذى يتملك الكفار وأهل الكتاب ، لفظة "ود" وهو فعل قلبى ، يختص بالأحاسيس والمشاعر حسب مدلول اللغة العربية .

الحجة الثانية :

عقلية ، وتقوم على التفرقة بين الحسد والآثار المترتبة عليه . الحسد شعور قلبى ، أما آثاره فقد تستخدم الجوارح فى التعبير عن

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٨ ، ٩ .

هذا الشعور . وذلك كأن يؤذى الحاسد المحسود أذى ماديًا ، أو يكذب عليه ، أو يغتابه ، أو يمنع عنه خيرًا . ولم يقل أحد أن أيًا من الأذى، أو الكذب ، أو الاغتياب ، أو منع الخير هو الحسد .

وأخيرًا ينبه المحاسبى إلى وصف القرآن لشعور الأنصار تجاه إخوانهم المهاجرين الذين ظهرت عليهم آثار النعمة بعد الحرمان ، وهو شعور سام يقف على النقيض تمامًا من شعور الحسد ؛ إذ يقول : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾(١) فدلك بذلك أن الحسد فى النفس ، دون الجوارح ، واستعماله بالجوارح عمل مترتب على الحسد ، لا الحسد بنفسه .

دوافع المنافسة :

سبق أن المحاسبي قد فرق بين نوعين من المنافسة : أحدهما ينصب على الجانب الدينى ، والآخر على الحياة الدنيوية .

وهو يرى أن دوافع المنافسة الدينية يأتى من "حب طاعة الله ، عز وجل ، والعزم على القيام بها ، لو أعطى أسبابها التى بها ينالها".

أما دافع المنافسة الدنيوية فيتمثل فى : حب الدنيا ، وحب سعة العيش فيها ، والتنعم بخيراتها .

ويلاحظ أن المحاسبى يمر سريعًا على هذه الدوافع ، دون أن يقدم مزيدًا من التفصيل أو الشرح . وقد يرجع ذلك إلى أنه كان يركز على الحسد المحرم ؛ نظرًا لخطورته على الفرد والمجتمع . أما

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المنافسة ، فقد دعا إليها فى مجال الدين ، ولم يتشدد على أصحابها فى مجال الدنيا ، بل كان معهم رحيمًا ، أدرك أن حرص الإنسان على الاستئثار بالخير لنفسه غريزة ، وأن التطلع لما فى أيدى الناس طبيعة ، فلم يحاول انتزاع هذه الطبيعة ، أو الوقوف فى طريقها، وإنما ركز اهتمامه على نقطة واحدة ، وهى ألا تنمو بذور الشر فى هذه الطبيعة ، فتثمر الحسد ، حيث تتغذى معظم الرذائل الأخرى .

دوافع الحسد :

ذكر المحاسبى من دوافع الحسد حوالى سبعة أنواع ، اختص بعضها بأبواب مستقلة ، ذات عناوين رئيسية ، وتعرض لبعضها الآخر فى ثنايا بحثه . ويمكن تصنيفها جميعًا على الوجه التالى :

١-الكبر والعجب :

قد يأنف الإنسان أن يرتفع عنه من هو أدنى منه فى مجال دينى ، أو منصب دنيوى ، كذلك قد يأنف أن يساويه ، أو يرتفع عنه من يماثله فى هذه الأمور "فإذا أنف منه ، وازدراه : ورثهُ ذلك الحسد له ، فأحب أن تزول عنه نعمة الله ، عز وجل ، غما أن يراها بمن لا يستأهلها عنده ، وأنفًا أن يكون من دونه – مثله ، أو فوقه" !

ويمثل المحاسبى لذلك بقول قريش ، عندما بعث فيهم محمد ﷺ إنه غلام يتيم ! وفى القرآن ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

ومن ذلك أيضًا ما ورد عن الأمم الماضية حين قالوا لرسلهم الذين بعثوا إليهم ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ (٢)و ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ (٣) فجزعوا أن يفضل عليهم بشر مثلهم ، فحسدوه ، وردوا الحق ، وقالوا : ﴿ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ (٤)وقالوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ (٥)تعجبًا وإنكارًا أن يفضلهم من هو مثلهم .

٢-حب الرئاسة :

وهو الداء الذى فرق أهل الكتاب ، حسدًا بينهم أن يعلو بعضهم بعضًا فى العلم : كل واحد منهم يحسد صاحبه أن تكون له الرئاسة دونه على الناس ، فيرد كل واحد ما عند صاحبه من الحق ، ويخطئه فيما يقول وإن كان حقًا ، ويظهر أن الحق فى غيره ؛ ليصد الناس عنه ؛ ويطفئ نوره حسدًا أن ترتفع منزلته ، أو يخضع له فيكون عليه رئيسًا .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣١ .
(٢) سورة يس ، الآية ١٥ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٤٧ .
(٤) سورة الإسراء ، الآية ٩٤ .
(٥) سورة الفرقان ، الآية ٢١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبهذا الدافع كفر علماء اليهود بالنبى ﷺ وهم يعرفون أنه قد جاء بالحق من عند الله ، حسدًا أن يرئسوه عليهم ، وتذهب رئاستهم فى اليهود ، فيكونوا أتباعًا بعد أن كانوا متبوعين !

٣-حب المنزلة :

إذا كان التغلب على الجمهور بعامة هو الهدف من حب الرئاسة ، فإن التغلب على شخص بعينه هو الهدف من حب المنزلة ، وهنا يقدم المحاسبى مثالاً ، كثيرًا ما نراه فى حياتنا ، حين يقول :

"يتحاسد الصاحبان فى الحب والمنزلة عند من يصاحبانه ، فيحب أحدهما ألا يفضله عليه فى عمل ولا علم ، ولا يرفعه عليه ، فيخطئه فيما يقول، ويحب أن يهتك ستره عند صاحبه ، ويقع فيه ، ويفطنه إلى سوء الظنون فيه ، ويضع أمره لئلا يكون أحب منه ، وأن يكون الحب والمنزلة له عنده دون صاحبه" !

٤-حب ظاهر الدنيا :

وبهذا الدافع يود الإنسان أن ينال مثل ما يراه على غيره من نعم الدنيا المادية والروحية .

أما النعم الروحية فتتمثل فى تطلع الآخ إلى حب والديه الذى يسبغانه على أخ آخر له ، أو تطلع الإنسان إلى ود الأقارب الذى يمنحونه أحد الأفراد العائلة .

وأما النعم المادية ، فتظهر بوضوح فى كل من التاجر والصانع ، يحسد أحدهما الآخر ، ويحب أن يزول عنه المشترى والمستأجر ، فيبايعه (دون صاحبه) ويستأجره . فيحب أن زبائنه صاروا إليه ، وتركوه !

ثم يقول المحاسبى : "وكذلك الضرتان ، والمرأتان" هكذا دون تعليق ! أما الضرتان فمن الواضح أن كلاً منهما تنفس على الأخرى استئثار الزوج بها، وتقربه منها ، وأما المرأتان ، فيمكن أن يتمثل الحسد بينهما فى كراهية إحداهما ما أسبغ على الأخرى من نعمة الجمال أو الثروة ، أو ما يخصها به الناس من الإعجاب .

ومع ذلك فهو يقول : "وقد يخرج الحسد الذى يكون من حب الدنيا كالملك والشرف حتى يقتتلوا ، فيقتل بعضهم بعضًا ؛ حسدًا أن ينال من ملك الدنيا أو شرفها ، أو عزها ، أو إكرام أهلها ما لا ينال صاحبه"[1] .

٥-المشاكلة والمماثلة :

يرى المحاسبى أن المشاكلة فى النسب ، أو فى القدر ، أو فى الغنى ، أو التجارة ، أو فى الصناعة ، أو فى المناصب – من أشيع دوافع الحسد . فيقول : "يتحاسد بنو الأم ، وبنو الأعمام ، والإخوة

---

(١) الرعاية ، ص٤٣٠ .

أكثر ذلك دون سائر الناس ، فيحسد بعضهم بعضًا ، ولا يكادون يحسدون غيرهم من الغرباء"[1] .

"وكذلك العالم يحاسد العالم ، ولا يكاد يحاسد غيره . وكذلك أهل التجارات : يسرى الحسد من أهل كل تجارة إلى من شاركهم فيها دون سائرهم من التجار ، كالبزازين (تجار الثياب) يحسد البزاز البزاز مثله ، يسوءه ويغمه ما يرى من نفاق سوقه وأرباحه ، ولا يكاد يحسد الجزارين والصيارفة وسائر الباعة"[2] .

٦-القرب :

يقول المحاسبى : "وكذلك من دنا منه من القرابة أسرع إليه بالحسد ممن تباعد عنه . ومن ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى موسى الأشعرى : "إن الأقرباء يتزاورون ، ولا يتجاورون" ، فالقرب من المجاورة وغيره فى الحسد أسرع .. يحسد القوم عالمهم ، ويعظمون العالم الغريب ؛ لأنه ليس مثلهم ، ولا يساويهم فى النسب والجوار[3] .

٧-الحقد ، والعداوة ، والبغضاء :

يعد المحاسبى هذا الدافع المشتبك أشد دوافع الحسد خطرًا ، وذلك ما وصف الله ، عز وجل ، به الكفار ، وعداوتهم ، وبغضهم

(١) نفس المصدر ، ص ٤٣١ .
(٢) نفس المصدر ، ص٤٣١ ، ٤٣٢ .
(٣) الرعاية ، ص ٤٣٢ .

للمؤمنين ، فقال : ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ [1] فأخبر أنهم مبغضون للمؤمنين ، يسوءهم ما يرون بهم من نعمة الإيمان والطمأنينة الروحية ، حسدًا لهم ، لبغضتهم وعداوتهم ، فأخرجتهم العداوة والبغضاء إلى الحسد[2] .

فالمبغض المعادى لا ينفك من الحسد والشماتة ، وقد يكون عن حسد العداوة والبغضاء : القتل ، وأخذ المال ، والسعاية بمن يحسده ، وهتك ستره ، وغير ذلك . فالمبغض حسده أعظم الحسد وأشده[3] .

علاج الحسد :

يسير المحاسبى فى علاجه لهذه الظاهرة على منهج مكون من مرحلتين:

الأولى : بيان خطورة الحسد ، وتفصيل أضراره التى تلحق الحاسد فى نفسه ودينه ، ودنياه .

الثانية : تبدأ حيث تنتهى الأولى ، وتتمثل فى دعوة الإنسان أن يتدبر – بعقله – هذه الأضرار ، ويقف أمام نفسه موازنًا بين

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) وأخرجتهم إلى الشماتة فو قوله تعالى : ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ سورة آل عمران ، الآية ١٢٠ .
(٣) الرعاية ، ص ٤٢٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

السلامة منها ، أو التورط فيها ، حتى إذا ما اقتنع بكراهة الحسد ، أمكن له السيطرة عليه ، أو حصره فى أضيق نطاق .

(أ) المرحلة الأولى : أضرار الحسد :

أدرك المحاسبى خطورة الحسد على المستوى الاجتماعى ، وأنه من أهم أسباب اختلاف أفراد الواحدة ، وعوامل تدهورها . كما أنه على المستوى الفردى أصل لكثير من الشرور الأخلاقية التى تترتب عليه ، والعذاب النفسى الذى يصاحبه . وقد كتب فصلاً ممتعًا فى بيان أضرار الحسد ، مركزًا على نقطة هامة ، تتمثل فى أنه يخاطب الفرد ، وهو مدرك تمامًا لغريزة حرصه الشخصى على منفعته الخاصة ، فبين له أن الحسد لا يتفق وهذه المنفعة ، وبضربه على هذه النغمة المادية ، بالإضافة إلى استخدام أسلوب الترغيب والترهيب يمكن أن نقرر نجاح المحاسبى فى محاولته ، إلى حد كبير.

وفيما يلى أهم العناصر التى أدار المحاسبى حولها شرحه لبيان أضرار الحسد ، مع قدر كبير من التركيز :

- الحاسد يغش المحسود المؤمن ، ويشارك بذلك أعداءه من المشركين فى عدواتهم التقليدية للمؤمنين .
- الحاسد يسخط على قضاء الله فى تقسيم النعم والأرزاق على عباده.
- الحاسد لا ينال منفعة دينية أو دنيوية على حسده ، بل على العكس يستوجب غضب الله وسخطه .

- ليس الحسد سببًا مؤثرًا فى زوال النعم ؛ لأن الله ، تعالى ، لا ينفذ مشيئته حسب رغبات الحاسدين ، والدليل على عدم تأثير الحسد أن الله ، تعالى ، أبقى على الأنبياء نعمه ، وكثيرًا ما حسدوا من قومهم، كما أبقى على الأغنياء غناهم ، وحافظ للمؤمنين على إيمانهم يقول تعالى : ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ (١) .
- الحاسد هو الخاسر ، وليس المحسود ، ويمثل المحاسبى لذلك برجل أراد أن يرمى عدوا بحجر ، فعاد الحجر إلى عينه هو ، وبيان ذلك أن الحاسد كان – قبل أن يحسد – فى (نعمة السلامة من الحسد) فلما تحركت نفسه بهذا الشعور الخبيث فقد تلك النعمة .
- يفترض المحاسبى إمكانية تحول أمنية الحاسد فى المحسود إليه ، نتيجة سخط الله ، ويمثل لذلك بإنسان أراد زوال الإيمان عن آخر ، فزال إيمانه هو ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم ﴾ (٢).
- الحسد عذاب نفسى ، وغم وجزع يتجددان كلما استمرت النعم على المحسود، ويستفحلان بزيادتها .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٩ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- لو تدبر الكافر الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة تلك الأضرار السابقة لارتدع خوفًا على سلامة دنياه ، فكيف بمؤمن يعتقد باليوم الآخر ، وما فيه من جزاء على النوايا والأفعال ؟

- الحسد شعور يقويه إبليس فى نفس المؤمن ؛ لأنه لو ترك المؤمن ونفسه لأحب الشخص الذى تظهر عليه النعم ، وخاصة النعم الدينية، فحاول منافسته، وربما لحق به ، ففاز . وإذا لم يحاول منافسته ، فحسبه شعور المحبة ، والمشاركة القلبية . جاء فى الحديث : "أهل الجنة ثلاثة : المحسن ، والمحب له، والكاف عنه" .

- لو أن الحسد يؤثر فى المحسود لكان الحاسد معرضًا هو الآخر لحسد غيره ، "فإن أردت ألا يطيع ربك فيك الحاسدين ، فأنت أهل ألا تحسد عباده ، اتباع محبته ، وشكرًا له على ذلك"(١) .

المرحلة الثانية : التطهير الأخلاقى :

سبق أن قلنا إن هذه المرحلة تبدأ حيث تنتهى الأولى ، ومع ذلك فقد ود المحاسبى لو أنها بدأت مع بداية المرحلة الأولى . فهو يقول : "وإنما سردت لك هذه الخلال التى بها ينفى الحسد ، إن لم تسخ نفسك بترك الحسد بالخلة الأولى، فعسى أن تسخو فتتركه بالخلة الثانية ، فإن لم تسخ بالثانية ، فعسى أن تسخو بالثالثة ، أو الرابعة.." (٢) .

---

(١) الرعاية ، ص٤٣٩ .

(٢) الرعاية ، ص ٤٤٠ .

غير أن المحاسبى يدرك تمامًا شراهة الحسد ، وأنه داء "شمل أهل الدين والدنيا" ومن ناحية أخرى فإنه يدرك طبيعة الإنسان الذى يصاب به ، أنه ليس ملاكًا يحلق بأجنحة . فيقول : "إنك لا تقدر أن تسكت عدوك إبليس ، ولا تغير طبعك ، فتجعل نفسك خلقة لا تنازعك إلى حسد من عاداها ، أو تختص بشىء دونها .. ولم تكلف أن تجعل طبع نفسك بهيئة من لا يفعل ، ولا يسهر ، ولا ينازع إلى محبوب ولا مكروه ، فذلك طبع الملائكة"(١) .

وإذ يقرر المحاسبى أن الإنسان غير مكلف بتغيير طبيعته التى خلق عليها ، فإنه يؤكد أنه مكلف باستخدام عقله الذى اختصه الله به ، وهو يرى أن معرفة أضرار الحسد تحرك شعور الكراهية له ، وتقويه ، وعندما يستحكم هذا الشعور الجديد – تحت رعاية العقل – يصبح الحسد مشلولا فى مكانه المظلم من النفس ، بل ربما ضمر ، وانمحى . يقول المحاسبى : "فإذا كنت للحسد كارهًا ، أبيًا له من قبل عقلك ، فلا تضرك منازعة نفسك به ، وخطرات العدو – يقصد إبليس"(٢) .

هذا ويمكن الإشارة إلى أن فكرة التطهير الأخلاقى عن طريق العقل قد تناولها جالينوس فى كتاب "تعرف المرء عيوب نفسه" الذى ترجمه توما وأصلحه حنين ابن اسحاق ، وفيه يثبت جالينوس أن

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٤١ .

(٢) الرعاية ، ص٤٤٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

أخطاء الناس تنتج من شهواتهم . وعليهم أن يتحكموا فيها بعقولهم ويتسلطوا عليها ، حتى ينجوا من هذا الأخطاء ، والخطأ الأخلاقى يرجع ، فى نظره ، إلى الخطأ العقلى[1] .

الجزاء الأخلاقى للحسد :

يبين المحاسبى فى نص فريد الجزاء الأخلاقى للحسد ، وخاصة إذا حل بالمحسود ما تمناه الحاسد له ، ثم شعر هذا بالندم ، وتقدم فى طريق التوبة طالبًا الغفران ، فلمن يعتذر ؟ وأمام من يطلب الصفح ؟

ويقرر المحاسبى أن القانون إذا كان لم يحدد للنوايا الشريرة ، ومنها الحسد ، جزاء ماديًا ، فإن الشرع قد تعقبها ، ورصد لها جزاء روحيًا ، ربما كان أقسى على النفس من العقاب المادى !

ومن الأفضل أن نعرض ، فى هذا المجال ، لنص المحاسبى نفسه قصدًا إلى تعرف طريقته ، ولغته ، ثم مدى تحليله لبعض النوايا التى قد تكون غامضة فى أعماق النفس .

"قلت : فإن ساءنى ما رأيت من النعم ، وتمنيت زوالها .. فينزل من البلاء ما يزول عنه ، كالغنى : يزول عنه وينزل به الفقر، أو الصحة : فينزل به المرض ، أو العلم : فيحل به الجهل ، أو العصمة : فيحل به الخذلان ، أو الستر : فيحل به هتك الستر ، ثم

(١) ابن مسكويه ، للدكتور عبد العزيز عزت ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

ندمت على ذلك ، أيكون للمحسود عندى مظلمة يجب على التحلل منها ؟

قال : أما ما كان من عمل القلب ، ولم تستعمل به جوارحك ، فذلك ذنب بينك وبين الله ، عز وجل ، عصيته به فى عباده ، نهاك عنه وذمه إليك ، فليس عليك فى ذلك للمحسود تبعة ، ولا يجب عليك استحلاله .

فإن خرجت إلى غيبة أهاجك عليها الحسد الذى فى قلبك ، أو تكذب عليه ، أو تغتاله بغائلة تحرمه بها منفعته ، أو تنزل به مكروها، أو أخذ مال لا يحل لك من ماله ، فعليك الاستحلال من ذلك وما أشبهه .

وأما ما لم يعد (أى يتجاوز) القلب فهو ذنب عظيم ، لا يجرى مجرى المظالم التى فيها القصاص بين العباد فى عمل الجوارح فى النفس والأموال والأعراض ، ولرب شىء لا قصاص فيه أعظم من كثير مما فيه القصاص !

وقد جاء فى الحديث : "إن الحسد يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب"[1] .

* *

(١) الرعاية ، ص ٤٤٤ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مواجهة الشر عند الحكيم الترمذى

ولد الحكيم الترمذى فى بداية القرن الثالث الهجرى بمدينة ترمذ - الواقعة على نهر جيحون بخراسان – وتعددت آراء الباحثين فى منشأ لقبه بالحكيم ومغزاه تبعًا لاعتبارات مختلفة. أهمها أنه كان من القلائل الذين قاموا بتحليل بارع للنفس الإنسانية ، وتمكنوا من الكشف عن مناهج السلوك الروحى[1].

ومع ذلك يمكن التساؤل : لماذا لم يعمم هذا اللقب على كل من قام بهذا العمل ؟ يبدو أن لقب الحكيم ارتبط بتفرده بين الصوفية بالإلمام بكثير من علوم عصره العملية كالطب والفلك ، كما أنه سلك فى حياته مسلكًا خاصًا بين الناس استحق به هذا اللقب[2] .

كان على خلاف مع فقهاء عصره . وكذلك مع أصحاب الحديث . وقد حمل على الصوفية حملة عنيفة كان من نتائجها أن ثاروا عليه ، ومنعه أحد الحكام من الكلام فى موضوع الحب الصوفى.

للحكيم الترمذى موقف معارض للشيعة ، وخاصة الرافضة ، ويمكن أن يضع هذا الموقف أيدينا على أحد الأسس التى تفرق بين

(١) هذا رأى الدكتور عثمان يحيى – (الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية) للدكتور عبدالفتاح بركة ، ٦٠/١ ، ٦١ .
(٢) المرجع السابق ٦١/١ .

التصوف من التشيع . وهو المجال الذى قدمت فيه دراسات حديثة تثبت الصلة القوية بينهما ، إلى حد أنهما تبادلا المواقع والأسلحة[1] .

وقد امتد تأثير الحكيم الترمذى فى التصوف الإسلامى كله . فقد تأثر به الغزالى فى أحد فصول كتابه (إحياء علوم الدين) وهو ذم الغرور ، حيث أخذه من كتاب (الأكياس والمغتربين) .

وأفرد ابن عربى جزءًا كبيرًا من كتابع الضخم "الفتوحات المكية" للرد على (١٥٥) سؤالاً طرحها الحكيم الترمذى فى أشهر كتبه على الأطلاق ، وهو كتاب (ختم الأولياء) .

كما نقل ابن القيم فقرات من كتابه الفروق – الذى سنتعرض لدراسته – فى كتابه "الروح" دون أن يشير إلى مصدرها ، على الرغم من أنه اعتمد على أقواله فى مواطن أخرى من الكتاب نفسه .

وأخيرًا حظى الحكيم الترمذى بتقدير أعلام المدرسة الصوفية المعروفة بالمدرسة الشاذلية . وهم أبو الحسن الشاذلى ، وابن عطاء الله السكندري ، وأبو العباس المرسى[2] .

ومن أهم مؤلفات الحكيم الترمذى : كتابه (ختم الأولياء) و(الرياضة ، وأدب النفس) و(تحصيل نظائر القرآن) و(الصلاة ومقاصدها) و(الفروق) الذى سوف نعرض له فيما يلى :

(١) انظر : الصلة بين التصوف والتشيع ، د. الشيبى .
(٢) انظر المرجع السابق ١٩٧/١-١٩٩ ، حيث يعرض الدكتور عبد الفتاح لمكانة الترمذى لدى من جاء بعده بالتفصيل .

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

منهج الحكيم الترمذى :

يروى أن الحكيم الترمذى كان يقع – أثناء الكتابة – تحت تأثير شعور نفسى جارف ، وأنه كان يترك قلمه تحت تصرف هذا التأثير[1] والواقع أن بعض الصوفية قد تحدثوا عن مثل هذا الشعور. يقول ابن عربى : "وعلم الله ما قيدت هذا القدر إلا والحمى تنفضنى فى باطنى ، مما أجد من قوة الوارد ، وازدحام تموج المعارف فيه"[2].

ومع ذلك ، فإن الحكيم الترمذى يتناول فى كتابه "الفروق" – بالتحديد والتحليل – مائة وخمسة وخمسين فرقًا بين مفهومين ، وقد يكونان متضادين تمامًا (كالخوف والجبن) أو متقاربين فى الظاهر إلى حد ما (كالخشوع والتماوت) أو غير واضح الفرق بينهما على الإطلاق (كالصلابة والقسوة) .

ويلاحظ أنه أعطى لبعض الفروق أهمية أكبر من غيرها . وبالتالى فقد سمح لها بعدد أكثر من الصفحات وذلك مثل الفرق بين (المداراة والمداهنة) فى أول الكتاب ، والفرق بين (المشاكلة والمقايسة) فى آخره ، أما باقى المفاهيم فقد عرضها عرضًا متوسطًا، أو مركزًا ، لكنه لا ينقصه الوضوح المطلوب .

---

(١) مقدمة (الرياضة وأدب النفس) .

(٢) ذخائر الأعلاق ، ص٤٨ .

يعتمد الترمذى فى شرحه للمفاهيم على الاستشهاد بالقرآن الكريم وذلك فى حالتين : عند تحديد المعانى اللغوية ، وعند تأكيد بعض الموضوعات الأخلاقية ، كما يكثر من الاستشهاد بالحديث النبوى ، الذى اشتغل بروايته فترة من حياته ، كما يقدم بعض الأمثلة التاريخية ، ويبدو منها اطلاعه على كل من التراث الدينى للمسيحية واليهودية ، بالإضافة إلى استيعابه للتراث الفارسى ، ويوجد فى كتاب الفروق ما يؤكد معرفته بكل من اللغتين : العبرية والفارسية .

هذا ، ويبدو فى كتاب الحكيم الترمذى – بالإضافة إلى إحاطته بالثقافة الدينية وتمكنه منها – عناصر من ثقافة طيبة ، وذلك بالقدر الذى كانت تسمح به معلومات هذا المجال فى عصره . فهو كثير الحديث عن أعضاء الإنسان الباطنة كالقلب والنفس والروح والعقل ، وقواه المختلفة كالغضب والشهوة والإرادة وارتباط هذه جميعًا بالأفعال والانفعالات .

وفى كثير من الأحيان تشيع ، لدى الحكيم الترمذى ، روح نقدية صافية تشير – صراحة أو ضمنًا – إلى ما فى عصره من عيوب سياسية واجتماعية وخلقية ، وتكشف عن دوافعها ، وتحذر من مظاهرها وآثارها .

ويميل الحكيم الترمذى فى أكثر كتاباته إلى البسط والشرح أكثر من التركيز والاختصار . وربما كان السبب فى ذلك هو الدافع

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

التعليمى ، ولكن طبيعته العفوية فى التأليف ، والتى كان يقع فيها تحت تأثير شعور جارف بالاسترسال – يمكن أن تمثل سببًا آخر .

ومن الطبيعة أن يوجد قدر من تكرار الأفكار نتيجة هذا البسط، كما لا تخلو كتابات الترمذى من استطراد ، قد يطول أحيانًا ، لاعتماده على نقول تاريخية أو دينية .

وحتى نأخذ صورة متكاملة عن كتابة الترمذى : المركز منها، والمتوسط والمبسوط ، سنعرض هنا نموذجين يمثل أولهما النوع المركز ، وفيه يقول الترمذى : "الفرق بين الخشوع والتماوت" .

الخاشع : عبد قد خمدت نيران شهوته ، وسكن دخانها عن صدره ، فخلا الصدر ، وتجلى النور على عينى فؤاده فى صدره ، وأشرق نور العظمة، فماتت شهواته من الخوف الذى ناله من ذلك ، وحيى القلب ، فخشع ، وخمدت الجوارح يخوف النفس ، وتوقر القلب واطمأن إلى الله للسكينة التى تنزلت عليه من ربه ، وهو قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ والمخبت : المطمئن .. والخبت من الأرض ما قد تطامن فاستنقع فيه الماء .

والمتماوت : عبد يتكلف إسكان الجوارح ، ونفسه فى الباطن شابة طرية ذات شهوات ، ولكنه يصير نفسه كالميت من تسكين الجوارح تصنعًا ومراءاة .. يحب أن يرى خاشعًا فهو يتخشع فى الظاهر ، والأسد منه رابض ينتهز الفرصة ، وقد تعوذ رسول الله ﷺ، من ذلك فقال : "تعوذ بالله من خشوع النفاق" قيل : يا رسول الله : ما خشوع النفاق ؟ قال : "أن يخشع البدن ، والقلب ليس بخاشع!" (١) .

أما النموذج الثانى فنقدمه مثالاً على الكتابة المتوسطة ، وفيه يقول الترمذى : "الفرق بين الهدية والرشوة" .

فالهدية أن يعطيك (شخص ما) شيئًا يريد أن يهدى ، أى يميل، بقلبك إلى قلبه ، ونفسك إلى نفسه . ومن ذلك قيل : يتهادى فى مشيته أى يتمايل . والهدى مأخوذ من ذلك أيضًا . وهو ميل القلب إلى الله عز وجل .

فإذا أعطاك على أن يميل قلبك إلى نفسه ، وأنت ذو سلطان أو ذو سبب من السلطان فهو رشوة . لأن السلطان ظل الله فى الأرض . والعدل سبيله . فإذا أعطى السلطان فسلك سبيل العدل فما أخذ عليه كأنه صيره ثمنًا للعدل ، والله لا يرضى أن يباع عدله فى أرضه بحطام الدنيا ، فإنه بذل العدل لعباده ، ولم يقتض عليه من عباده شيئًا. فلذلك صارت هديته رشوة .. مأخوذ من الرشا ، لأن الرشا به يستمد من البئر الماء ، فينزعه به ، وكذا هذا : صير هذه العطية ، بها يستمد العدل من الحاكم .

---

(١) كتاب الفروق (مخطوط مصور) لوحة ١١/أ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يؤمر الحاكم بأن يكون بحال يستمد منه العدل بالاحتيال ، بل يكون عدله كالماء الجارى الذى لا يكون للخلق فيه مؤنة يتناولونه بيسر ، لا بالاحتيال ، فالهدية للسلطان أو لذى سبب منه : رشوة .

ألا ترى أن رسول الله ﷺ قال لبعض ولاته ، حين جاءه بشىء : "يقول أحدكم : (هذا لكم ، وهذا أهدى لى) أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى ينظر : هل تأتيه هديته!" [1] .

أما النموذج الذى يعبر عن طريقة المحاسبى التى يميل فيها إلى البسط والشرح ، فهو ما سوف نقف عليه من تحليل موقفه من المسلم فى مواجهة الشر . إذا كان المسلم قادرًا بشخصه أو بمركزه على تغيير الشر من المجتمع الذى يعيش فيه ، فذلك أمر واضح لا غموض فيه .

أما إذا شاهد الشر ، دون أن تكون لديه الوسائل أو الإمكانيات الكافية لمواجهته وتغييره : ماذا يفعل ؟ وكيف يتصرف ؟

يقوم الحكيم الترمذى بتحليل هذا الموقف عن طريق التفرقة بين دافعين أخلاقيين تصدر عنهما فى الغالب أعمال الإنسان ، ومع ذلك فإنهما – من وجهة النظر الإسلامية – مختلفان أشد الاختلاف .

ويتمثل هذان الدافعان ، اللذان يتحولان فى الواقع إلى سلوك ، فيما يسمى : المداراة ، والمداهنة .

(١) كتاب الفروق (مخطوط مصور) لوحة ١٥/ب .

ويبدأ الحكيم الترمذى بتحديد كل منهما فى تعريف مختصر ، محاولاً الكشف عن سبب إطلاق هذين اللفظين عليهما ، ومعتمدًا فى ذلك على لغة القرآن الكريم ، فيقول : "المداراة : فعل لطيف ممزوج بصلابة . وإنما سميت مداراة لمداراة الأحوال فيها ، وهى مشتقة من الدرء – مما يدرأ أى يدفع بعضه ببعض من قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾[1] أى اختلفتم . فالتدارى : تلوين الأحوال بالرفق مرة ، ثم الصلابة ، ثم الرفق ، حتى يصل بين الرفقين بالصلابة .

وكذلك المداهنة : هى تلوين الأحوال ، والترفق فى الأمور والتلطف لها حتى يصل بعضها ببعض ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[2] فإنما شبه السماء بالورد لتورده ، وبالزيت لتلونه بحمرة ، ومرة بخضرة ، ومرة بصفرة ، فكهذا صفة الدهن والورد"[3] .

ثم ينتقل إلى موقف الشرع من هذين الخلقين ، "فالمداراة فعل قد ندب الله العباد إليه ، ورضى بها ، والمداهنة منهى عنها مذمومة فى الشريعة : قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[4].

(١) سورة البقرة ، الآية ٧٢ .
(٢) سورة الرحمن ، الآية ٣٧ .
(٣) كتاب الفروق ٢ ، أ .
(٤) سورة القلم ، الآية ٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويذكر الحكيم الترمذى أن هناك اتفاقًا بين المداراة والمداهنة من ناحية وخلافًا كبيرًا من ناحية أخرى .

أما الاتفاق فيتمثل فى أن كلاً منهما يستخدم فيه نفس الأسلوب، وهو الرفق واللين والتلطف . وتلك أمور يمكن الوقوف على مظاهرها فى سلوك الإنسان . كما أنه بمقدور المجتمع أن يحكم على صاحبها بالصدق أو بالزيف.

وأما الاختلاف فينحصر فى أن الدافع والهدف اللذين يوجدان فى داخل الإنسان لا يستطيع الآخرون دائمًا أن يكشفوا حقيقتهما . والقاضى هنا ليس هو المجتمع الذى قد يمكن خداعه ، وإنما هو (حاسة الضمير) التى ترصد ، فى دقة بالغة ، كل النوايا والمقاصد التى تتواثب فى أعماق الإنسان .

فالمداراة إذا سكت فيها الإنسان عن صاحب المنكر أبقى على دينه ، ودين صاحبه ، لأن صاحب المنكر قد ركب هواه ، واستمر فى ذلك ، وشرهت نفسه ، فإذا أراد أن ينكر عليه خاف ألا يقبل ، ولا ينجح فيه ، فيزيد فى المنكر والفساد .. لأن النفس لجوجة ، وليس فى كل وقت تقبل الموعظة ، فيحتاج إلى أن يتحين وقت قبولها، ويتلطف لها ، ويكون حاذقًا فى ذلك .

قال رسول الله : "إنما يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر : عالم بما يأمر ، عالم بما ينهى ، بصير بما يأمر ، بصير بما ينهى ، رفيق فيما يأمر ، رفيق فيما ينهى" .

فالعلم والبصر والرفق : صفات أساسية لابد من توافرها فى كل مصلح وخاصة فى المجال الدينى والأخلاقى ، حيث تتمثل الأدواء فى شكل قرحة غير محسوسة ، وحيث تكون العادات السيئة قد ضربت بجذورها فى أعماق النفس ، وحيث تبدو المعتقدات الفاسدة ، وكأنها أجزاء أصلية من مكونات العقل والشعور .

وليس أقرب لعمل المصلح الأخلاقى فى مداواة خلق سيئ من "طبيب نظر إلى قرحة ليعالجها . فأول أمره التعرف لها حتى يعلم : أى قرحة هى ؟ ثم يتحين نضجها ، ثم يبطها (يشقها) حتى يسيل منها الدم ، ثم يضع عليها من الدواء ما يزيل الفاسد من لحمها ، ثم يتابع عليها المراهم اللينة التى تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ويبسها" .

ويعلق الحكيم الترمذى على هذا المثال التقريبى قائلاً : "فإذا كانت قرحة واحدة تحتاج إلى كل هذا العلم والبصر والترفق والتأنى والمهلة حتى تعود إلى الصحة . فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء ، ويشيطان مقرون بها ، فجالا بالصدر ، فمثلا بين عينى القلب صورة الأشياء ، ونفخا ، ونفثا ؟!

هذا ، وتقوم نظرة الترمذى إلى الإنسان على أنه مكون من نفس مظلمة، أمارة بالسوء دائمًا ، وأن الشيطان متعاون معها فى ذلك. أما قلب الإنسان فهو طاهر بطبعه ، ولكنه قد يقع تحت تأثير كل

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

من النفس أو الشيطان، فيمرض . وقد ذكر الله ، تعالى ، مرض القلب فى تنزيله ، فقال : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (١) .

ومن هنا كانت محاولة علاج هذا القلب المريض من أصعب الأمور ، بل إن الترمذى يعدها "أصعب من مداواة تلك القرحة التى وصفنا أضعافًا . فلذلك يحتاج المدارى له إلى علم وبصر ورفق وتأن، حتى تنجع فيه الموعظة".

موقف الإنسان من المنكرات :

يرى الحكيم الترمذى أن المنكر ذو أنواع متعددة . فيذكر أنه قد يكون قولاً ، أو فعلاً ، أو خلقًا من أخلاق السوء .

ويلاحظ أن فصل الترمذى بين الفعل والخلق بحرف العطف (أو) يدل على وعى بالفرق بينهما ، كما يدل على فهم صحيح للخلق كفعل يتكرر من الإنسان باطراد ، ويصدر عنه فى عفوية .

والإنسان مطالب – من الناحية الأخلاقية – بأن يغير المنكر إذا رآه أو كما يقول الترمذى : "يعمل عملاً معروفًا ، يأخذ مكان ذلك المنكر ، فهذا مغير للمنكر – غيره عن حاله – فيصيره بحال يسمى ذلك الحال معروفًا" .

فإذا ظهر أمر منكر ، وحاول إنسان أن يغيره بالقوة ، فإنه لن يفعل حينئذ – فى رأى الترمذى – أكثر من أن يزيد المنكر : ما هو

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٢ .

أنكر منه . كما أنه فى الواقع ، لم يغيره ، لأن ذلك المنكر قائم بعينه، وفيه زيادة . فليس هذا بمغير .

يحتاج المغير إذن إلى علم بذلك الأمر ، وبصر فيه ، وهو أن يبصر أصل المنكر ، ومن أين هاج ؟ ويرفق فيه بتمكث وتؤده وتأن وتدبر لعاقبته .

فربما احتاج إلى أن يتلقى صاحب المنكر ببر وهشاشة ومقاربة ولين ، حتى يأخذ من قلبه شعبة ويحل منه محلاً ، تقبل منه نفسه تلك الموعظة بتلك المقاربة على مقدمته .

وربما احتاج إلى أن يتلقاه بسلطان ، يأخذ بقلبه ، ويرغب نفسه، ويهول عليه . فإنما يبصر هذه الأحوال إنسان وافر الحظ من ربه ، وافر الحظ من العقل ، وافر الحظ من اللب .

أما إذا أحس الإنسان أنه أضعف من أن يواجه المنكر ، أو حتى يحتال على تغييره ، فإن دوره ينحصر فى المرحلة الثالثة من الإنكار ، وهى الإنكار بالقلب .

ومن المعروف أن مراتب الإنكار ثلاث : إنكار باليد ، وإنكار باللسان ، وإنكار بالقلب .

والجدير – عند الحكيم الترمذى – أنه يتعمق هذه المراتب الثلاث ، ويضع لكل منها مستويات متفاوتة من حيث الإخلاص وعدمه ، فيقول : "فإذا أنكره بإحدى يديه ، فرده ، وتناوله بالأخرى ،

www.alukah إهداء من شبكة الألوكة

لم يكن هذا إنكارًا ، فإذا أنكر باللسان ، فذمه مرة ثم مدحه أخرى ، لم يكن هذا أنكارًا . كذلك أيضًا سبيل القلب : إذا إنكره بقلبه ، فدفعه ورده ، ثم كان من نفسه إلى قلبه من جرى الشهوة وخلوصها إليه ما اشتهاه بقلبه ، لم يكن هذا إنكارًا .

إلا أنه لما لم يكن لهذا الإنسان ملك فى جرى هذه الشهوة من معدنه (أى من طبيعته السيئة ، أو نفسه الأمارة بالسوء) إلى قلبه لم يبطل إنكاره ، ولكنه إنكار ممزوج بشهوة فى ذلك القلب لذلك المنكر، ولم يكن لقوله – إذا نطق به – سلطان ينفى هذه الشهوة من قلوب أهل المنكر" .

ويستشهد الحكيم الترمذى بحديثين للرسول ﷺ ، يوضحان الفرق بين شخصين : أحدهما سكت عن دفع المنكر مداراة ، وسكت عنه الآخر مداهنة :

– يقول الحديث الأول : "إن الله ، تبارك وتعالى ، يسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليقول : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره – فإذا لقن الله عبدًا حجته – قال : "يارب وثقت بك ، وفرقت الناس"

– أما الحديث الثانى فيقول : "لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمرًا لله عليه فيه مقال ، فلا يقوم له ، فيقول الله ، عز وجل : "ما منعك أن تقول كذا يوم كذا" فيقول : "يارب ، خشيت الناس" فيقول له : "إياى كنت أحق أن تخشى" .

فالأول على المداراة والثانى على المداهنة . ويقارن الترمذى بين عبارة الأول (فرقت الناس) وعبارة الثانى (خشيت الناس) فيقول : إن كلاً منهما ذات دلالة واضحة على الموقف الدينى والنفسى .

فالفرق أصله من المفارقة بالقلب أى أنه فارق الخلق بقلبه ، لما هم عليه من ارتكاب المنكر ، وانفرد بربه ، ووثق من أنه يعذره على تقصيره فى دفع هذا المنكر .

أما الثانى ، فعندما واجه المنكر ، لم يجرؤ على تغييره خشية من الناس أن يلحقوا به أذى فى نفسه ، أو فى دنياه ، فهو مداهن .

ويقرر الترمذى إن كل خشية يكون للنفس نصيب فيها ، تعد غير محمودة ويستدل على ذلك بموقف الرسول ﷺ ، نفسه ، حينما خشى أن يواجه الناس بإعلان زواجه من بنت عمه زينب ، بعد أن يطلقها زيد بن حارثة ، الذى كان متبنى له . فعاتبه الله ، تعالى ، بقوله : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ (١).

الإنكار الحقيقى إذن لابد أن يكون صادرًا عن النفور الكامل من المنكر، والسلامة من أدنى تعلق للقلب به . وقد حدث فى تاريخ بنى إسرائيل أن قومًا ارتكبوا المنكر ، فقامت طائفة منهم ، وأنكرت عليهم ذلك ، ثم آكلوهم، وشاربوهم ، وخالطوهم ، فضرب الله قلوب

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٧ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بعضهم ببعض ، وذهب بالمخالطة. ما كان فى قلوبهم من الإنكار ، لأنه لم يكن خالصًا ، ولأن قلوبهم كانت تحتوى على بقية من الشهوات .

وفى مقابل ذلك ، يضرب الحكيم الترمذى المثل بموقف صحابة رسول الله ﷺ ، كابن عمر ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، والتابعين كالشعبى وإبراهيم النخعى وشريح ، حين كانوا يدخلون على أمرائهم كالحجاج ، والمختار ، ويزيد ، فيخالطونهم ، ويقبلون برهم . ومع ذلك ، فإنهم كانوا يصدرون عن المداراة والتآلف وإقامة الحقوق، لا على المداهنة ومخاتلة الدنيا بالدين . فإذا رأوا منكرًا غيروه بألطف الوجوه ، إن قدروا عليه ، وإن لم يقدروا أخروه إلى وقت آخر .

لا بأس إذن من التعامل مع أصحاب المنكر ، ولكن بقصد إصلاحهم ، وتغيير ما هم عليه ، والمقياس فى ذلك هو سلامة القلب من التعلق بما هم فيه ، والنية الصادقة على محاولة الإصلاح . يقول الترمذى : "فكان علية أصحاب رسول الله ﷺ ، وكبراء التابعين يخالطون الأمراء مخالطة الأبدان ، فلم يضرهم ، لأن الضرر فى مخالطة القلوب" .

ثم يقدم الحكيم الترمذى ثلاثة نماذج مختلفة لاستخدام خلق المداراة فى معاملة الآخرين . نكتفى منها بإيراد النموذج التالى :

– دخل ابن عمر ، ومعه ابنه سالم ، على الحجاج ، فجىء بأسير ، فأمر الحجاج سالمًا أن يضرب عنقه ، فقام سالم ، فشمر ثيابه ، وحسر عن ذراعيه ، وأخذ السيف ، ومشى إليه ، وابن عمر يناديه : يا سالم ! يا سالم ! فلا يجيبه ، حتى دنا من الأسير ، فقال: يا هذا ، أصليت اليوم صلاة الغداة؟ قال : نعم . فرجع، ووضع السيف ، فقال له الحجاج : مالك ؟ قال سالم : سمعت هذا – وأشار إلى أبيه – يقول : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : من صلى الغداة فهو فى ذمة الله ، وقد سألته ، فقال : صليت ، وما كنت لأخفر ذمة الله ، فأمر الحجاج بتخلية الأسير .

ويعلق الحكيم الترمذى على ذلك قائلاً : "فانظر كيف تلطف سالم فى ذلك . فلو كان عندما أمره بضرب عنقه يستقبله بغير هذا لكان غير مستنكر أن يضرب عنقه هو ، فيكون قد جلب الهلاك على نفسه ، وعلى سلطانه . فأراه من نفسه السمع والطاعة للسلطان ، وأراه أنه غير مستحق لذلك ، ووعظه من الجهة التى نجعت فيه ، فهكذا التلطف والترفق والمداراة فى رد المنكر على أهله" .

وعلى الرغم من هذا التحليل الذى قام به الحكيم الترمذى لكل من المداراة والمداهنة ، فإنه يقول عن المداراة ، بصفة خاصة ، إنها "واد عميق ، لا يمكن استقصاء تفسيره إلا فى مدة كثيرة ، وفى صحف كثيرة يطول الوصف لها ، ولكن قد أجملناه بوجيز الصفة" .

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

وهو يحدد ، فى النهاية ، الفرق بين هذين الخلقين قائلاً : المداراة : أن تسكت عند رؤية المنكر إبقاء على دينك ودين صاحبك حتى لا يزداد ، فهذا من أجل الله ، عز وجل .

والمداهنة : أن تسكت عنه إبقاء على دنياك وجاهك وقدرك وأحوال نفسك . فهذا من أجل نفسك .

* *

ظاهرة البخل عند الجاحظ

من أطرف الأمور أن ظاهرة البخل قد ظهرت فى الحضارة الإسلامية، فى وقت كانت أملاك الدولة الإسلامية قد اتسعت ، وثروات أهلها قد تزايدت ، وتسابق الأمراء وشخصيات المجتمع الراقى على إقامة الولائم ، وتبادل الحفلات . والواقع أنه فى مثل هذه البيئة وحدها ، يمكن ملاحظة تلك الظاهرة ، وهذا ما فعله الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥ هجرية) فى كتابه الرائع عن البخلاء .

والواقع أن المرء ليتساءل : هل كان من الممكن أن يكتب الجاحظ عن البخلاء بطريقة أخرى ، غير تلك الطريقة الكاريكاتيرية التى صور بها أحوالهم، وسجل نوادرهم ؟ إننا نعتقد أن أفضل طريقة لتناول هذه الظاهرة هى تلك التى استخدمها الجاحظ ، وذلك لأن التصرفات العجيبة التى يقوم بها البخلاء لا يمكن تصور تناولها إلا فى إطار ساخر ، قد يثير البسمة على شفاه السامعين ، ولكنه فى الوقت نفسه يولد فى نفوسهم شعور الاشمئزاز من البخل : دافعًا وسلوكًا .

لا شك فى أن البخل خلق ذميم ، وهو مناقض تمامًا لطبيعة الإنسان الذى يعيش فى جماعة : يحتاج إليها كما تحتاج هى إليه ، ومن المعروف أن العطاء الذى يقدمه الأفراد للمجتمع هو الذى ينهض به ، ويحوله من مجتمع أنانى متفتت إلى مجتمع متضامن قوى .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إن محاولات الأفراد فى جمع الثروة لا بأس بها ، لأنه من مجموع ثروات الأفراد يتكون النشاط الاقتصادى فى أى مجتمع مزدهر . وإنما يأتى الضرر من تحول جمع الثروة إلى هدف فى حد ذاته . وهذا ما نجده بوضوح لدى البخلاء . وهو الأمر الذى كشف عنه الجاحظ بأسلوب بالغ السخرية حتى يصل تأثيره إلى قلوب الناس جميعًا ، فيتنبهوا لتلك الظاهرة – النشاز ، ويتجنبوها قدر الإمكان .

لقد كتب موليير عن نفس الظاهرة مسرحيته الشهيرة "البخيل" ، بعد الجاحظ بحوالى ثمانية قرون . فلجأ إلى نفس الطريقة الكاريكاتيرية . والذين يقرءون كتاب الجاحظ "البخلاء" ، وكتاب موليير "البخيل" يدركون على الفور غنى المحاولة التى قام بها المؤلف العربى ، وتنوعها ، واشتمالها على عدد هائل من نماذج البخل ، على حين اقتصر الكاتب الفرنسى على نموذج واحد فقط .

ولسنا هنا بصدد عقد مقارنة بين الكاتبين ، فلكل منهما مزاياه التى لا تنكر، وإنما الذى يهمنا هو أن الجاحظ قد سجل لنا فى كتابه الرائع ظاهرة البخل بمعظم جوانبها ، وأن هذه الجوانب قد وردت فى صور نابضة بالحياة والحركة. فنحن أمام حوادث تقع ، وشخصيات رئيسية تفعل وتتكلم ، وشخصيات ثانوية ترصد وتعلق .. كذلك لا نفتقد المكان ، ولا الوقت ، ولا حتى الديكور الذى تجرى فيه الحوادث . ثم هناك الأسماء التى توحى إلينا بوثاقة الروايات ،

وتضفى عليها مسحة تاريخية ، تشدنا إلى الواقع ، وتقربنا من أحداثه وشخصياته ، وبالتالى تضعنا فى منطقة التأثير المباشر له .

إننا نظلم الجاحظ كثيرًا عندما نعتبر كتابه عن البخلاء كتاب أدب ، أو مجموع تسلية .. ومن المؤسف أن كثيرًا من الدارسين قد كتبوا عنه من هذه الزاوية . ونحن من جانبا لا نعترض عليها . فالجاحظ أديب كبير ، بل إنه من أشهر أعلام الأدب العربى . ولكنه بالإضافة إلى ذلك : مفكر عميق ، ومصلح اجتماعى من الطراز الأول. وهذا ما ينبغى ألا يغيب عنا أبدًا ، وخاصة عندما نقرأ كتاب "البخلاء" .

لماذا كتب الجاحظ عن ظاهرة البخل ؟ قيل إنه هو نفسه كان بخيلاً[1] . وربما يعتمد القائلون بهذا على بعض نظريات علم النفس التى تقرر أن هناك ارتباطًا عاطفيًا يوجد دائمًا بين المؤلفين وبين الموضوعات التى يكتبون عنها . ونحن لا نسلم بهذا على إطلاقه .

فالجاحظ قد كتب عن نوادر الحمقى واللصوص .. كذلك فإن الموضوع الذى يستهوى الكاتب قد يكون متناقضًا تمامًا لميوله وأخلاقه وهذا التناقض هو الذى يدفعه إلى أن يقوم بدراسته ، ويكتب للناس عنه إيغالاً فى تسجيل موقفه ، وتنفير الناس منه .

---

(١) انظر مقدمة كتاب البخلاء التى وضعها : أحمد العوامرى وعلى الجارم لطبعة البخلاء فى جزأين سنة ١٩٣٨ ، وقد طبع د. طه الحاجرى الكتاب مرة أخرى سنة ١٩٤٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا – فى رأينا – هو ما يفسر اهتمام الجاحظ بظاهرة البخل. لقد لاحظ هذا المفكر الكبير أن انتشار هذه الظاهرة – التى تتناقض مع أشهر ما تميز به العرب وهو الكرم – سوف يؤدى بالمجتمع الإسلامى إلى الانغلاق على نفسه ، والأنانية فى معاملاته ، والعزلة فى حياته .. وهى الصفات التى ترتبط بكل إنسان بخيل ، كما أنها هى نفسها الصفات التى تلتصق بأى مجتمع متخلف .

منهج الجاحظ فى البخلاء :

بدأ الجاحظ فحدد موضوع كتابه بأنه يتناول "نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء"[1] مع وعد بالكشف عن تركيبهم المتضاد ، ومزاجهم المتنافى ، الذى عاندوا له الحق ، وخالفوا به الأمم[2] .

كما حدد الغرض منه بأنه محاولة لاستعراض عيوب البخل ، الظاهر منها والخفى ، حتى يمكن تجنبها[3] والتخلص مما قد يكون بالإنسان منها ، وهو لا يدرى .

ثم أشار إلى أهمية الموضوع فذكر أن معرفة داء البخل من أهم ما ينبغى لكل ذى مروءة أن يلم به ، حتى يحمى من الذم عرضه، ويطهر من اللؤم سيرته .

---

(١) البخلاء ، ٧/١ .
(٢) نفس المصدر ، ٢١/١ .
(٣) نفس المصدر ، ٢٣/١ .

وقد صرح الجاحظ بأنه قد اعتمد فى مادة البخلاء على مصدرين : أحدهما ملاحظاته الشخصية عن البخلاء وتجاربه معهم . والثانى : الروايات التى انتهت إليه "من أخبارهم على وجهها"[1] أى دون تدخل فيها بحذف أو تغيير.

وقد عبر الجاحظ سريعًا على خطة الكتاب ، فقال : "ونحن نبتدئ برسالة سهل ابن هارون ، ثم بطُرف أهل خراسان ، لإكثار الناس فى أهل خراسان"[2] .

والواقع أن الترتيب الموضوعى لم يكن فى حسبان الجاحظ ، وهو يضع هذا الكتاب . فالقصص والنوادر تتوالى دون رابط عقلى متطور ، وتختلط إلى حد كبير ، موضوعات البخل على النفس ، مع البخل على الأقارب ، مع البخل على الأصدقاء .. وهكذا .

وقد يمكن القول بأن الترتيب الذى ننشده لا يتلاءم مع الموضوع الذى قصده من تناوله : وضع لمسة من هنا ، ولمسة من هناك ، حتى تكتمل لدى القارئ فى النهاية صورة واضحة عن ذلك الخلق الردىء المشتبك فى أعماق النفس الإنسانية .

الأساس إذن نفسى ، فلا ينبغى أن نطالب صاحبه بترتيب عقلى ، وإن كان هذا لا يمنعنا ، عند الدراسة التحليلية ، أن نصنفه على أساس المنهج العقلى.

---

(١) نفس المصدر ، ٢٦/١ .
(٢) البخلاء ، ٢٧/١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يقال : إن المؤلف أدرى الناس بعيوب كتابه . وعظمة الجاحظ تتمثل فى تصريحه بأحد هذه العيوب ، حين يذكر أن الكتاب لن يكون مكتملاً تمامًا طالما أنه أسقط منه بعض أسماء الشخصيات التى تحدث عن بخلها "إما خوفًا منهم أو مجاملة لهم – ولكنه يتعزى عن ذلك بأن هاهنا "أحاديث" كثيرة متى أطلعنا منها حرفًا عرف أصحابها ، وإن لم نسمهم ، ولم نرد ذلك بهم"[1] .

وإزاء هذه الروح العلمية الأمينة لا يمكن للباحث أن ينتهى من قراءة "البخلاء" حتى يكون قد تكون فى ذهنه سؤال ملح :

– هل خلت القصص والنوادر المروية تمامًا من تدخل الجاحظ فيها ؟

إن الرصد المتأنى لأدق التصرفات الإنسانية ، والملاحظة الذكية لأسرع انفعالات النفس ، ثم تقديم هذا وذاك فى صور كاريكاتيرية نابضة بالحياة والحركة ، كل هذا يدل على أن للجاحظ نصيبًا كبيرًا ، بل أكبر ما يتصور ، فى مادة البخلاء . وسوف نشير فى أثناء التحليل إلى بعض الملاحظات التى تؤكد هذه الدلالة .

ظاهرة البخل :

كان اهتمام الجاحظ بظاهرة البخل كبيرًا ، ولا يمكن بحال ما أن نغفل الجهد الذى بذله فى تتبع هذه الظاهرة رصدًا ، وتحليلاً ، وتسجيلاً . ولا شك فى أن الآثار الاجتماعية والخلقية لهذه الظاهرة

(١) نفس المصدر ، ٣٠/١ .

على عصره قد شدته إليها بعنف، مما جعله يتقدم لعلاجها فى مثل هذا الاهتمام . ويتمثل الجهد الذى بذله الجاحظ فيما يلى :

– جمع حكايات البخلاء ونوادرهم من الرواة أو من الكتب .

– السعى إليهم بنفسه ، وإنفاق الكثير من الوقت لمعايشتهم ، رغبة فى الوقوف على أحوالهم بدقة .

– الدخول معهم فى مناقشات مستفيضة حول البخل : مصدره ، وعيوبه والآثار الاجتماعية الناجمة عنه .

– التعليق على نوادرهم بسخرية حادة ، والتركيز على كل ما يحط من قدرهم ، ويسقط مروءتهم .

هذا وقد انطلق الجاحظ ن بداية طبيعية ومعقولة فى آن واحد ، وهى أن البخل الذى اهتم بتسجيل ظواهره ، هو ذلك النوع العادى ، الممكن وجوده فى الناس ، والمحتمل حدوثه فى كل وقت ، لا ذلك البخل الشاذ الذى يبدو فى ظواهر مفردة ومتفرقة ، غير محكوم باتجاه مطرد ، أو نزعة علمية. فهو يقول : "وإنما نحكى ما كان فى الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله"[1] .

لذلك نراه لا يتعرض لقوم فقراء ، يضيقون على أنفسهم وإخوانهم لأنهم لا يجدون ما يوسعون به عليهم فيقول : "وقد عاب ناس أهل المازح والمدبر بأمور .. وأهل المازح لا يعرفون بالبخل ،

(١) البخلاء ، ٥٨/٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.aluka

ولكنهم أسوأ الناس حالاً ، فتقديرهم على قدر عيشهم . وإنما نحكى عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر ، وبين خصب البلاد وعيش أهل الجدب . فأما من يضيق على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق فليس سبيله سبيل القوم"[1] .

فإذا ما تدرجنا مع الجاحظ من هذه البداية الطبيعية ، أمكننا أن نحصر عدة مظاهر أو أنماط للبخل ، وجدنا من المناسب تصنيفها على الوجه التالى :

- البخل على النفس .
- البخل على الأمهات .
- البخل فى الحياة الزوجية .
- البخل على الأبناء .
- البخل على الخدم .
- البخل على الأقارب .
- البخل على الأصحاب .
- البخل فى مجال المعاملات .
- البخل فى السلوك .

(١) نفس المصدر ، ٤٣/٢ .

١- البخل على النفس :

قال الجاحظ حدثنى محمد بن حسان ، قال : أخبرنى زكريا القطان ، قال : كان للغزال قطعة أرض قدام حانوتى ، فأكرى (أجّر) نصفها من سماك، يسقط عنه ما استطاع من مؤنة الكراء (الأجرة) وكان الغزال أعجوبة فى البخل !

وكان يجىء من منزلة ومعه رغيف فى كمه (جيبه) فكان أكثر دهره يأكله بلا أدم (غموس) فإذا أعيا عليه الأمر ، أخذ من ساكنه جوافة (بضم الجيم : واحدة من سردين ردىء) بحبة ($\frac{1}{16}$ من الدرهم) وأثبت عليها فلسًا ($\frac{1}{96}$ من الدرهم) فى حسابه .

فإذا أراد أن يتغدى أخذ السردينة . فمسحها على وجه الرغيف، ثم عض عليه ، وربما فتح بطن السردينة ، فقضم جنبها وبطنها باللقمة بعد اللقمة فإذا خاف أن يمزقها ذلك ، ويذهب ببطنها طلب من السماك شيئًا من ملح السمك . فحشا جوفها لينفخها ، وليوهم أن هذا هو ملحها الذى ملحت به من قبل ، ولربما غلبته شهوته فكدم طرف أنفها ، وأخذ من طرف الأرنبة ما يسيغ به لقمته ، وكان ذلك منه لا يكون إلا فى آخر لقمة ليطيب فمه بها ، ثم يضعها فى ناحية .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فإذا اشترى من امرأة غزلاً ، أدخل تلك السردينة فى ثمن الغزل ، من طريق إدخال العروض ، وحسبها عليها بفلس ، فيسترجع رأس المال ، ويفضل الأدم!! (١)

ومن الواضح أن القصة لا تحتاج إلى تعليق . غير أنه من الممكن أن نتوقف قليلاً أمام ما ورد فيها من مظاهر البخل التى تتصل بالسلوك ، وتستتبع عددًا آخر من الأخلاق الرديئة كالظلم ، والاستغلال ، والتحايل .

فالغزال **أولاً** يؤجر قطعة أرض مستأجرة له من الباطن – كما يشيع فى عصرنا الحاضر – حتى يسقط قدرًا من أجرتها عليه .

وثانيًا : يستغل مركزه كصاحب عقار ، فيظلم البائع بأن يأخذ منه ما يساوى حبة بفلس ، وليته يدفع الثمن فى الحال وإنما يجعله من أجرة لأرض ، ثم هو لا يلبث أن يستمنح السماك – دون مقابل – قدرًا من الملح ليصلح به ما أفسده ، وأخيرًا ينتهز حاجة امرأة فقيرة تبيعه غزلها ، فيضطرها لقبول السمكة – فى حالتها المتهرئة – من ثمن الغزل ، فى صفقة يحصل منها فى الحال على ما اشتراه بالآجل !

فإذا عدنا إلى ذلك التصوير السينمائى الرائع للغزال وهو يتعامل مع السمكة فى نهم وحرص ، فى إقدام وشفقة ، وجدنا أنفسنا

---

(١) البخلاء ، ٣٩/٢ ، ٤٠ .

نضحك كثيرًا ، ولكنه الضحك الذى يولد فينا الاشمئزاز من أمثاله ، ويستثير من أعماقنا الكراهية لهم.

ونموذج آخر : يقدمه الجاحظ عن صديقه أحمد اليزيدى الذى توفى أبوه عن ثروة طائلة ، فاقتسمها هو وأخوه قبل دفنه . يروى الجاحظ .

قلت له – وقد ورث هذا المال كله – : "ما أبطأ بك الليلة ؟ قال : لا ، والله ، إلا أنى تعشيت البارحة فى البيت". فقلت لأصحابنا: لولا أنه بعيد العهد بالأكل فى بيته ، وأن ذلك غريب منه ، لما احتاج إلى هذا الاستثناء ، وإلى هذه الشريطة . وأين يتعشى الناس إلا فى منازلهم ؟! وإنما يقول الرجل عند مثل هذا السؤال : لا ، والله ، إلا أن فلانًا حبسنى ! ولا والله أن فلانا عزم على ! فأما أن يستثنى ويشترط فهذا ما لا يكون إلا على ما ذكرناه"(١) .

ثم يعلق الجاحظ قائلاً : "ولا تقولوا الآن : قد ، والله ، أساء أبو عثمان إلى صديقه . ومن كانت هذه صفته ، وهذا مذهبه فغير مأمون على جليسه .. اعلموا أنى لم ألتمس بهذه الأحاديث عنه إلا موافقته ، وطلب رضاه ومحبته ، ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسًا من قبله ، وكمينًا من كمائنه ، وذلك أن أحب الأصحاب إليه : أبلغهم قولاً فى إياس الناس مما قبله ، وأجودهم حسمًا لأسباب الطمع فى ماله .

---

(١) نفس المصدر ، ٧٨/١ ، ٧٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

على أنى إن أحسنت بجهدى ، فسيجعل شكرى موقوفًا . وإن جاوز كتابى هذا حدود العراق شكر ، وإلا أمسك. إن شهرته بالقبيح عن نفسه فى هذا الإقليم قد أغنته عن التنويه والتنبيه على مذهبه" [1] .

٢-البخل على الأمهات :

قد لا نعثر فى كتاب البخلاء على نماذج من البخل على الآباء، وإنما نلتقى فقط بنماذج البخل على الأمهات . فهل يمكن تفسير ذلك بأن الجاحظ – وقد أدرك أن ارتباط الإنسان بأمه أقوى وأشد من ارتباطه بأبيه – اكتفى بذكر البخل على الأمهات ، ليشمل بالضرورة البخل على الآباء . إذ لا يتصور أن يبخل الإنسان على أمه ثم يكون أكثر تسامحًا مع أبيه !

كتب الجاحظ : حدثتنى امرأة تعرف الأمور ، قالت : كان فى الحى مأتم اجتمع فيه عجائز من عجائز الحى : فلما رأين أن أهل الميت قد أقمن المناحة ، اعتزلن وتحدثن ، فبينما هن فى الحديث ، إذ ذكرن بر الأبناء بالأمهات ، وإنفاقهم عليهن . وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها – هذا وأم فيلويه (تنطق مثل سيبويه) ساكتة . وكانت امرأة صالحة ، وابنها يظهر النسك، ويدين بالبخل ، وله حانوت فى مقبرة بنى حصن ، يبيع فيه الأسقاط .

فأقبلت على أم فيلويه ، قلت لها ، مالك لا تتحدثين معنا عن ابنك كما يتحدثن ؟ وكيف صنع فيلويه فيما بينك وبينه ؟

---

(١) البخلاء ، ٨٢/١ ، ٨٣ .

قالت : كان يجرى على فى كل أضحى درهمًا . ثم أضافت : وقد قطعه أيضًا ! قلت : وما كان يجرى إلا درهما ؟ قال : ما كان يجرى على إلا ذلك ، ولقد ربما أدخل أضحى فى أضحى ! فقلت : يا أم فيلويه ، وكيف يدخل أضحى فى أضحى ؟ قد يقول الناس : إن فلانا أدخل شهرًا فى شهر ، ويومًا فى يوم ، فأما أضحى فى أضحى فهذا شىء لا يشركه فيه أحد[1] .

فإذا تأملنا وصف فيلويه بأنه كان ممن "يظهر النسك" أمكننا أن ندرك بعدًا آخر للقصة ، وهو أن محاولة الاكتساء بالمظهر الدينى وحده لا يمكن أن تخدع المجتمع . كما أن قيمة الإنسان الحقيقية إنما تكمن فى مقدار عطائه للآخرين ، وأى جدوى منه إن لم يفض هذا العطاء على أقرب الناس إليه ؟!

ونموذج آخر : يقول الجاحظ : حدثنى المكى قال : كنت يومًا عند العنبرى ، إذ جاءت جارية أمه ، ومعها كوز فارغ ، فقالت : أمك تقول : بلغنى أن عندك مزملة (جرة يوضع حولها ثوب مبتل ليبردها) ويومنا يوم حار ، فابعث إلى بشربة منها فى هذا الكوز .

قال : كذبت . أمى أعقل من أن تبعث بكوز فارغ ، وترده ملأن . اذهبى فاملئيه من حبكم (بضم الحاء وهو الزير) وفرغيه فى حبنا ، ثم املئيه من ماء مزملتنا ، حتى يكون شىء بشىء[2] .

---

(١) البخلاء ٣٠/٢ ، ٣١ والمقصود بالأضحى ، عيد الأضحى !

(٢) نفس المصدر ٢٧/٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٣-البخل فى الحياة الزوجية :

من الحقائق الاجتماعية التى أصبحت مقررة الآن : أن كرم الرجل مع المرأة يعد أحد العناصر الأساسية فى حسن علاقته بها ، وأنه على قدر ما يبذل لها – أو حتى ما يبدى لها من استعداد لذلك – يستمر ودها له ، ويتجدد .

أما أبو القماقم ، فقد ذهب لخطبة امرأة ، وأثناء الحديث مع أهلها عن ترتيبات الزواج ، راح يسأل عن مالها ، ويحصيه ، ويعيد السؤال ، ويدقق فيه.

فقالوا له : قد أخبرناك بمالها ، فأنت أى شىء مالك ؟ قال : وما سؤالكم عن مالى ؟ الذى لها يكفينى ويكفيها[1] .

وهكذا يضعنا الجاحظ أمام مظهر سيئ من مظاهر البخل ، يمكن أن يؤدى إلى كثير من ضروب الفشل فى هذا المجال .

ومظهر آخر : يرويه الجاحظ من واقع الحياة الزوجية نفسها . فيقول : زعموا أن رجلاً قد بلغ به البخل غايته ، وصار إمامًا ، وأنه كان إذا صار فى يده الدرهم يخاطبه ويناجيه .. وأنه لم يدخل فى كيسه درهمًا قط فأخرجه . وأن أهله ألحوا عليه فى شهوة (أى طعام يشتهونه) . وأكثروا عليه فى إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك . ثم حمل درهمًا فقط ، فبينما هو ذاهب ، إذ رأى حواء (حاويًا) قد أرسل

(١) نفس المصدر ، ٤٨/٢ .

على نفسه أفعى لدرهم يأخذه . فقال فى نفسه : أتلف شيئًا ، تبذل فيه النفس ، بأكلة أو بشربة ، والله ما هذا إلا موعظة لى من الله ، فرجع إلى أهله ، ورد الدرهم إلى كيسه ، فكان أهله فى بلاء . وكانوا يتمنون موته ، والخلاص منه بالموت أو الحياة!! [1]

٤-البخل على الأبناء :

إذا كان القرآن الكريم قد وصف الأبناء بأنهم "زينة الحياة" وصورهم الشاعر العربى فى رقة وحنو ، قائلاً [2] :

وإنمـــــا أولادنـــــا بيننـــــا

أكبادنـــــا تمـــــشى علـــــى الأرض

لو هبـــت الـــريح علـــى بعـــضهم

لامتنعـــت عينـــى عـــن الغمـــض

فإن الجاحظ يروى عن أحمد اليزيدى عبارة تبين مدى التأفف الذى يشعر به من النفقة على أبنائه . ومن العجيب أن خيال اليزيدى الخصب ، والذى يتنافى مع خلقه الجديب ، يصعد به إلى ما فوق عالم الأرض ، فيقول : "لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله –

(١) البخلاء ٥٧/٢ .

(٢) الشاعر هو حطان بن المعلى .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلا أنهم لم يبتلهم بالنفقة ، ولا يقول العيال : هات ، لعرفتم حالهم ، ومنزلتهم"[1] .

أما الثورى ، فيقدم لأبنائه وصية نادرة ، يحثهم فيها على تناول ما لا يمكن أن يكون طعامًا على الإطلاق . ويحاول فى الوقت نفسه ، أن يرشدهم إلى ما فى ذلك من منافع صحية ، ونفسية ، ومالية ، فيقول : "لا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه ، وخذوا حلوقكم بتسويغه ، فإن النوى يعقد الشحم فى البطن ، ويدفئ الكليتين بذلك الشحم .. والله لو حملتم أنفسكم على البذر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت (نبات للحيوانات) لوجدتموها سريعة القبول .

فإنما بقيت عليكم عقبة واحدة : لو رغبتم فى الدفء لالتمستم شحم (أى تأكلون ما يأتى بالشحم وهو النوى) وكيف لا تطلبون شيئا يكم عن دخان الوقود وعن شناعة العكر ، وعن ثقل الغرم ، شحم يفرح القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه"[2] .

وهناك صنف من البخلاء ، ظالما حمل عليهم الجاحظ بعنف وهم الذين يجمعون إلى البخل : الحديث عن المكارم ، والافتخار بها

(١) البخلاء ، ٨٣/١ .

(٢) البخلاء ٦٥/٢ .

أمام الناس[1] ومن أمثلة هؤلاء أبو يعقوب الذقنان ، الذى كان يقول : ما فاتنى اللحم مذ ملكت المال .

ولكن الجاحظ يتتبعه بدقة ، ليبين لنا المعنى الحقيقى وراء هذه العبارة الزائفة فيقول : إنه إذا كان يوم الجمعة ، اشترى لحم بقر بدرهم ، واشترى بصلاً بدانق (سدس درهم) وباذنجانًا بدانق، وقرعة بدانق، فإذا كان أيام الجزر ، فجزر بدانق ، وطبخه كله .

فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشىء من رأس القدر ، وما ينقطع فى القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم . فإذا كان يوم السبت ثردوا خبزهم فى المرق . فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل . فإذا كان يوم الاثنين أكلوا الباذنجان .. فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم – فلهذا كان يقول : "ما فاتنى اللحم مذ ملكت المال"[2] .

٥-البخل على الخدم :

كتب الجاحظ "أخبرنى خباز لبعض أصحابنا أنه جلده على إنضاج الخبز ، وأنه قال له : أنضج خبزى الذى يوضع بين يدى ، واجعل خبز من يأكل معى على مقدار بين المقدارين ، وأما خبز العيال والضيف فلا تقربنه من النار إلا بقدر ما يصير العجين رغيفًا،

(١) من ذلك ما رواه الجاحظ فى الجزء الأول من البخلاء ص ١٣٢ : قيل لرجل من العرب : قد نزلت بجميع القبائل ، فكيف رأيت قبيلة خزاعة ؟ قال : جوع ، وأحاديث !!

(٢) البخلاء ٤١/٢ ، ٤٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبقدر ما يتماسك فقط ، فكلفه العويص، فلما أعجزه جلده مائة جلدة"[1] .

وإذا كان التقتير على الخباز هنا غير ظاهر بوضوح ، فإنه يظهر تمامًا لدى الثورى ، الذى كان يملك خمسمائة جريب (حوالى مائة فدان) من أجود الأراضى وعندما أصيب عياله وخادمه بالحمى ، ولم يقدروا مع شدة الحمى على أكل الخبز ، فرح كثيرًا ، لأنهم وفروا مقدار الدقيق الذى كان مقررًا لهم فى أيام المرض . ثم يعلق الجاحظ قائلاً : "فكان لا يبالى أن يحم (يصاب بالحمى) هو وأهله ، أبدًا ، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق" [2].

أما خالد بن صفوان ، فقد جاءه خادم له بطبق خوخ – إما هدية ، أو جاء به فى البستان – فلما وضعه بين يديه ، قال : "لولا أنى أعلم أنك قد أكلت منه لأطعمتك واحدة"[3] .

فهو أولاً : قد افترض أنه أكل من الخوخ ، وهذا ناشئ من سوء ظن البخيل دائمًا بالناس . وثانيًا : أظهر شحه الشديد بمقدار ما عرض من هبة : لا أكثر من خوخة واحدة ، وأخيرًا ، ما الذى حصل عليه الخادم المسكين بالفعل ؟

---

(١) البخلاء ١٠٣/١ ، ١٠٤ .

(٢) نفس المصدر ٩/٢ .

(٣) نفس المصدر ٨١/٢ .

أليس سوء ظن سيده به ، إلى جانب تقتيره عليه ، وواحدة منهما تكفى لأن تنزع من قلبه الطاعة ، وتزرع فيه الكراهية للسيد وماله ، وتجعله فى حال من ينتظر الفرصة لتدمير ما يمكنه تدميره، أو للخلاص بنفسه من هذا الجحيم !

٦-البخل على الأقارب :

نخرج من دائرة البخل على النفس ، والبخل على أقرب الناس إلى الإنسان وأهل منزله ، وخادمه – إلى دائرة أوسع هى دائرة الأقارب ، التى من المفترض أن يزدهر فيها الحب والمودة ، وأن يتوصل إلى ذلك بالمنح والهدايا، لنجد المكى يحدثنا عن حادثة واحدة بسيطة جرت بينه – وهو فتى – وبين عم أبيه الواسع الثراء ، وكان لها أعمق الأثر فى حياته كلها ، وفى علاقته مع هذا الرجل بصفة خاصة .

يقول المكى : وكان يقربنى وأنا صبى إلى أن بلغت ، ولم يهب لى مع ذلك التقريب شيئًا قط . وكان قد جاوز فى ذلك حد البخلاء .

فدخلت عليه يومًا ، وإذا قدامه قطع دار صينى (من الأفاويه ، يشبه القرفة) لا تساوى قيراطًا . فلما نال حاجته منها ، مددت يدى لآخذ منها قطعة ، فلما نظر إلى قبضت يدى . فقال : لا تنقبض ، وانبسط ، واسترسل ، وليحسن ظنك ، فإن حالك عندى على ما تحب.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فخذه كله ، فهو لك بحذافيره ، وهو لك جميعًا ، نفسى بذلك سخية ، والله يعلم أنى مسرور بما وصل إليك من الخير .

فتركته بين يديه ، وقمت من عنده ، وجعلت وجهى كما أنا إلى العراق، فما رأيته وما رآنى حتى مات[1] .

٧-البخل على الأصدقاء :

يلاحظ هنا أن مظاهر البخل التى أوردها الجاحظ إنما تبرز بصفة خاصة فى مجال الطعام ، وحول موائده . وقد يكون هذا طبيعيًا . فقد كان العصر الذى كتب فيه الجاحظ عصر ازدهار عمرانى واقتصادى . وفى مثل هذا الازدهار غالبًا ما تنشأ طبقة ، أو طبقات غنية ، تقتنى الدور الواسعة وتحيطها بالبساتين ، ويتبادل أفرادها المجاملات الاجتماعية ، فتقام الولائم ، ويدعى إليها الأصدقاء والأحبة ، فلا يلبث أن تتولد لديهم المقارنة بين وليمة فلان ووليمة غيره .. وتنتقل الهمسات فوق الشفاه عن إسراف أحدهم وتقتير الآخر. وفى مثل هذا الجو تغدو الملاحظات العابرة "تكتة" يتناقلها الناس ، ويضيفون إليها من ظرفهم وتعليقاتهم ما يجعلها حكاية تروى. ومن أمثال هذه الحكايات أمكن للجاحظ أن يجمع الكثير ، وأن يساهم فيها أيضًا بالكثير .

(١) البخلاء ٤٣/٢ ، ٤٤ .

قال الجاحظ : وصديق كنا قد ابتلينا بمؤاكلته . وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام ، وهجس ذلك فى نفسه ، وتوهم أنا قد تذاكرنا فى أمره ، فكان يتزيد فى تكثير الطعام ، وفى إظهار الحرص على أن يؤكل ، حتى قال : "من رفع يده من القوم غرمناه دينارًا .. فترى بغضه أن غرم دينارًا"[1] .

فهذه قصة من وضع الجاحظ نفسه ، نتيجة تجربة شخصية له، وملاحظة خاصة منه . وهى تظهر أن البخيل ، مهما حاول التظاهر بالكرم والسخاء ، فلا يمكن أن يخفى نزعته المتأصلة . وأن هذه النزعة لا تلبث أن تعلن عن نفسها فى قول ، أو فى عمل ، أو حتى فى لفته عابرة ! وقد التقط الجاحظ عبارة الرجل المشجعة لأصدقائه على تناول المزيد من الطعام ، ليكشف بها إحساسه الداخلى بحب المال فى حرص وهوس .

ثم يحدث الجاحظ عن صديق آخر ، كان ضخم البدن ، كثير العلم ، ذا مال وجاه وسلطان .. فيقول : "لقد رأيته مرة ، وقد تناول دجاجة فشقها نصفين، فألقى نصفها إلى الذى عن يمينه ، ونصفها الثانى إلى الذى عن شماله ، ثم قال : يا غلام جئنى بواحدة رخصة (طرية) فإن هذه كانت عضلة جدًا (غليظة العضل يابسة) فحسبت أن

(١) البخلاء ١٠٣/١ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah

أقل ما عند الرجلين ألا يعودا إلى مائدته أبدًا ، فوجدتهما قد فخرا على بما حباهما به من ذلك دوني"[1] .

ومن الطبيعى أن يستدعى البخل فى مجال الطعام الحديث عن آداب الموائد : كان للجاحظ صديق . تغدى يومًا عند الكندى (الفيلسوف العربى الشهير) ، وكان من البخلاء . فدخل عليهما جار الكندى ، فلم يعرض عليه الغداء . فاستحيا الضيف ، وعزم عليه قائلاً :

– لو أصبت معنا مما نأكل .

– قال : قد ، والله فعلت .

– قال الكندى : ما بعد الله شيء !

ويعلق الضيف لأبى عثمان الجاحظ على هذه الحادثة ، فيقول: فكتفه ، والله ، يا أبا عثمان ، كتفًا لا يستطيع معه قبضًا ولا بسطًا . وتركه ، ولو أكل لشهد عليه بالكفر ، ولكان عنده قد جعل مع الله إلها آخر[2] .

ومما يرتبط بالبخل فى مجال الطعام ، الظهور بالنهم على موائد الآخرين ، وعلى الأسوارى أشهر نموذج على ذلك ، فقد أكل يومًا على مائدة أمير ، قدم إلى المدعوين "سمكة عجيبة ، فائقة

(١) نفس المصدر ١٠٤/١ ، ١٠٥ .
(٢) البخلاء ١٤٤/١ .

السمن، فحاط بطنها لحظه ، فإذا هو يكتنز شحمًا ، وكان قد غص بلقمة ، وعندما فرغ من الشراب ، رأى كل من حوله قد غرف من بطنها بلقمته ، فلما خاف الإخفاق ، وأشفق من الفوت ، وكان أقربهم للأمير ، استلب من يده اللقمة ، بأسرع من خطفة البازى، وانحدار العقاب ، من غير أن يكون أكل عنده من قبل .

وقد عوتب فى ذلك . فقيل له : ويحك استلبت لقمة الأمير من يده ، وقد رفعها إليه ، وفتح لها فاه ، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة ؟

قال : لم يكن الأمر كذلك . وكذب من قال ذلك . ولكنا أهوينا أيدينا معًا، فوقعت يدى فى مقدم الشحمة ، ووقعت يده فى مؤخر الشحمة معًا ، والشحم ملتبس بالأمعاء ، فلما رفعنا أيدينا معًا ، كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شيء كان فى لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتى لاتصال الجنس بالجنس والجوهر بالجوهر"[1] .

وعلى الرغم من أنه حمل رده الكثير من الظرف ، والقليل من الثقافة فإنه سيظل يعبر عن سلوك اجتماعى ردىء ، مصحوب بشره مقيت ، وأثرة بغيضة .

(١) نفس المصدر ١٢٥/١ ، ١٢٦ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم إن البخيل – فى بعض جوانبه – إنسان مغلق على نفسه لا يحب الاحتكاك بالمجتمع إلا بقدر ما يفيد منه . فهو دائمًا يعيش على هامش الحياة ، منفردًا بأنانيته ، وقد يبدو ذلك فى مشاهدة الجاحظ أهل خراسان ، فقد قابل جماعة منهم ، حوالى خمسين رجلاً فى طريق الكوفة ، وهم حجاج . يقول : "فلم أر بين جميع الخمسين : رجلين يأكلان معًا ، وهم فى ذلك متقاربون ويحدث بعضهم بعضًا ، وهذا الذى رأيته من غريب ما يتفق للناس"(١) .

٨-البخل فى المعاملات :

يكفى أن نختار فى هذا المجال ثلاثة نماذج مختلفة ، يتحدث أولها عن السلف وتقاضى الديون .. ويرويه الجاحظ عن أبى سعيد المدائنى – أحد أئمة البخل فى البصرة – وكان من كبار الأغنياء ومياسيرهم ، شديد العقل ، حاضر الحجة . وكانت له حلقة يقعد فيها أصحاب الغنية والبخلاء ، يتذاكرون التدبير وطرق الإصلاح .

وذات يوم ، قالوا له يلومونه : "إننا نراك تذهب إلى ضاحية بعيدة لكى تتقاضى خمسة دراهم على مدين . وفى هذا تفريط بالكثير من أجل شىء تافه . والأسباب لذلك هى أولا : أن بدنك وسنك لا يعينانك على كثرة المشى ، وربما اعتللت فتدع التقاضى الكثير بسبب خمسة دراهم . وثانيًا : أن كثرة مشيك سوف تجعلك تشعر بالجوع ، فتضطر إلى تناوله العشاء ، إن كنت ممن لا يتعشى ، أو إلى تناول

(١) نفس المصدر ٤٧/١ .

المزيد منه إن كنت ممن يتعشى . وفى كلا الحالين ستزيد الكلفة عن خمسة دراهم . وثالثًا : أنك سوف تمر بالسوق ، وربما علق بثوبك وسخ أو انخراق ، كما أن نعلك لابد أن يبلى .. فيضيع أكثر من خمسة دراهم .

وإذا كنا على يقين من علمك كل هذه الأمور ، فنحن فى حيرة من إلحاحك على هذا المدين من أجل هذا المبلغ القليل ؟!

وقد أجابهم المدائنى بالتفصيل ومن العجيب أن تتضمن إجابته تفسيرًا معقولاً – من وجهة نظره على الأقل – لكل تصرفاته .

– فهو أولاً يرى أن كثرة المشى لا تضر الصحة فى مثل سنه ، بل على العكس تفيده وتقويه . ويستشهد لهم بالحمالين وأمثالهم ، حيث تبدو صحتهم أقوى من الأغنياء الكسالى .

– أما كثرة تناول الطعام فى العشاء ، فقد ضمن لهم عدم إتيانه ؛ لأنه راض نفسه على الصعب ، وعودها الحرمان .

– وأما اتساخ الثوب أو خرقه نتيجة المرور بالسوق ، فقد تجنبهما بأن يمر فيه قبل أن يطرقه أحد ، وعند العودة يختار طريقًا آخر ، ربما كان أطول وأشق، ولكنه أسلم على أية حال .

– وأما النعل ، والخوف عليه من البلى ، فقد طمأنهم إلى أنه يحمله تحت إبطه حتى إذا قرب من دار المدين لبسه ، ثم عاد فخلعه فور مغادرتها .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

– لكن هناك فائدة عظمى لم ينتبه لها اللائمون ، وهى أن القصد من وراء مطالبة مدين بخمسة دراهم فى مثل هذا المكان النائى – يكمن فى إشاعة القول عنه بأنه رجل حازم لا يترك حقوقه تضيع بين الناس . يقول المدائنى : "فإذا علم القريب الدار ، ومن لى عليه ألوف الدنانير شدة مطالبتى للبعيد الدار، ومن ليس لى عليه إلا القليل ، أتى بحقى ، ولم يطمع نفسه من مالى"[1] .

ويتحدث النموذج الثانى عن بخل أصحاب المنازل ، وجشعهم، ومحاولتهم استغلال المستأجرين بشتى الطرق ، وصنوف الحيل .

قال معبد للجاحظ نزلنا دار الكندى أكثر من سنة : نروج له الكراء (نقوم بالدعاية لممتلكاته حتى يقبل عليها المستأجرون) ونقضى له الحوائج ، ونفى له بالشرط .

فقال له الجاحظ : قد فهمت ترويج الكراء ، وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟

قال : فى شرطه على السكان : "أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة، ونشوار العلوفة (ما تبقى من علف الدابة) ، وألا يخرجوا عظمًا ، ولا يخرجوا كساحة (كناسة) وأن يكون له نوى التمر ، وقشور الرمان ، والغرفة من كل قدر تطبخ : للحبلى فى بيته .. وكان فى ذلك يتنزل عليهم"[2] .

(١) انظر القصة بالتفصيل فى الجزء الثانى من البخلاء ، ص٦٦-٦٩ .

(٢) البخلاء ، ١٤٥/١ .

أما النموذج الثالث فيصور بخل صاحب العمل مع العامل . وعلينا أن نتأمله بدقة ، لنقف من صورته الكاريكاتيرية على اهتمام الجاحظ بالعلاقة العادلة التى ينبغى أن تقوم بين هذين الطرفين ، والتى يمكن للبخل أن يقضى عليها .

قال أبو الحسن المدائنى ": كان بالمدائن بائع تمر ، وكان بخيلاً، وكان غلامه إذا دخل الحانوت ، يحتال على سرقة التمر لأكله، فربما احتبس (دخل الحانوت فغاب فيه) فاتهمه بأكل التمر ، فسأله يومًا فأنكر ، فدعا بقطنة بيضاء، ثم قال : امضغها ، فمضغها ، فلما أخرجها وجد فيها حلاوة وصفرة . قال : هذا دأبك كل يوم ، وأنا لا أعلم ، اخرج من دارى"[1] .

ويمكن الإشارة إلى أن الغلام – مهما أكل من التمر – فما المقدار الذى سيخسره صاحب الحانوت ؟ ولا داعى لأن نؤكد أن الذى يدفع الغلام لسرقة التمر إنما هو الجوع . ولو كانت له فى أجره كفاية لما أقدم على مثل هذا الفعل !

٩-البخل فى مجال السلوك :

قال المكى : دخل إسماعيل بن غزوان إلى بعض المساجد يصلى ، فوجد الصف تامًا ، فلم يستطع أن يقوم وحده ، فجذب ثوب شيخ فى الصف ليتأخر فيقوم معه فلما تأخر الشيخ ، ورأى الفرَج ،

(١) البخلاء ٥٩/٢ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تقدم فقام فى موضع الشيخ، وترك الشيخ قائمًا خلفه ، ينظر فى قفاه ويدعو الله عليه"[١] .

هكذا أورد الجاحظ هذه القصة فى البخلاء . ومع الأسف لم يجد ناشرا الكتاب فيها ما يدل على أى مظهر من مظاهر البخل . فكتبا فى الهامش[٢] : "ليست هذه الحكاية من بابة هذا الكتاب ، كما هو ظاهر" .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان سرورى عظيمًا بالعثور على هذه القصة فى كتاب البخلاء ؛ لأنها تكشف عن جانب هام من جوانب البخل الغامضة ، الخفية التى نبه ابن المقفع من قبل إلى أنها كثيرة ، وذكر من أمثلتها محاولة الإنسان سبق صاحبه فى حديث يعرفه ، لكى يظهر للآخرين معرفته به[٣] .

كما أنها تفتح أمامنا بابًا واسعًا للمقارنة الحية مع تصرفات الناس فى مجتمعنا ، ولا شك فى أنها تضع أيدينا على أحد الدوافع لهذه التصرفات . ومن الواضح أن معرفة الدافع من أهم ما يساعد على التحكم فيما ينتج عنه من سلوك أو على الأقل التخفيف من حدته.

(١) نفس المصدر ١٥٦/٢ – ٤١ هامش رقم ٨ من الصفحة المذكورة .

(٢) البخلاء ١٥٦/٢ – هامش رقم ٨ .

(٣) انظر نهاية (آداب الاستماع) عند ابن المقفع .

١٠-انعكاس البخل على المظهر الخارجى :

سبق أن النزعة المتأصلة لابد أن تعلن عن نفسها فى قول أو فعل ، أو حتى فى لفتة عابرة . ومن الخصائص النفسية التى تميز البخلاء : الهم الدائم ، والحزن العميق .. وكلاهما ناشئ عن الحرص على أن يظل ما فى حوزة البخيل مصونًا ، والتوقع لما قد يطرأ عليه من عوامل الإنفاق أو التضييع .

ثم إن البخيل محاصر بالخوف ، مشغول أبدًا بالحساب الدقيق لمطالبه أو أشيائه – وقد مر من النماذج ما يشير إلى أنه غالبًا ما يهمل رغبات نفسه فى سبيل الإبقاء على ما هو خارج عنه لا محالة ، ومخلفه إلى ورثة لا يحملون نفس خصائصه بالتأكيد .

ولا شك فى أن هذه العوامل النفسية المختلفة تؤثر على المظهر الخارجى ، وتنطبع عليه ، فما أبعد البخيل عن السرور أو الانطلاق ، وما أقربه دائمًا من الكآبة والتقطيب !

حين عوتب سليمان الكثرى، فى قلة الضحك ، وشدة القطوب قال : "إن الذى يمنعنى من الضحك أن الإنسان أقرب ما يمكن من البذل إذا ضحك ، وطابت نفسه" .

وهذا صحيح فهو يضحى بسعادته من أجل الاحتفاظ بمظهر شحه . ويخشى – إن هو ضحك – أن تخرج النتائج من مقدماتها ، فتسخو يده ، وتطيب بالعطاء نفسه .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فليكتم الضحكة إذن ، وليقتل على شفته البسمة ، وليمض منفردًا بنفسه وماله على هامش الحياة ، فما أجدرها ألا تعبأ به : قادمًا أو راحلاً .

* *

أدب العالم والمتعلم عند الماوردي

نشأ أبو الحسن الماوردي بالبصرة، ثم انتقل إلى بغداد، وشغل منصب القضاء في عدة أماكن، حيث سار فيه سيرة عادلة، وكان مشهورًا بالورع وصدق التدين، وتوفي سنة ٤٥٠ هجرية.

كتب الماوردي في الفقه، ويعد كتابه "الحاوي" من أهم كتب المذهب الشافعي، وقد قيل فيه: إنه لم يطالعه أحد إلا شهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب.

كما كتب في السياسة، وأشهر كتبه في هذا المجال كتاب "الأحكام السلطانية"[١]، بالإضافة إلى "قانون الوزراء" و"سياسة الملك" وهي كتب تضعه بجدارة بين كتاب الفكر السياسي في الإسلام، إن لم تضعه في مقدمتهم[٢].

وإذا كان الماوردي قد قصد بجهده السابق كلاً من طائفتي الحكام والقضاة، فإنه قد توجه في كتابه الأخلاقي "أدب الدنيا والدين" إلى الشخص العادي[٣].

---

(١) طبع بمطبعة الوطن في مصر سنة ١٢٩٨هـ، وهو الكتاب الذي تأثر به أبو بكر الطرطوشي (الأندلسي ت ٥٢٠هـ) في كتابه "سراج الملوك" ويقال إن ابن خلدون فلسف أقوال سراج الملوك في مقدمته الشهيرة، انظر: "ظهر الإسلام" لأحمد أمين ٢٦٨/٣، ٢٦٩.

(٢) قدمت رسالة ماجستير بجامعة القاهرة عن "الفكرة السياسية عند الماوردي" مع تحقيق مخطوطة: "قوانين الوزراء".

(٣) الطبعة التي سندرسها هنا هي الطبعة التاسعة سنة ١٩١٧م، وانظر "ترجمة الماوردي" التي جمعها أحمد إبراهيم في المقدمة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومع ذلك، فقد أبرز هذا الكتاب اسم الماوردي في مجال الإصلاح الأخلاقي، ونفذ ببساطة إلى معظم البيوت الإسلامية على شتى العصور، وقلما تجد أحدًا من أبناء الجيل الماضي ــ جيل النصف الأول من القرن العشرين ــ في مصر إلا وقد مر على هذا الكتاب: إما في دروس المطالعة الأميرية أو في مكتبة الأسرة الخاصة.

كتاب أدب الدنيا والدين:

يقع الكتاب في حوال ثلاثمائة وستين صفحة، وهو يبدأ بمقدمة يبين فيها الماوردي موضوعه وأهميته، فيقول:

"إن شرف المطلوب بشرف نتائجه، وعظم خطره بعظم منافعه.

وبحسب منافعه تجب العناية به.

وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته".

ثم يقرر أن أعظم الأمور خطرًا، وأهمها نفعًا: ما استقام به أمر الدنيا والدين، وانتظم به صلاح الآخرة والأولى، فإنه باستقامة الدين تصح العبادة، وبصلاح الدنيا تتم السعادة"[1].

(١) أدب الدنيا والدين، ص١.

ويحدد الماوردي الهدف من تأليفه، قائلاً:"وقد توخيت بهذا الكتاب الإشارة إلى أدب الدنيا والدين، وتفصيل ما أجمل من أحوالهما".

أما منهجه فقد تحدث عنه بوضوح، فذكر أنه راوح بين أسلوبي الإيجاز والبسط، وجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الأدباء، مستشهدًا من القرآن، والسنة، ثم متبعًا ذلك بأمثال الحكماء، وآداب البلغاء، وأقوال الشعراء.

ويفسر الماوردي سبب هذا التنويع في الاستشهاد بأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة، وتسأم من الفن الواحد، وقد قال علي بن أبي طالب: "إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فأهدوا إليها طرائف الحكمة"، فكأن هذا الأسلوب يحب التنقل في المطلوب من مكان إلى مكان[1].

ويشير الماوردي إلى أن الإحاطة بموضوعات الأخلاق كلها تكاد تكون أمرًا مستحيلاً، فإن "الآداب ــ مع اختلافها بتنقل الأحوال وتغير العادات ــ لا يمكن استيعابها، ولا يقدر على حصرها وإنما يذكر كل إنسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه، واستحسن بالعرف من عادات دهره"[2].

(١) أدب الدنيا والدين، ص١، ٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٥٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه نقطة جديرة بالاعتبار، فالماوردي إذن يؤمن بأن لكل عصر آدابه كما أن الآثار الأخلاقية تعد – بوجه ما – مرآة ينعكس عليها واقع ذلك العصر بخيراته وشروره، كذلك فهي تكشف عن التطلعات الأخلاقية التي تتواثب في نفوس مصلحيه.

ومن ناحية أخرى، فإن الحاجة ستظل مستمرة إلى كل من الإصلاح الأخلاقي، والكتابة في الأخلاق، إذ لو أمكن لمؤلف أن يحصر الآداب جميعًا في كتاب "لكان الأول قد أغنى الثاني عنها، والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها"(١).

دور الكاتب الأخلاقي ومنهجه في البحث :

لا شك في أن أي كاتب في الأخلاق سوف يلتقي بمحصلة ضخمة من تراث السابقين عليه، وإذا كان من الضروري أن يستوعب هذا التراث ويهضمه، فإن هناك خمس مراحل – في نظر الماوردي – ينبغي أن يجتازها الكاتب في سبيل الوصول إلى هدفه.

ويمكن القول بدءًا بأن هذه المراحل تعد أسسًا رائدة في مناهج البحث عند مفكري الإسلام، وهي تبرز بوضوح اكتشافهم المنهج التجريبي المعتمد على الوقائع، واستخدامهم له، أما المراحل فهي:

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٣٥٣.

المرحلة الاولى: "أن يتعانى الكاتب حفظ الشارد، وجمع المفترق"(١)، وهذا ما يطلق عليه في مناهج البحث الحديثة "مرحلة الملاحظة والجمع" وفيها يجب على الباحث أن يقوم بعملية مسح شامل ودقيق لجوانب الظاهرة، موضوع البحث. ومن الواضح أن هذه العملية تتطلب منه بذل مجهود شاق في الاطلاع على شتى المصادر الأصلية والثانوية، السابقة والحية، لاستخراج كل العناصر التي تتصل بالظاهرة.

المرحلة الثانية: "أن يعرض الكاتب ما تقدم على حكم زمانه، وعادات وقته، فيثبت ما كان موافقا، وينفي ما كان مخالفًا"(٢)، وتشبه هذه المرحلة ما يطلق عليه في مناهج البحث: مرحلة التصنيف، التي تقوم على اختيار العناصر الهامة، واستبعاد ما لا يخدم الفكرة الرئيسية في البحث، ثم ترتيب ما يتبقى على أحد الأسس التي تختلف باختلاف الباحثين والموضوعات.

ويلاحظ أن الأساس الذي اختاره الماوردي لعملية التصنيف هو واقع العصر الذي يعيش فيه الكاتب الأخلاقي، ومراعاة قوانين التطور الاجتماعي، ولا شك في أن إدراك الماوردي لأهمية "الواقع" في الدراسات الأخلاقية ـــ أمر يستحق منا كل تقدير واهتمام؛ لأنه قد

(١) نفس المصدر، ص ٣٥٤.

(٢) نفس المصدر، ص٣٥٤.

أصبح من المقرر أن أية محاولة للإصلاح الأخلاقي تفرض على المجتمع من الخارج يكون مصيرها الفشل الأكيد.

المرحلة الثالثة: "أن يستمد الكاتب خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة، فإن أسعف بشيء فاز بدركه، وحظى بفضيلته"[1]، وليست هذه المرحلة سوى "مرحلة وضع الفروض" في المنهج الحديث، فالباحث لكي ينتقل من مرحلتي الملاحظة والتصنيف إلى مرحلة صياغة القانون – عليه أن يمر بتلك المرحلة الهامة والحيوية في مسيرة البحث، وهي التي يتدخل فيها الخيال العلمي للباحث في محاولة ملء ما قد يبدو من ثغرات بين العناصر التي قام بتصنيفها. وهو هنا بين أمرين: إما أن تتكشف له الحقيقة في ضوء ساطع، فتفسر له كل شيء، وإما ألا تتكشف على الإطلاق.

المرحلة الرابعة: وهي المرحلة التي تبدأ بها عملية التركيب، أي تركيب العناصر التي قام الباحث بتحليلها ووضع الفروض لها، فيما سبق، بصورة منطقية منظمة، يقول الماوردي: ثم يرتب الكاتب ذلك على أوائله ومقدماته، ويثبته على أصوله وقواعده، حسب ما يقتضيه الجنس، فإن لكل نوع من العلوم طريقة هي أوضح مسلكًا، وأسهل مأخذًا"[2]، ومن الواضح أن هذه المرحلة تعني إعادة التبويب والتقسيم بطريقة تنسجم مع كل موضوع، وتتمشى في الوقت نفسه مع

(١) أدب الدنيا والدين، ص٣٥٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٥٤.

النتيجة التي وصل إليها الباحث، ويلاحظ إدراك الماوردي لاختلاف طريقة التقسيم باختلاف العلوم.

المرحلة الخامسة: "أن يعبر الكاتب عن ذلك كله بما كان مألوفًا من كلام الوقت، وعرف أهله، فإن لأهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف، وعبارة تعرف، ليكون أوقع في النفوس، وأسبق إلى الأفهام"، وتلك هي "مرحلة الصياغة" والأساس الذي يضعه لها الماوردي في القرن الخامس الهجري هو نفسه الأساس الذي قرره العلماء في القرن التاسع عشر الميلادي: الوضوح والبعد عن التعقيد والالتواء، مع مراعاة العصر الذي يعيش فيه الكاتب، ويخاطب أهله دون تعمية أو إلغاز.

ننتقل بعد ذلك إلى التقسيم الذي وضعه الماوردي لكتابه "أدب الدنيا والدين" فقد جعله خمسة أبواب:

الباب الأول: في فضل العقل وذم الهوى.

الباب الثاني: في أدب العلم.

الباب الثالث: في أدب الدين.

الباب الرابع: في أدب الدنيا.

الباب الخامس: في أدب النفس.

والباب الثاني هو الذي يهمنا في هذه الدراسة. وينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أ- مقدمة في العلم.

ب- أدب المتعلم.

ج- أخلاق العالم.

أ - مقدمة في العلم:

يبدأ الماوردي فيبين أهمية العلم للإنسان عن طريق الإشارة إليه كقيمة عليا في حد ذاته، وكمنفعة شخصية لكل لمن اشتغل به، فيقول: "العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب"(١).

ثم يستشهد بقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢)،

وبما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: "أوحى الله إلى إبراهيم، عليه السلام : أني عليم أحب كل عليم".

ويقول مصعب بن الزبير لابنه "تعلم العلم، فإن لم يكن لك جمال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً".

ويقول الشاعر:

وإنّ امرءًا لم يحى بالعلم ميتْ فليس له حتى النشور نشور

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢١.

(٢) سورة الزمر، الآية ٩.

وبما ورد عن الحكيم الفارسي، بزرجمهر حين سئل: العلم أفضل أم المال؟ فقال : بل العلم، قيل: فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء ؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم(١).

ويمكن أن يلاحظ فيما سبق طريقة الماوردي في الكتابة: حيث يبدأ بتقرير قضية معينة، ثم يستشهد عليها من القرآن، والسنة، وأقوال البلغاء والحكماء والشعراء.

وبعد أن بين الماوردي أهمية العلم، بصفة عامة، ينتقل إلى بيان شرف العلوم كلها، ومع أن لكل علم منها فضيلة، فإن شخصًا واحدًا ذا عمر محدود لا يستطيع أن يحيط بها جميعًا، قيل لبعض الحكماء: من يعرف كل العلوم؟ فقال: كل الناس(٢).

وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية التخصص في المجال العلمي، وهو ما بدأت الدعوة إليه لدى المسلمين، وكان ا لشائع في الحضارة اليونانية، أن يلم الإنسان بجميع المعارف في عصره، ولو إلمامًا سطحيًا(٣).

الإنسان مطالب إذن باختيار مجال واحد، ويسرع الماوردي فيقدم له أساس الاختيار، وهو يراعي في ذلك كلاً من الأهمية

(١) أدب الدنيا والدين، ص٢١ـ٢٣.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٣.

(٣) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم، ص ٤٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والأفضلية، فإذا ألقينا نظرة إلى العلوم وجدنا أن أولاها وأفضلها "علم الدين؛ لأن الناس بمعرفته يرشدون، وبجهله يضلون"(١).

ومع ذلك فقد يلجأ بعض الناس إلى دراسة العلوم العقلية، وهذا لا بأس به في حد ذاته، وإنما نجدهم أحياناً يفضلونها على العلوم الدينية، بل يزدرون أصحاب هذه العلوم، وهنا يكشف الماوردي عن السبب الذي يدفع هؤلاء بأنه:

الاستثقال لما تضمنه الدين من التكاليف.

والاسترذال لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف.

ثم يشير إلى أن هذا ليس مجال الرد عليهم بالتفصيل، وإنما تكفي الإشارة إلى أنك لن ترى ذلك "فيمن سلمت فطنته، وصحت رويته"(٢).

ويعتقد الماوردي بأن الدين هو الأساس الهام لقيام الحياة الاجتماعية السليمة، بما تقتضيه من ود وتآلف، كما أنه المرجع الفاصل لكل ما يحدث بينهم من اختلاف ونزاع "بل إن العقل يمنع أن يكون الناس هملاً أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة، وينقادون لأهوائهم المتشعبة"(٣).

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٤.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص٢٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٦.

وفي الواقع، يصدر الماوردي هنا عن تجربته الخاصة في مجال القضاء، حيث لاحظ أن أحكام الناس على القضايا إنما تخضع لعاملين: أحدهما عقلي تتدخل فيه درجة الثقافة ومنهج التفكير، والآخر نفسي تحكمه الأهواء والمنافع الشخصية.

ثم إن دراسة الدين لا تعني الانحصار داخل دائرة ضيقة، بل إنها تتطلب دراسة عدد من العلوم الأخرى التي يطلق عليها في مناهج البحث الحديثة اسم "العلوم المساعدة" وهي علوم يحتاج إليها موضوع الدراسة، وتعد معرفتها ضرورية لتكوين ثقافة الدارس نفسه، وتنمية ملكاته الفكرية، وتتمثل هنا في معرفة القرآن، والحديث، والفقه، والحساب، واللغة.

الجانب الآخر المهم في تكوين العالم هو "صيانة نفسه عن التبذل الذي لا يليق وشرف العلم" يروى عن الشافعي أنه قال: "من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه" ويشرح الماوردي ذلك قائلاً: "إن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته، وتوكل على ما يلزم الناس من صيانته، سلبوه فضيلة علمه، ووسموه بقبيح تبذله، فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل"(١).

ومعنى ذلك أن علم الإنسان مهما دق وحسن وزاد، فإن زلة واحدة في أخلاقه كفيلة بهدمه، وتشويه صورته.

(١) نفس المصدر، ونفس الصفحة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويفسر الماوردي، في دقة بالغة، هذه الظاهرة، فيقول: إن الناس – لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة – تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ، فلا ينصفون محسنًا، ولا يحابون مسيئًا، لا سيما من كان بالعلم موسومًا، فإن زلته لا تقال، وهفوته لا تعذر:

- إما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها، وقد قيل: زلة العالم كالسفينة، تغرق ويغرق معها خلق كثير.
- وإما لأن الجهال بذمه أغرى، ليسلبوه فضيلة التقدم(١).

لكن إذا صان المشتغل بالعلم نفسه حق صيانتها، ولازم فعل ما يلزمها أمن "تغيير الصديق، وتنقيص العدو، وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة، وعزة النزاهة، فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله"(٢).

ولا شك في أن محاولة الماوردي تكوين العالم تكوينًا أخلاقيًّا بالإضافة إلى تكوينه العلمي – تسد ثغرة هائلة في مناهج البحث الحديثة التي قصرت كل اهتمامها على الأسلوب العلمي في البحث، ولم تعط أية عناية للإنسان الذي يستخدم هذا الأسلوب، ويكفي أن نشير إلى الأضرار الخطيرة التي ترتبت على هذه الثغرة، ومنها على

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦.
(٢) نفس المصدر، ص ٢٧.

سبيل المثال أن العلماء الغربيين قد وجهوا قدراتهم الفكرية العظيمة إلى تطوير وسائل تدمير الجنس البشري وإبادته.

هذا، وتعد الرغبة الصادقة لدى المشتغل بالعلم أهم عوامل نجاحه، وينبغي ألا تعوقه عن الاستمرار في طلب العلم إحدى المغريات الأخرى، كالثروة، والشباب، والجاه، والمنصب، بل إن التميز بأحد هذه الأشياء ينبغي أن يكون من أشد الدوافع لطلاب العلم "فإن من نفذه أمره، فهو إلى العلم أحوج، ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق"(١).

وهناك فكرة خاطئة ترى أن العلم مرتبط بالفقر، كما أن الذكاء قرين ضيق الحال. ومن الطبيعي أن شيوع هذه الفكرة مما يسئ كثيرًا إلى قيمة العلم كمعوق عن الحياة الرغدة، فيؤدي ذلك إلى انصراف الناس عنه، ونفورهم منه، وقد حاول الماوردي نقض هذه الفكرة الخاطئة، وقبل أن ينقضها قام بتفسيرها فقال: ربما رأى الناس عاقلاً غير محظوظ، وعالمًا غير مرزوق، فظنوا العلم والعقل هما السبب في قلة حظه ورزقه، وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر الحمقى، وإدبار أكثر الجهال؛ لأن في العلماء والعقلاء قلة، وعليهم من فضلهم سمة، ولذلك قيل "العلماء غرباء" لكثرة الجهال، فإذا ظهرت سمة فضلهم، وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتمييز، واشتهروا بالتعيين، والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

النفوس، فلم يلحظ المحروم منهم، ولا قصد المجدود، فلذلك ظن الجاهل المرزوق أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق(١).

ولا يقف الماوردي عند هذا التفسير النظري، بل يلجأ إلى الاستقراء ويدعونا إلى استخدامه في معرفة الأحوال المادية للعلماء فيقول: "ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء ــ مع قلتهم ــ لوجدت الإقبال في أكثرهم، وإنما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظًا مشتهرًا؛ لأن حظه عجب، وإقباله مستغرب، كما أن حرمان العاقل العالم الغريب، وإقلاله عجيب"(٢)، قالت الحكماء: "لو جرت الأرزاق على قدر العقول لم تعش البهائم"(٣).

بالإضافة إلى ما سبق، يذكر الماوردي بعض الأسباب الأخرى التي قد تمنع الإنسان من طلب العلم، أو الاشتغال به، ومنها: كبر السن، والحياء من أن يزامل الإنسان من هم أصغر منه.

ويحمل الماوردي على من يتصور ذلك قائلاً: "وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل؛ لأن العلم إذا كان فضيلة، فرغبة الكبار فيه

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٣٢، والمجدود: المحظوظ.

(٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٣) نظم أبو تمام هذا المعنى في قوله:

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا

هلكن إذن من جهلهن البهائم

أولى، والابتداء بالفضيلة فضيلة؛ ولأن يكون شيخًا متعلمًا أولى من أن يكون شيخًا جاهلاً"(١).

وسبب آخر هو قلة الإمكانيات المادية التي تعين على التفرغ للعلم، والحصول على أدواته، فيضطر الإنسان إلى الاشتغال بعمل ما، قد يضيع فيه وقته وجهده من أجل الكسب.

والماوردي يلتمس العذر لمثل هذا الشخص، ولكنه ــ على الرغم من ذلك – يحثه على ضرورة تخصيص وقت للعلم، حتى لو كان من راحته، مع ملاحظة أن الانصراف الكامل إلى الكسب ناشئ عن ضيق في النظرة إلى الحياة، وما فيها من جوانب أسمى من إشباع الحاجات المادية فقط: "فينبغي أن يصرف للعلم حظًا من زمانه، فليس كل الزمان زمان اكتساب"، ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة، ومن صرف كل نفسه إلى الكسب حتى لم يترك لها فراغًا إلى غيره، فهو من عبيد الدنيا، وأسرى الحرص"(٢).

وسبب ثالث يتمثل في رغبة الإنسان أن يهيئ لأهله حياة مترفة، والتخوف من أن يصيبهم الحرمان، إذا ما ضيع وقته في الاشتغال بالعلم، وغالبًا ما تجد هذا الشخص ينفر من العلماء، ويتشاءم لمجرد رؤيتهم "فإن رأى محبرة تطير منها، وإن وجد كتابًا أعرض عنه، وإن رأى متحليًا بالعلم هرب منه" ويحدثنا الماوردي عن إحدى

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٩.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٣١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مشاهداته في هذا المجال فيقول: "ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال كنت أخفي عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلاً"(١).

وتبلغ الدعوة إلى العلم ذروتها عند الماوردي عندما يقرر أن "العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قل معهما المال، وضاقت معهما الحال، والجهل والحمق حرمان وإدبار، وإن كثر معهما المال، واتسعت معهما الحال"(٢).

وعلى طالب العلم أن يخلص النية لله، وأن يصدق العزيمة في طلب العلم، واثقًا بتيسير الله له "وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء، فإن المماري به مهجور لا ينتفع، والمرائي به محقور لا يرتفع"(٣).

ويرى الماوردي أن لكل مطلوب باعثًا، والباعث على المطلوب دائمًا إما أن يكون رغبة أو رهبة، لكن طالب العلم عليه أن يكون راغبًا راهبًا، أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى، لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته، وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى، لتاركي أوامره، ومهملي زواجره، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا إلى كنه العلم، وحقيقة الزهد؛ لأن الرغبة أقوى الباعثين على العلم، والرهبة

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣.

(٣) يفرق الماوردي بين المناظر في العلم وهو الذي يقصده بمناظرته طلب الصواب، وبين المماري الذي يقصد بها رد الصواب والخطأ على السواء.

أقوى السببين في الزهد.. فإن اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة، وعمت الفضيلة(١).

كما يحذر الماوردي طالب العلم من أن يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله، فيمنعه ذلك من إدراك الضروريات، فإن لكل علم فضولاً مذهلة، وشذورًا مشغلة، إن صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها. قال ابن عباس: "العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه"، وقال بعض الحكماء: "بترك ما لا يعنيك يتم لك ما يعنيك"(٢).

ومع ذلك، فلا ينبغي لطالب العلم إذا ما اصطدم بصعوبة ما، أن يدعوه ذلك إلى ترك ما استصعب عليه، إشعارًا لنفسه أن ذلك من فضول علمه، وإعذارًا لها في ترك الاشتغال به، فإن ذلك مطية الحمقى، وعذر المقصرين.

ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر كان كالقانص إذا امتنع عليه الصيد تركه، فلا يرجع إلا خائبًا، إذ ليس يرى الصيد إلا ممتنعًا، كذلك العلم طلبه صعب على من جهله، سهل على من علمه(٣).

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٣٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٩.

(٣) نفس المصدر، ونفس الصفحة - ويمكن الرجوع إلى الصفحات ٤٠-٤٨، حيث يشرح الماوردي بالتفصيل الأسباب التي تمنع طالب العلم من فهم المعنى، وطريقة التغلب عليها.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الأمور التي ينبغي لطالب العلم أن يقف عليها ويراعيها : أحوال نفسه، فإن لها نفورًا يفضي إلى تقصير، ووفورًا يؤول إلى سرف. وقيادها عسير، لكنه مطالب بأن يحسن سياستها بحيث لا يضطرها إلى التعلم، وهي نافرة، أو يثقل عليها في البحث، وهي ضيعة.

ومن الواضح أن التوسط في الأمر هو ما يدعو إليه الماوردي مؤمنًا بحقيقة تربوية حديثة، تقرر أن الاستجمام العقلي ضروري لكل مفكر، فهو يقول: "فإذا استصعب على طالب العلم قياد نفسه، ودام منه نفور قلبه، مع سياستها ومعاناة رياضتها، تركها ترك راحة، ثم عاودها بعد الاستراحة"(١).

وأخيرًا يضع الماوردي عددًا من الشروط التي يلزم توافرها في طالب العلم، والتي يمكن باجتماعها فيه أن يبلغ أسمى المراتب، ويحقق أكمل النتائج. يقول الماوردي: "وأما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب - مع ما يلاحظ من التوفيق ويمد به من المعونة - فتسعة شروط:

الأول: العقل الذي يدرك به حقائق الأمور.

الثاني: الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم.

الثالث: الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره، وفهم ما علمه.

---

(١) نفس المصدر، ص ٥٦.

الرابع: الرغبة التي يدوم بها الطلب، ولا يسرع إليها الملل.

الخامس: الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلفة الطلب.

السادس: الفراغ الذي يكون معه التوفر، ويحصل به الاستكثار.

السابع: عدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض.

الثامن: طول العمر واتساع المدة لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال.

التاسع: الظفر بعالم سمح بعلمه، متأن في تعليمه.

فإذا استكمل هذه الشروط التسعة، فهو أسعد طالب، وأنجح متعلم"(١).

ب - أدب المتعلم:

١- يقول الماوردي: "إن للمتعلم في زمان تعلمه ملقًا وتذللاً، إن استعملهما غنم، وإن تركهما حرم؛ لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه، والتذلل له سبب لإدامة صبره، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة، وباستدامة صبره يكون الإكثار"(٢).

وقد يقابل طالب العلم، في عصرنا الحاضر الدعوة إلى مثل هذا السلوك بالتعجب أو الاستنكار، إذ كيف يقال له: "تذلل وتملق" في عصر تسود فيه الحرية، وتستنكر كل صنوف الذل والاستعباد.

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٥٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والواقع أن المسألة لا ينبغي أن ينظر إليها من هذه الزاوية، وبتلك الحدة، فإن علاقة المتعلم بالعالم أسمى من علاقة الشعوب بالمستعمر أو المستبد، ويمكن تصويرها بأنها علاقة مثالية تتخذ مظهر العطاء الروحي من جانب العالم، والتلقي الخاشع من قبول المتعلم، فضلاً عن أن الملق والتذلل المطلوبين إنما يقصد بها شدة التوقير، وتجنب الكبر، وحسن الاستماع، وإظهار الحاجة الحقيقية إلى المعرفة.

وهذا أحد العلماء يحدثنا أنه اضطر لإمساك ما عنده من العلم حينما وجد التلميذ غير مقبل عليه إقبالاً حقيقيًا، يقول ابن الجوزي: "قرأت من غرائب العلم، وعجائب الحكم على بعض من يدعي العلم فرأيته يتلوى من سماع ذلك، ولا يطلع على غوره، ولا يشرئب إلى ما يأتي، فصرفتُ عن إسماعه شيئًا آخر، وقلت: إنما يصلح مثل هذا لذي لبٍّ يتلقاه تلقي العطشان الماء".

ومن جانب آخر، فإن كل واجب يفرضه الماوردي على المتعلم يقابل بحق يفرضه على العالم نحوه، وبذلك تكتمل الدائرة، ويصبح في مقدور تلك الصلة العقلية والروحية أن تصنع أروع النتائج.

٢- يقول الماوردي: "ثم ليعرف المتعلم للعالم فضله عليه، وليشكره على جميل فعله، ولا يمنعه من ذلك علو منزلة إن كانت له، وإن

كان العالم خاملاً، فإن العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم، لا بالقدرة والمال".

وبالعبارة الأخيرة يقرر الماوردي القيمة الذاتية للعلم، وأن احترام المجتمع لصاحبه ينبغي ألا يزداد بمنصب دنيوي قد يتولاه، أو يتناقص بخمول قد يرضاه لنفسه، أو تفرضه الظروف عليه، كما ينبه المتعلم إلى توقير العلم لعلمه، لا لأنه يملك له نفعًا أو ضرًا.

٣- يقول الماوردي: "وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه، وإن آنسه، والإدلال عليه، وإن تقدمت صحبته"(١).

ومن الواضح أن هذا التحذير يقوم على أساس نفسي صحيح؛ إذ إن العالم - مهما تبسط مع تلميذه - فإنه لن يستطيع أن يمحو الفارق الذي يفصل بينهما.

ولنستمع في هذا الصدد إلى محيي الدين بن عربي يحدثنا عن علاقته بأساتذته فيقول: "وكنت إذا قعدت بين يدي أبي يعقوب وبين يدي غيره من شيوخنا، أرعد مثل الورقة، في يوم الريح الشديدة، ويتعثر نطقي، وتتخدر جوارحي، حتى يعرف ذلك في حالي، فيؤنسني، ويطمع أن يبسطني، فلا يزيدني ذلك إلا مهابة وإجلالاً"(٢).

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٥٧.

(٢) روح القدس بتحقيقنا، ص ٢٨٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥م.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٤- يقول الماوردي: "ولا يظهر المتعلم للعالم الاستكفاء منه، والاستغناء عنه؛ فإن في ذلك كفرًا لنعمته، واستخفافًا بحقه".

ويمكن أن نتمثل شعور العالم الذي يصدمه سلوك مثل هذا التلميذ الجاحد بشعور من اصطفى شخصًا، وحاول التودد إليه، فادخر من ماله، ثم تخير له هدية، وذهب بنفسه ليقدمها له، فرفضها في وجهه.

٥- وليس ببعيد أن يكون التلميذ أنجب من أستاذه، وأحدَّ ذكاء، بل إن الأمثلة على ذلك كثيرة، ومن الضروري أن تكون كذلك حتى يطرِدَ العلم، ويكتمل نموه.

غير أن الماوردي يوصي هذا التلميذ النجيب وأمثاله بأن يكونوا رفقاء مع الأستاذ، فلا يحاولوا إعناته، والإزراء به؛ لأنهم قد لا يعلمون أن الأثر النفسي لمثل هذا العمل مدمر، يقول الماوردي: "وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره، فيقصد من يعلمه بالإعنات له، والاعتراض عليه، إزراء به، وتبكيتًا له، وهذه من مصائب العلماء، وانعكاس حظوظهم: أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين، وعند من قدموه مسترذلين".

٦- وعلى الرغم من دعوة الماوردي المتعلم أن يعرف حق العالم، وألا يحاول إعناته، فإنه لا يرضى بحال ما أن يقبل منه شبهة في العلم، أو يأخذ عنه النتائج والحلول تقليدًا، دون اقتناع ذاتي. يقول الماوردي: "ولا ينبغي أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة

منه، ولا يدعوه ترك الإعنات له على التقليد فيما أخذ عنه، فإنه ربما غالى بعض الأتباع في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل، وإن لم يستدل، وأن اعتقاده حجة، وإن لم يحتج"(١).

وينبه الماوردي إلى خطورة التقليد في العلم بما يورده من حادثة طريفة شاهدها بنفسه، فيقول: "ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حافل، وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة، ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها، فأمسك عنه المستدل تعجبًا، وقال لي: "والله لقد أفحمني بجهله!" وصار سائر الناس بين مستهزئ ومتعجب ومستعيذ(٢).

على المتعلم إذن أن يبذل من نفسه مثلما يبذل أستاذه، والطريق إلى ذلك أن يتقن منهج البحث، ويستخدم الأساليب الصحيحة للتفكير؛ حتى يمكن له أن يقف على قدميه، وأن يتناول المشكلات بوجهة نظره، لا بعين أستاذه، فإذا صح لديه ما توصل إليه الأستاذ خرج عندئذ من مجال التقليد، ودخل في عالمه الفكري الخاص.

٧- ويبيح الماوردي للمتعلم أن يسأل عند كل شبهة تعرض له، أو أمام كل غامض يواجهه، وقد قيل: العلم خزائن، ومفتاحه السؤال، وقال رسول الله ﷺ: "هلا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال".

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٥٨.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٥٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

غير أنه لا ينبغي أن يكون السؤال في كل وقت، ومن غير تفكير، قيل لابن عباس، بم نلت العلم؟ فقال: بلسان سئول، وقلب عقول، والواقع أن السؤال إذا طرح في موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة(١).

٨- يقول الماوردي: "وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده، من نبيه وخامل، ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء إذا كان النفع بغيرهم أعم، إلا أن يستوي النفعان فيكون الأخذ عمن اشتهر ذكره، وارتفع قدره أولى؛ لأن الانتساب إليه أجمل، والأخذ عنه أشهر"(٢).

وهكذا ينفي الماوردي عن العلم كل المظاهر التي لا قيمة لها في تقدمه، كمحاولة اكتساب الشهرة، أو الافتخار أو نحوهما، وهو يصدر في ذلك عن مبدأ علمي ممتاز شاع في الفكر الإسلامي كله، وطالما ردده أعلامه كالغزالي، وابن حزم، وابن عربي، وهو المتمثل في قول علي بن أبي طالب: "لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله".

وما يتصل بما سبق قول الماوردي: "وإذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد، وإذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب، وإذا قصدت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره، وربما تتبع الإنسان من بعد عنه

(١) نفس المصدر، ص ٥٩.
(٢) نفس المصدر، ص ٦٠.

استهانة بمن قرب منه، وقد قالت العرب: "العالم كالكعبة يأتيها البعداء، ويزهد فيها القرباء"(١).

جـ-أدب العالم:

١- "ينبغي أن يكون التواضع ومجانبة العجب من أهم ما يتحلى به العالم من أخلاق؛ لأن التواضع يعطف القلوب إلى صاحبه، والعجب ينفرهم عنه، وهو بكل أحد قبيح، وبالعلماء أقبح؛ لأن الناس بهم يقتدون"(٢).

ويفسر الماوردي سبب العجب الذي يصيب بعض العلماء بأنهم يرون تفردهم بالعلم دون سائر الناس، ولهم يقول: "لو أنهم نظروا حق النظر، وعلموا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى، ومجانبة العجب بهم أحرى؛ لأن العجب ينافي الفضل، لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"(٣).

وقد يكون السبب أيضًا: انصراف نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال، وتحول نظرهم عمن فوقهم من العلماء، وينبه الماوردي

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٦١.
(٢) نفس المصدر، ص ٦١.
(٣) نفس المصدر، ص ٦١، ٦٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أمثال هؤلاء بأنه ليس هناك متناهٍ في العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه؛ إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر(١).

ومع ذلك، فالماوردي يقرر أنه "قلما تجد بالعلم معجبًا، وبما أدركه مفتخرًا، إلا من كان فيه مقلاً ومقصرًا؛ لأنه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره، فأما من كان فيه متوجهًا، ومنه مستكثرًا، فهو يعلم من بعد غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصده عن العجب به"(٢).

ويحدثنا هنا الماوردي عن تجربة شخصية له في هذا المجال، فيقول: "ومما أنذرك به من حالي أنني صنفت في البيوع كتابًا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي، وكددت فيه خاطري، حتى إذا تهذب واكتمل، وكدت أعجب به، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعًا بعلمه حضرني - وأنا في مجلسي- أعرابيان، فسألاني عن بيع عقداه في ا لبادية، على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابًا، فأطرقت مفكرًا، وبحالي وحالهما معتبرًا، فقالا: ما عندك فيما سألناك جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا، فقالا: واهًا لك! وانصرفا.

ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي، فسألاه فأجابهما مسرعًا بما أقنعهما، وانصرفا عنه راضيين بجوابه، حامدين لعلمه.

(١) نفس المصدر، ص ٦٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٦٣.

فبقيت مرتبكًا، وبحالهما وحالي معتبرًا، وإني لعلي ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي، فكان ذلك زاجر نصيحة، ونذير عظة، تذلل بهما قيادة النفس، وانخفض لهما جناح العجب"(١).

٢- ترك الادعاء في العلم، وعدم خوض العالم فيما يجهله أو لا يجيد الإجابة عنه، يقول الماوردي: "وحق على من ترك العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن" ومن أشهر ما ورد في ذلك دعاء الجاحظ في مقدمة كتابه المشهور "البيان والتبيين" الذي يقول فيه: "اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من شر العي والحصر".

وينصح الماوردي العالم الذي يستنكف أن يقال عنه إنه لا يعلم هذا الموضوع أو ذاك قائلاً: "إذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل، فلا عار في أن يجهل بعضه، وإذا لم يكن في جهل بعضه عار، لم يقبح به أن يقول: لا أعلم فيما ليس يعلم".

ويرشده إلى اتباع الطريق الأفضل، وهو محاولة التعلم من جديد، دون حياء أو خجل، فذلك أفضل من أن يدلي بآراء خاطئة قد يضل بسببها خلق كثير، فيقول: "ولا ينبغي للرجل وإن صار في طبقة

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٦٣.

www.alukah.net

العلماء الأفاضل أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده، ليسلم من التكلف به"[1].

على العالم إذن ألا يدع القراءة والبحث طيلة حياته "ولا يقنع من العلم بما أدرك؛ لأن القناعة فيه زهد، والزهد فيه ترك، والترك له جهل"[2].

٣- يقول الماوردي: "وليكن من شيمة العالم العمل بعلمه، وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به، ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا). وقال علي بن أبي طالب: إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم.

وقال أبو الدرداء: أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله أن يقول: قد علمت فماذا عملت؟

والواقع أن ارتباط العلم بالعمل من هم وأعظم الحقائق التي سادت الحضارة الإسلامية، وبنظرة سريعة إلى تراجم العلماء المسلمين، نقف على أنهم قدموا أصدق النماذج في هذا المجال، فقد عاشوا مشكلات مجتمعاتهم، وشاركوا بإيجابية في حلها، ويكفي على سبيل المثال أن يتأمل المرء تاريخ الفتن والحروب التي نشبت في أنحاء العالم الإسلامي ليقف على مظاهر الكفاح التي تمثلت في

(١) نفس المصدر، ص ٦٤، ٦٥.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٦٥.

مواقف علمائه، وهي تبدأ من الدفاع عن الحق بالكلمة، حتى التضحية في سبيله بالروح[1].

٤- ومما يرتبط بالخلق السابق: "أن يتجنب العالم قول ما لا يفعل، أو الأمر بما لا يأتمر هو به، أو إظهار غير ما يعتقده في قلبه، معتمدًا على الحجة التي صاغها شاعر عربي في قوله:

اعمل بقولي وإن قصرت في عملي ينفعك قولي، ولا يضررك تقصيري

عذرًا له في تقصيره، فيضره، وإن لم يضر غيره، فإن إعذار النفس يغيرها، ويحسن لها مساويها، فإن من قال ما لا يفعل فقد مكر، ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع، ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق"[2].

٥- ومن آداب العلماء ألا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون، فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم.

وكيف يسوغ لهم البخل بما مُنحوه جودًا من غير بخل، وأوتوه عفوًا من غير بذل؟! أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونما، وإن كتموه تناقص ووهى؟ ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم إليهم، ولانقرض عنهم بانقراضهم!

(١) الرسول ﷺ هو الذي قدم النموذج الأول لذلك، فقد دعا إلى الحق، وحارب من أجله، وعلى هذا الطريق سار العلماء من الصحابة والتابعين، ويلاحظ أن انفصال العلماء عن قضايا مجتمعاتهم لم يكن مظهرًا من مظاهر ضعف العالم الإسلامي، بقدر ما كان من عوامل هذا الضعف.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٦٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١).

وروى عن الرسول ﷺ أنه قال: "لا تمنعوا العلم أهله، فإن في ذلك فساد دينكم، والتباس ضمائركم".

وقال خالد بن صفوان: "إني لأفرح بإفادتي المتعلم أكثر من فرحي باستفادتي من العلم"(٢).

ومن المفيد هنا أن ننبه إلى أن دعوة الماوردي العلماء لنشر العلم في المشرق العربي، كان يقابلها في نفس الوقت تقريبًا دعوة أخرى من ابن حزم في المغرب العربي والأندلس، وذلك دون تخطيط مسبق من جهة عليا، فكلاهما كان يعيش تحت حكم دولة تختلف عن الأخرى في سياستها، يقول ابن حزم: "إن الحظ لمن آثر العلم، وعرف فضله أن يسهله جهده، ويقربه بقدر طاقته، ويخففه ما أمكن، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة، ويدعو إليه في شوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيارة، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه، ويجزى الأجور لمقتنيه، ويعظم الأجعال عليه للباحثين عنه، ويسنى مراتب أهله، صابرًا في ذلك على المشقة

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٩.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص٦٩.

والأذى لكان ذلك حظًا جزيلاً، وعملاً جيدًا، وسعيًا مشكورًا كريمًا، وإحياءً للعلم"(١).

٦- وينبغي أن يكون للعالم "فراسة" يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته، وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه، أو يضعف عنه ببلادته، فإنه أروح للعالم، وأنجح للمتعلم"(٢).

ومن الواضح أن مراعاة قدرات الطالب قد أصبحت من أهم الأسس التربوية الحديثة، ويمكن القول بأن "الفراسة" التي يشترطها الماوردي في العالم – لا تكاد تخرج عن "ضرورة" إلمام المدرسين حاليًا ببعض فروع علم النفس.

كما تتضمن الفقرة السابقة دعوة ضمنية إلى أهمية التخطيط العلمي، ووضع المناهج المناسبة لكل مرحلة من عمر الطالب، وبهذا يمكن للتعليم أن يؤتي ثمرته، ولا يصبح الطالب بقدراته واهتماماته في وادٍ، والأستاذ بتفرده ومعلوماته في وادٍ آخر.

٧- ومن آداب العلماء: نزاهة النفس عن شبه المكاسب، والقناعة بالميسور عن كد المطالب، فإن شبه المكتسب إثم، وكد طالب الدنيا ذل، ومن أروع ما عبر عن هذا الناقد العربي الكبير عبد العزيز الجرجاني(٣)، حينما قال من قصيدة جيدة:

(١) التقريب لحد المنطق، ص ٨، ٩.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٧٣.

(٣) صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه".

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت، لكن لأخدما
أأشقى به غرسًا، وأجنيه ذلة ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان، ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

ويعلق الماوردي على ذلك "بأن العالم المخلص لا يجد متعة فيما سوى العلم، فإنه عوض من كل لذة، ومغن عن كل شهوة"(١).

٨- ومن آداب العلماء: أن يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا، من غير أن يعتاضوا عليه عوضًا ولا يلتمسوا عليه رزقًا(٢)، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (٣).

وحقيقة كان العلماء في العصور الإسلامية الأولى، لا يتقاضون أجورًا لقاء تعليمهم الناس، فقد كان يجلس في المسجد من يحس الكفاءة في نفسه، ثم يأخذ في عرض ما عنده، ولا يلبث أن يتحلق حوله طائفة، يسمعون ويسألون ويناقشون، دون أن يدفعوا في مقابل ذلك شيئًا، هذا مع ملاحظة أن العالم ــ قبل أن يجلس للتعليم ــ يكون قد قام بعدة رحلات في سبيل طلب العلم، ولا شك في أن هذه

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٧٤.
(٢) نفس المصدر، ص ٧٥.
(٣) سورة البقرة، الآية ٤١.

الرحلات كانت تكلف الكثير من المال، بالإضافة إلى شراء ما يلزمه من كتب وأدوات.

ومع ذلك فقد كان خلفاء هذه العصور وأمراؤها يجزلون العطاء لبعض العلماء، ولكنه كان عطاء متقطعًا، أما العطاء الثابت فقد اختص به العلماء الذين كانوا يتفرغون أحيانًا لتعليم أولاد الخلفاء والأمراء، والذين أطلق عليهم لقب "المؤدبين" وكذلك لبعض العلماء الذين كانت الدولة تستعين بهم في بث أفكارها السياسة وصد الأفكار المناهضة.

ومن الطريف أن الوزير السلجوقي نظام الملك عندما أنشأ مجموعة المدارس النظامية، في منتصف القرن الخامس الهجري، ورتب لها المدرسين بأجور، أقام علماء ما وراء النهر "مأتم العلم" وقالوا: "كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العلمية، والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به، وإذا صار عليه أجر، تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون ذلك سببًا لمهانته وضعفه"(١).

ويمكن اعتبار رأي الماوردي السابق جزءًا من هذا الموقف الناشئ من الخشية على جلال العلم أن يتلوث بالأغراض المادية، وربما كان موقف ابن حزم السابق أكثر معقولية، وقربًا من الواقع.

(١) لمزيد من التفصيلات القيمة عن موضوع التعليم والتربية في الإسلام، انظر كتاب الأستاذ الدكتور أحمد شلبي "تاريخ التربية الإسلامية" ط رابعة، مكتبة النهضة المصرية.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٩- ومن آداب العلماء: نصح من علموه، والرفق بهم، وتسهيل السبيل عليهم، وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم، فإن ذلك أعظم لأجرهم، وأسنى لذكرهم، وأنشر لعلومهم، وأرسخ لمعلوماتهم.

١٠- ومن آدابهم: ألا يعنفوا متعلمًا، ولا يحقروا ناشئًا، ولا يستصغروا مبتدئًا، فإن ذلك أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم.

١١- ومن آدابهم: ألا يمنعوا طالبًا، ولا ينفروا راغبًا، ولا يؤيسوا متعلمًا، لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم، والزهد فيما لديهم، واستمرار ذلك مفض إلى انقراض العلم بانقراضهم.

وهكذا يتضح أن الماوردي حين دعا المتعلم إلى عدد من الآداب، يلتزمها نحو مهنته الشريفة بوجه عام، وتجاه أستاذه بصفة خاصة، فقد أوجب على العالم عدة آداب، تعد معظمها حقوقًا عليه للمتعلم، بل ربما لوحظ أنها أكثر من واجبات المتعلم نحوه.

* *

التجربة الأخلاقية عند ابن حزم

ابن حزم أحد أعلام الفكر الأندلسي (توفي سنة ٤٥٦هـ) وهو شخصية متعددة المواهب، فهو فقيه، وأصولي، ومؤرخ، ومنطقي، ومحدث، ومصلح اجتماعي، ومحلل نفسي، وشاعر، وقد أثبت كفاءته في كل الميادين التي كتب فيها.

ففي مجال الفقه تبنى المذهب الظاهري، وأصبح علمًا عليه، وأكبر المدافعين عنه في العالم الإسلامي كله، وله في هذا المجال كتاب "المحلى" (عشرة أجزاء) وفي أصول الفقه ترك لنا كتابه القيم "الإحكام في أصول الأحكام" (٤ أجزاء). وفي التاريخ العربي ألف كتابًا موثقًا عن أنساب العرب، أما في علم الحديث فقد جمع كل ما يتصل بحجة الوداع التي قام بها الرسول ﷺ قبل وفاته، وفي مجال مقارنة الأديان كتب مؤلفًا يعتبر من أهم المصادر في هذا المجال بعنوان "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، وفي مجال المنطق قام بمحاولة تلخيص منطق أرسطو بطريقة متفردة عن كل من سبقوه في كتاب بعنوان "التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الشرعية"، وفي مجال الإصلاح الاجتماعي والتحليل النفسي ترك لنا ابن حزم كتابه النادر "طوق الحمامة" الذي يتناول فيه تحليل ظاهرة الحب، من وجهة النظر الإسلامية، والذي ترجم إلى معظم لغات العالم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah

يقول الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه القيم[1] عن إنتاج ابن حزم "ولو أننا جعلنا معيار الثقافة هو "الكيف" لا "الكم" لكان في وسعنا أن نقول إن لابن حزم في مضمار الثقافة منزلة رفيعة قد لا يرقى إليها أي مفكر آخر من أبناء عصره: فنحن نجد لديه عقلية منطقية مرتبة تحسن تقديم المقدمات، وإنتاج النتائج، وتنفر من الحشو واللغو والاستطراد، وتعرف كيف تسير في عرض موضوعها بطريقة منهجية منظمة، وهذا الطابع المنهجي الواضح الذى اتسمت به الغالبية العظمى من كتابات ابن حزم يدلنا على تأثره الشديد بالدراسة المنطقية التي توفر عليها، كما يظهرنا على عنايته البالغة بتبويب موضوعاته وتيسير قراءتها على جمهور قرائه.

والظاهر أن دراية ابن حزم بأصول الجدل قد أكسبته دقة منطقية وصرامة عقلية، قلما نجد لهما نظيرًا عند غيره من مفكري عصره، فضلاً عن أن اهتمامه بالتعليم ونشر آرائه بين طائفة من التلاميذ، قد هيأ له منهجًا تربويًا، دعامته التنظيم والتسلسل المنطقي، وحتى حين يكتب ابن حزم عن الحب، فإنه لا يطلق لقلمه العنان على نحو ما يفعل الأدباء والشعراء، بل هو يبدأ بشرح طريقته في البحث، وتقسيم موضوعه إلى أبواب، فيحدد لنفسه منذ البداية منهجًا يصطنعه في كل

(١) ابن حزم الأندلسي (سلسلة أعلام العرب) رقم ٥٦ ــ وقد درسه المستشرق الكبير "روجر أرنالديز" في كتاب بالفرنسية ــ ترجمة عنوانه: "النحو وعلم الكلام عند ابن حزم القرطبي" باريس ١٩٥٦م.

دراسته، ويبين للقارئ في صدر رسالته جوانب الموضوع الذي سيعرض له بالبحث".

من بين الروائع الكثيرة التي تركها ابن حزم توجد رسالة صغيرة الحجم بعنوان "الأخلاق والسير في مداواة النفوس"[1].

يقول في مطلعها:

"أما بعد، فإنى جمعت فى كتابى هذا معانى كثيرة، أفادنيها واهب التمييز، تعالى، بمرور الأيام، وتعاقب الأحوال، بما منحنى عز وجل، من التهمم بتصاريف الزمان[2]، والإشراف على أحواله، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه، على جميع اللذات التى تميل إليها أكثر النفوس، وعلى الازدياد من فضول المال، وزممت كل ما سبرت[3] من ذلك بهذا الكتاب، لينفع الله به من يشاء من عباده، ممن يصل إليه، بما أتعبت فيه نفسى، وأجهدتها فيه، وأطلت فيه فكرى، فيأخذه عفوا، وأهديته إليه هنيئا، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال، وعقد الأملاك، إذا تدبره، ويسره الله، تعالى، لاستعماله، وأنا راج فى ذلك من الله تعالى، أعظم

(١) حققها وقدم لها بدراسة ممتازة الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف ١٩٨١م، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في دراستنا.

(٢) التهمم بتصاريف الزمان، الاهتمام بأحواله المختلفة.

(٣) زممت كل ما سبرت: جمعت أو قيدت كل ما اختبرته.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأجر لبتي في نفع عباده. **وإصلاح ما فسد من أخلاقهم**. ومداواة نفوسهم"[1].

والمتأمل في هذه المقدمة يمكنه أن يقف على عدة عناصر منهجية تتميز بها جميع كتابات ابن حزم تقريبًا. منها: تحديد مصدر المادة العلمية التي ضمنها المؤلف كتابه، وهي هنا عبارة عن تجاربه الشخصية وتأملاته الخاصة في الحياة والناس من حوله. ومنها: بيان أهمية الموضوع الذي يتناوله. وأنه أفضل من جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس، وأغلى من كنوز المال، وعقد الأملاك، ومنها: الاشارة إلى الجهد المبذول في هذا العمل، وأنه قد استغرق أكثر عمر المؤلف، وشغل جانبا هاما من تفكيره ومراجعته، ولا شك في أن عبارته "حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري" تدل بوضوح على أن هذا الكتاب يأتي – من الناحية التاريخية – في الجزء الأخير من قائمة مؤلفات ابن حزم. ثم أن من أهم العناصر المنهجية أيضا: ذكر الغرض من التأليف، وهو أن يضع كتابا مركزا يحتوى على مجموعة من التجارب والنصائح الأخلاقية لكي يتدبرها القارئ، فقد يوفقه الله تعالى إلى استعمالها في سلوكه. وأخيرًا فإن الدافع وراء هذا العمل، لم يكن كما هو الحال لدى كثير من المؤلفين القدماء – تقربا إلى عطف سلطان، أو تحقيقا لرغبة صديق عزيز، وإنما هو كما يحدده

---

(١) الأخلاق والسير، ص ٨٣–٨٥.

ابن حزم: رجاء في أجر عظيم من الله تعالى، لأن نية المؤلف إنما هي لنفع الناس، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم، ومداواة نفوسهم.

وهكذا فنحن أمام محاولة، في المجال الأخلاقي، تتجه إلى كل إنسان، يمكنه أن يقيس بنفسه مدى نجاحها أو فشلها بمجرد ملاحظة رد الفعل الذي يحدث من تأثيرها فيه.

ثم بعد المقدمة، تتوالى فصول الكتاب، التي تبلغ ١٢ فصلا، مصدرة بالعناوين التالية:

- **فصل في مداواة النفوس واصلاح الأخلاق.**
- **باب عظيم من أبواب العقل والراحة.**
- **فصل في العلم.**
- **فصل في الأخلاق والسير.**
- **فصل في الإخوان والصداقة والنصيحة.**
- **فصل في أنواع المحبة.**
- **فصل في أنواع صباحة الصور.**
- **فصل فيما يتعامل الناس به، وفي الأخلاق.**
- **فصل في مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة.**
- **فصل في غرائب أخلاق النفس.**

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- فصل في تطلع النفس إلى ما يستر عنها من كلام مسموع، أو شئ مرئى، أو إلى المدح وبقاء الذكر.
- فصل في حضور مجالس العلم.

ولسنا نميل إلى اعتبار هذه العناوين من وضع ابن حزم نفسه، ويحتمل أن تكون من ضع بعض تلاميذه، أو نساخ كتبه. ويلاحظ أنها لا تعبر بدقة عما يوجد في داخل الفصول، بل يمكن القول بأن هذه العناوين، بالإضافة إلى عنوان الكتاب نفسه، قد أساءت كثيرًا لمضمون الكتاب، وحولت أنظار القراء عن بعض نظرياته المبتكرة، وأفكاره العميقة، وقصرته على كونه مجرد كتاب عادى في الحكم والمواعظ الأخلاقية. الأفضل إذن أن ندع عناوين الفصول جانبا وأن نتناول، بقدر من التأمل والتحليل، محتوى الفصول ذاتها، حتى نتعرف على تلك المحاولة الفريدة التى قدمها ابن حزم في مجال الأخلاق الإسلامية.

ولكى نتبين بوضوح محتوى الرسالة الأخلاقية التى أراد ابن حزم أن يوجهها للمعاصرين، وللأجيال اللاحقة له، يمكننا تصنيفها في الأقسام الثلاثة الآتية:

أ-الاعترافات الأخلاقية.

ب-مجموعة الحكم.

جـ-نظرية جديدة في الأخلاق.

وفي رأينا أن هذه الأقسام الثلاثة تمثل عناصر التجربة الأخلاقية التى مر بها ابن حزم أصدق تمثيل. فهناك أولا الاعترافات الأخلاقية وهي تعبر عن مرحلة البحث واكتشاف حقيقة الذات. وفيها توصل ابن حزم إلى بعض جوانب النقص في شخصيته، وبتحديدها، والإعلان عنها ينتقل ابن حزم من إنسان منفرد يسعى إلى إصلاح نفسه، إلى مصلح أخلاقى يهتم بخير الآخرين. يقول: "ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والرذائل، لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره، ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه، ويتعظ بما سلف"(١)، ثم هناك ثانيا مجموعة الحكم وهي عبارة عن خلاصة مركزة لخبرة عميقة في الحياة، واحتكاك مباشر مع المجتمع. وسوف نختار من بينها بعض الأمثلة التى تكفي لوضع ابن حزم بين مصاف الحكماء العالميين الذين برزوا في هذا اللون. وأخيرا تأتى النظرية الجديدة التى يقدمها ابن حزم في مجال الهدف النهائى من الحياة الأخلاقية، وهي نظرية "طرد الهم" التى يمكن أن تحل محل نظرية "السعادة" اليونانية"، والتى تبناها بعض فلاسفة المسلمين بالفعل، ولكنها ظلت عرضة للكثير من أوجه النقد، أما نظرية ابن حزم فيؤكد لنا أنها صالحة للتطبيق على الإنسان في كل زمان ومكان.

أولاً: اعترافات ابن حزم:

إذا كانت الاعترافات الذاتية نادرة في تاريخ الفكر الإنسانى، فأندر منها الاعترافات الأخلاقية. ومرجع ذلك لسبب بسيط: هو أنه إذا كان

(١) الأخلاق والسير، ص ١٩٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخطأ العقلى مسموحا به لدى طبقة المفكرين، فإن الخطأ الأخلاقى مرفوض تماما من المجتمع كله. ألسنا نسمع مثلا أن (الاعتراف بالخطأ فضيلة) والمفهوم طبعا هو الخطأ العقلى، ويعلمنا رسول الله، ﷺ أن المسلم إذا اجتهد برأيه فأصاب فله أجران، فإن أخطأ فله أجر واحد. وهذا معناه أنه مثاب على حالتى الصواب والخطأ، والمقصود أيضا هو الشخص الذي يتصدى لإصدار الفتوى في مسألة دينية. لكننا على العكس من ذلك، لا نكاد نسمع شيئا عن أن تصريح الإنسان بأخلاقه السيئة يحتوى على أية فضيلة. بل إن الإسلام يحض المسلم على أن يدارى سيئاته (إذا بليتم فاستتروا) وكأنما يقصد بذلك أن يحصر الرذيله في أضيق نطاق ممكن، وبهذا يصبح السكوت عنها نوعا من مقاومتها.

غير مقبول اذن أن يكون التصريح بالعيوب موضع افتخار وتحد للمجتمع لأنه يعود بالضرر المؤكد على النشئ، الذين يميلون بطبعهم إلى محاكاة ما يوجد أمامهم من مظاهر الشذوذ والغرابة[1]. لكن أن تذكر العيوب الأخلاقية بهدف أن يتعظ بها الآخرون، حتى يدركوا أن من يتصدى لوعظهم، وإصلاح أخلاقهم بشر مثلهم، يتعرض لما يتعرضون له من لحظات الضعف الإنسانى، وتتسلط عليه من الأهواء والنوازع في بعض الأحيان ما يتسلط عليهم. فهذا شيء مختلف،

(١) من المعروف أن نسبة الجريمة تزيد كثيرًا بين الشباب الذين يشاهدون أفلام العنف والجريمة، وقد ثبت بالإحصائيات أن معظم الجرائم التي يرتكبها هؤلاء الشباب تحاكي إلى حد كبير – وأحيانًا بصورة حرفية – ما يشاهدونه في السينما والتليفزيون.

وأسلوب ممتاز في جذب النفوس إلى الموعظة الحسنة، والسيرة المستقيمة. يقول ابن حزم:

"كانت فيّ عيوب، فلم أزل بالرياضة، وإطلاعي على ما قالت الأنبياء، صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس، أعانى مداواتها.. حتى أعان الله، عز وجل، على أكثرها بتوفيقه ومنّه.

وتمام العدل، ورياضة النفس، والتصرف بأزمة الحقائق: هو الإقرار بها، ليتعظ بذلك متعظ يوما إن شاء الله.

– فمنها: كلف في الرضا[1]، وإفراط في الغضب:

فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار، وتحملت من ذلك ثقلا شديدا وصبرت على مغص مؤلم، كان ربما أمرضنى..

وأعجزنى ذلك في الرضا، وكأنى سامحت نفسى في ذلك، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم.

– ومنها: دعابة غالبة:

فالذي قدرت عليه فيه إمساكى عما يغضب الممازح، وسامحت نفسى فيها إذا رأيت تركها من الانغلاق، ومضاهيا للكبر.

– ومنها: عجب شديد:

(١) يعني رغبة شديدة في أن يرضى عنه الآخرون.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فناظر عقلى نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبق له، والحمد لله، أثر. بل كلفت نفسى احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع.

- ومنها: حركات كانت تولدها غرارة الصبا، وضعف الأعضاء فقصرت نفسى على تركها فذهبت.

- ومنها محبة في بعض الصيت والغلبة:

فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقى.

- ومنها إفراط في الأنفة، بغضت إلى إنكاح المحارم جملة[1] بكل وجه، وصعبت ذلك في طبيعتي.

وكأنى توقفت عن مغالبة هذا الإفراط اذى أعرف قبحه لعوارض اعترضت على، والله المستعان.

- ومنها حقد مفرط:

قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه، وأعجزنى معه أن أصادق من عادانى عداوة صحيحة أبدًا[2].

- وأما سوء الظن.

---

(١) يعني تزويج بناته وأخواته للآخرين.

(٢) أي صعب على مصادقة أعدائي بإخلاص كامل.

فيعده قوم عيبا على الإطلاق، وليس كذلك، إلا إذا صاحبه ما لا يحل في الديانة، أو إلى ما يقبح في المعاملة، وإلا فهو حزم، والحزم فضيلة[1].

- وأما الزهو، والحسد، والخيانة.. فلم أعرفها بطبعي قط، وكأننى لاحمد لى في تركها، لمنفرة جبلتى (طبيعتى) إياها"[2].

وهكذا بمثل هذا الوضوح والصراحة، يقدم ابن حزم نفسه لنا عارية من الأقنعة التى يندر أن يخلعها الإنسان أمام الآخرين !

فإذا نظرنا إلى هذه الاعترافات من وجهة النظر العلمية الخالصة، وجدنا أن ابن حزم قد وصل إلى مرحلة عالية من التحليل النفسى الذاتى، استبطن فيه مكونات شخصيته، وكشف عن نوازعها واتجاهاتها، ووضع يده على مواطن العيوب، وأوجه النقص.

ومن المعروف أن الطبيب النفسانى لا يفعل مع مريضه أكثر من أن يصحبه في رحلة عميقة داخل ذاته، حتى يكتشفا في النهاية معا أسباب العقد النفسية التى عندما تترك بدون كشف تصبح مرضا خطيرا يفسد هذه التجارب، فإنه قد يخدع أولا بمظهرها الخارجى، وقد يقف طويلا لديه، ولكنه إذا تعمق التجربة، وحاول اكتشاف جوهرها وجد نفسه وجها لوجه أمام حقيقتها الثابتة التى لا تتغير.

---

(١) الأخلاق والسير، ص١٢٩ـ١٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٠، ١٤١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثانيا: مجموعة الحكم:

إذا كانت الأمثال (جمع مَثَل) هي خلاصة فلسفة عامة الناس، ومستودع تجاربهم الطويلة، فإن الحكَم (جمع حكمة) يمكن اعتبارها خلاصة فلسفة المفكرين، وهي تتمثل عادة في عبارات مركزة، لكنها قوية ومعبرة، وتحمل من المعاني أكثر مما فيها من الألفاظ. ومن المعروف أنه لا يقدر على صياغتها سوى قلة قليلة من قادة الفكر، وذوي الرأي الثاقب، وأهل الخبرة الطويلة[1].

ومما يلاحظ بصفة مبدئية على هذا اللون من الفلسفة المختصرة أنه يوجد تقريبًا لدى كل الشعوب، وأن هذه الشعوب تكاد تلتقي على كثير من مبادئه وقيمه، والسبب بسيط: فهو عبارة عن تسجيل ملاحظات العقل الإنساني لما يمر به من تجارب، قد يبدو من حيث الظاهر أنها مختلفة ومتنوعة، ولكنها في الحقيقة متشابهة، فالحب والعطف والوفاء تمامًا مثل الكراهية والقسوة والخيانة؛ حقائق ثابتة على مر العصور، رغم اختلاف الأماكن، ولكن مظاهرها الخارجية هي التي تتعدد وتتنوع وتختلف، فإذا أضفنا لذلك أن العقل الإنساني عندما يمر بإحدى هذه التجارب، فإنه قد يخدع أولاً بمظهرها الخارجي، وقد يقف طويلاً لديه، ولكنه إذا تعمق التجربة، وحاول

(١) وهي بعينها التي يقصدها الرسول ﷺ في قوله: "أوتيت جوامع الكلم" أي الكلمات القليلة العدد الجامعة لصنوف الحكمة.

اكتشاف جوهرها وجد نفسه وجهًا لوجه أمام حقيقتها الثابتة التي لا تتغير.

وقد ورث المسلمون حضارات الأمم السابقة عليهم، واستوعبوا معظم الثقافات التى كانت منتشرة في أرجاء العالم القديم، ولا شك أنهم وقفوا على هذا اللون من الفلسفة أو الحكمة المركزة. وقد أعجبوا به، ونقلوا الكثير منه إلى اللغة العربية، فصانوه بذلك من الضياع. لكن جهودهم لم تقتصر على ذلك، فقد ساهموا هم أيضا فيه، وما زال تراثهم في هذا المجال بحاجة إلى الجمع والتصنيف، فضلا عن دراسته وتحليله. وحسبنا هنا الآن أن نتوقف لدى ابن حزم، الذي ترك لنا في كتابه الصغير الحجم الذي نعتمد عليه في هذه الدراسة، عددا لا بأس به من الحكم الأخلاقية، والتى سوف نقتطف منها مجموعة كافية في دلالتها لإثبات أننا أمام مفكر عميق، وفيلسوف خبر الحياة، واستخلص من أحداثها المتغيرة والمنقطعة موقفا أكثر ثباتا واستمرارا:

- لا مروءة لمن لا دين له[1].
- العاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة[2].
- من قدر أن يسلم من طعن الناس وعيوبهم فهو مجنون[3].

(١) الأخلاق والسير، ص٩٣.
(٢) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(٣) نفس المصدر، ص٩٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك[1].
- إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها[2].
- طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها[3].
- أول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به، وأول من تهون الزانية في عينه الذي يزنى بها[4].
- كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه[5].
- لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته، فكل واحد صديقه يومئذ[6].
- ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك[7].
- نوار الفتنة لا يعقد[8].

---

(١) نفس المصدر، ص ١٠٥.
(٢) نفس المصدر، ص ١١٣.
(٣) نفس المصدر، ص ١١٤.
(٤) نفس المصدر، ص ١١٨.
(٥) الأخلاق والسير، ص١١٩.
(٦) نفس المصدر، ص ١٢٠.
(٧) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(٨) نفس المصدر، ونفس الصفحة، ويعني أن زهور الفتنة لا تخرج ثمرا.

- لا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت[1].
- استبقاك من عاتبك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك[2].
- العتاب للصديق كالسبك للسبيكة، فإما أن تصفو وإما أن تطهر[3].
- لا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل، وتأدية ما عليك من النصيحة، والشفاعة وبذل المعروف[4].
- قد يكون المرء صديقا لمن ليس صديقه[5].
- الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع[6].
- أشد الناس استعظاما للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالا لها بفعله[7].
- اقنع بمن عندك يقنع بك من عندك[8].
- الطمع سبب كل هم[9].

---

(١) نفس المصدر، ص ١٤٢.
(٢) نفس المصدر، ص ١٤٣.
(٣) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(٤) نفس المصدر، ص ١٤٧.
(٥) الأخلاق والسير، ص ١٤٨.
(٦) نفس المصدر، ص ١٧١.
(٧) نفس المصدر، ص ٢٢٦.
(٨) نفس المصدر، ص ١٧٤.
(٩) نفس المصدر، ص ١٧١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- دعاء ابن حزم في آخر رسالة الأخلاق:

جعلنا الله ممن يوفق لفعل الخير، والعمل به، وممن يبصر رشد نفسه، فما أحدَ إلا له عيوب إذا نظرها شغلته عن غيره[1].

ثالثًا: نظرية طرد الهم:

لكي ندرك مدى الجدة في نظرية ابن حزم لابد من إلقاء نظرة سريعة على المذاهب الأخلاقية التي سبقته، مركزين بصفة خاصة على الغاية أو الهدف النهائي من الحياة الأخلاقية.

في الفكر الإغريقي، نجد أن غاية الأخلاق لدى السفسطائيين تنحصر في تحقيق اللذة الفردية لكل إنسان. أما سقراط فقد جعل هذه الغاية هي السعادة. ولكي نصل إلى السعادة لابد أن نمارس الفضيلة، التي تنتج عن المعرفة. أى أنه لكى يكون الإنسان فاضلا لابد أن يكون عالما. ولا شك في أن هذا المفهوم يقصر الفضيلة، وبالتالى السعادة، على قلة قليلة من المجتمع.

كذلك قرر أفلاطون أن غاية الحياة الأخلاقية هي السعادة لكنه يجعلها تقترن بالعدالة أى الاعتدال في الأمور، ولا يتحقق الخير الأسمى للإنسان الا إذا أدرك عالم المثل، الذي يعتبر عالمنا الأرضى نسخة مشوهة منه.

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٠.

ولدى أرسطو، الذي كتب مؤلفا مستقلا في الأخلاق، أصبحت الأمور أكثر تحديدا. فقد جعل الخير الأسمى هو غاية الأخلاق. ومفهومه أنه الخير الذي يطلبه الناس جميعا لذاته، ولا يرجون من ورائه شيئا آخر، وقد حدده أيضا بأنه السعادة. وتتحقق السعادة عنده بالتأمل العقلى. أما الفضيلة فقد عرفها بأنها: "وسط بين طرفين" هما التفريط والافراط. ومعنى ذلك أن تكون الشجاعة مثلا حالة وسطاً بين التهور والجبن، والكرم وسطاً بين الإسراف والتقتير.. وهكذا.

وفي العصر الهللينى ظهرت بعض المذاهب الأخلاقية التى انبثقت بالضرورة عن مذاهب فكرية وفلسفية مختلفة، هي الأبيقورية (أتباع أبيقور) والرواقية، ومذهب الشك. وعلى الرغم من الخلافات الدقيقة بينها، فإنها تلتقى جميعا في حصر السعادة في الجانب العقلى أو الروحى، وإهمال جانب الجسد، واحتقار الحياة المادية بكل أنواعها. ويلاحظ أن مفهومها للسعادة يشيع فيه الاتجاه السلبى بمعنى أن الإنسان يبتعد عن المجتمع ليسلم من شروره، وينصرف عن الحياة المادية ليتخلص من مصائبها.

وقد ظل هذا الاتجاه الفكرى والأخلاقى سائدًا بين أصحاب هذه المذاهب حتى ظهرت المسيحية، واستقرت، فتغلب مفهومها للحياة الأخلاقية. وهو مفهوم يقوم أساسا على أن السعادة التى يسعى إليها الإنسان في هذه الحياة سعادة وهمية، لأن السعادة الحقة إنما هي في ملكوت السماوات. وهذه النقطة هامة جدًا لأنها تفصل بصورة حاسمة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بين التصورات الإغريقية وما تلاها وبين التصور المسيحي. ولا شك في أن حياة السيد المسيح قدمت للمفكرين الأخلاقيين نموذجا رائعا في شتى جوانبه. لكنهم ركزوا بصفة خاصة على ما جاء في تعاليمه من التواضع، والمسامحة، والعفو عن الإساءة "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر" وهذا منتهى النبل الإنساني في معاملة المسيء.

لكن الأخلاق المسيحية تبدأ من مسلمة أخرى أيضا هي أن الإنسان في الواقع يعيش نتيجة خطيئته الأولى أو الأصلية، لذلك فإنه مطالب منذ اللحظة الأولى لميلاده بأن يكفر عن هذه الخطيئة. ولهذا فإنه يعيش محملا بعقدة ذنب، لم يرتكبه، ومدركا أنه ذو طبيعة رديئة، يجب عليه أن يصارعها باستمرار. وهو يتسلح في حالة ذلك بالصلاة، وإخلاص النوايا (تحتل النية مكانة أكبر بكثير من الفعل) والتحرر من الأهواء والنوازع البشرية، مع الاعتقاد بأن الإنسان لن يمتلك السعادة قط على هذه الأرض المليئة بالشرور والخطايا، وإنما فقط يمكنه أن يحس بها، ولا ينتج هذا إلا من الأمل في عفو الله ورحمته التي تسع جميع المذنبين.

ومن المعروف أن فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن مسكويه والغزالي قد تبنوا بعض النظريات الإغريقية الخاصة بالهدف الأخير من الأخلاق، واختاروا فكرة السعادة باعتبارها هي الغاية الأسمى

التي يسعى الناس جميعا إلى بلوغها، ويطلبونها لذاتها أي دون أن تكون هي الأخرى وسيلة لغرض آخر.

لكن ابن حزم يطالعنا في كتابه "الأخلاق والسير" بنظرية جديدة حول غاية الأخلاق، وهو يحددها في مصطلح جديد تماما هو "طرد الهم" ويؤكد أنه قد توصل بخبرته الطويلة وتجاربه إلى أن هذا الغرض يصلح أن يكون هدفا أسمى للحياة الأخلاقية. وللتدليل على صحة رأيه، يؤكد ابن حزم أنه وجد أن الناس جميعا على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم يسعون إلى بلوغ هذا الهدف، ويتفقون على أنه هو غرضهم، في حين أن أي هدف آخر – بما فيه السعادة – يمكن أن يكون محل خلاف بينهم. يقول ابن حزم:

"تطلبت غرضا يستوى الناس كلهم في استحسانه، وفي طلبه، فلم أجده إلا واحدا، وهو طرد الهم. فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط، ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم، وتباين هممهم وإراداتهم لا يتحركون حركة أصلا الا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلا إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم: فمن مخطئ وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب وهو الأقل من الناس، في الأقل من أموره.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها، منذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهي عالم الابتداء[1]، ويعقبه عالم الحساب على ألا يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه، وكل غرض غيره ففي الناس من لا يستحسنه.

اذ في الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة.

وفي الناس من أهل الشر من لا يريد الخير، ولا الأمن، ولا الحق.

وفي الناس من يؤثر الخمول بهواه وارادته على بعد الصيت.

وفي الناس من لا يريد المال، ويؤثر عدمه على وجوده، ككثير من الأنبياء عليهم السلام، ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة.

وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه، ويستنقص طالبها. وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم، كأكثر من ترى من العامة.

وهذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها.

وليس في العالم منذ كان إلى أن يتناهي أحد يستحسن الهم، ولا يريد طرده عن نفسه"[2].

هذا – إذا أمكن القول – هو "نصف" نظرية ابن حزم. وقد حدد فيه بوضوح الهدف الأساسي والنهائي من الحياة الأخلاقية، مؤكدا على عمومية هذا الهدف أو عالميته، وصلاحيته لكل زمان ومكان.

---

(١) المقصود عالم الدنيا.

(٢) الأخلاق والسيرة، ص ٨٧، ٨٨.

لكن يبقى النصف الثاني، وهو يتمثل في توجيه الإنسان إلى تحقيق هذا الهدف، وإرشاده إلى الطريق المؤدية اليه. وفي هذا يقول ابن حزم:

"فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع، وانكشف لي هذا السر العجيب، وأنار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم، بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم، الذي هو المطلوب للنفس، الذي اتفق جميع أنواع الإنسان، الجاهل منهم والعالم، والصالح والطالح، على السعي له،فلم أجدها الا: التوجه إلى الله، عز وجل، بالعمل للآخرة.

وإلا، فإنما طلب المال طلابه ليطردوا به هم الفقر عن أنفسهم.

وإنما طلب الصوت (الصيت) من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها.

وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها.

وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل.

وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس، من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحد، ومغيب أحوال العالم عنه.

وإنما أكل من أكل، وشرب من شرب، ونكح من نكح، ولبس من لبس، ولعب من لعب، واكتن (استتر في منزل) من اكتن، وركب من

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ركب، ومشى من مشى، وتودع من تودع... ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم.

وفي كل ما ذكرنا، لمن تدبر، هموم حادثة لابد لها من عوارض تعرض في خلالها، وتعذر ما يتعذر منها، وذهاب ما يوجد منها، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة، وأيضا نتائج سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك، من خوف منافس، أو طعن حامد، أو اختلاس راغب، أو اقتناء عدو، مع الذم والإثم، وغير ذلك.

ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب، خالصا من كل كدر. موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة.

ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم، بل يسر، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب، وزائد في الغرض الذي إياه يقصد.

ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم، إذ ليس مؤاخذا بذلك، فهو غير مؤثر في ما يطلب.

ورأيته إن قصد بالأذى، وإن نكبته نكبة سر، وإن نكبته نكبة سر، وإن تعب فيما سلك فيه سر، فهو في سرور متصل أبدا، وغيره بخلاف ذلك أبدا[1].

(١) الأخلاق والسير، ص ٩٢، ٩٣.

وأخيرًا يلخص ابن حزم نظريته المبتكرة بجانبيها اللذين يتضمنان الهدف والوسيلة في قوله:

"فاعلم أنه مطلوب واحد، وهو طرد الهم.

وليس له الا طريق واحد، وهو العمل لله تعالى.

فما عدا هذا فضلال وسخف"[1].

وهكذا نعثر على تلك النظرية المبتكرة لابن حزم في السعادة، والتي "غابت" في تضاعيف التراث العربي والإسلام، الذي لم يستطع أبناؤه حتى اليوم أن يركزوا على معالمه المضيئة، وأن ينشروها بالتالي في العالم لكي يستفيد منها الجميع.

* *

(١) السابق، ص ٩٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

نقد أخلاق العصر عند ابن الجوزي

ابن الجوزي أحد أعلام الثقافة الإسلامية، ولد في بغداد سنة ٥١٠ هجرية، وقام بعدة رحلات في سبيل تحصيل العلم، ثم استقر في بغداد، وكانت وفاته بها سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

كانت مواهبه متعددة، فقد كتب في التفسير، وصنف في التاريخ كتاب (المنتظم) وألف في علم الحديث عدة كتب، أهمها كتاب (الموضوعات) تناول فيه الأحاديث التي وضعت بعد وفاة الرسول ﷺ ونقدها من حيث المتن والسند.

أما اهتمامه الرئيسي فقد كان موجهًا إلى جلاء العقلية الإسلامية. مما علاها من صدأ الأوهام، وتنقية الضمير الإسلامي مما شابه من الخرافات، لذلك عاش أكثر حياته التي قاربت التسعين، بين الناس، يراهم ويسمع منهم، وهو في ذلك يكتشف، ويحاول أن يصل إلى أصول كثير من أدواء المجتمع الإسلامي الذي كان حينئذ يترنح من حملات الصليبيين، ويتحامل على نفسه منتظرًا الضربة القاضية على أيدي التتار.

كانت الحضارة الإسلامية تنهار ــ في الوقت الذي اكتشف فيه ابن الجوزي أهم عوامل تدهورها، وهو فساد الأخلاق على كل

المستويات، الحكام، والعلماء، والصوفية، والتجار، والعامة، وعلى الرغم من أن الوقت لم يكن في صالحه، فقد بذل غاية ما يستطيع.

يروى ابن جبير في رحلته الشهيرة أن مجالس وعظ ابن الجوزي كانت تمتلئ بالتائبين، ويحكي هو عن نفسه أن أكثر من مائتي رجل قد أسلموا على يديه، وهذا يدلنا على ما كان يمتاز به من تأثير روحي على الجماهير.

والواقع أن كتبه كذلك زاخرة بدفء هذا التأثير، مع وضوح في عرض فكرته، وبساطة في لغته.

لم يكتف ابن الجوزي بطريقة الوعظ المباشر وحده، فقد وضع عدة كتب عن حياة أعلام الإسلام من أمثال: عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، وأحمد بن حنبل، وغيرهم لتكون نماذج يقتدى بها في مجال السلوك.

ومع ذلك فإن وعظه المباشر يمتاز بعدة خصائص تبعده عن الجفاف الذي يغلب على هذا اللون، فيحس القارئ له أنه أمام رجل مخلص في إسداء النصح، قوى الحجة في تقديم الأدلة، مدرك تمام الإدراك للطبيعة الإنسانية، وما فيها من جوانب القوة والضعف.

بالإضافة إلى ذلك، يكثر ابن الجوزي من الحديث عن تجاربه الشخصية في مجال الجهاد الخلقي، ويقدم أمثلة من حياته عن الميل إلى الشهوات، والضعف الإنساني بوجه عام، مما يجعل القارئ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يطمئن إلى أنه أمام شخص مثله، يواجه في الحياة ما يواجهه، ثم لا يلبث ابن الجوزي أن يأخذ بيده ــ في رفق وإقناع ــ إلى الطريق الصحيح.

لقد قيل: إن البحث الفلسفي في الإسلام قد اقتصر على الناحية النظرية العقلية، ولم يستطع الفلاسفة أن يعالجوا المسائل التي عرضتها لهم الحياة الواقعية من اجتماعية وسياسية، وذلك لبعدهم عن الأمور العملية(١).

وقد يكون هذا صحيحًا بالنسبة لأمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد الذين تأثروا كثيرًا بالفلسفة اليونانية، واشتهروا بأنهم فلاسفة الإسلام.

لكن التاريخ الفكري للحضارة الإسلامية يثبت أنه، بالإضافة إلى هؤلاء، ظهر، وحظي بنفوذ أوسع طائفة من المصلحين الدينيين والاجتماعيين، كانت لهم فلسفة تناولت جوانب الحياة العملية في مجتمعاتهم، وقدمت تصورًا شاملاً للإصلاح، ومن أمثلة هؤلاء: الماوردي، والغزالي، وابن تيمية، وابن الجوزي الذي سنخصص الجزء التالي لدراسة موقفه النقدي من عصره.

نقد أخلاق العصر:

من الأفضل أن نعتمد هنا على كتابين لابن الجوزي يبرزان هذا الجانب الذي أعطى له جزءًا كبيرًا من اهتمامه وعمره.

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٤٦ــ٤٧، ترجمة د. أبو ريدة.

أما الكتاب الأول فهو المسمى "تلبيس إبليس" ومعنى التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق، وقد يكون ظاهرًا أو خفيًا.

ومن الجدير بالذكر أن ابن الجوزي يبين أن إبليس إنما يقوى تلبيسه على قدر قوة الجهل في النفوس، وقد تتبع المظاهر التي يتمثل فيها هذا الداء لدى الفلاسفة، والمتكلمين، ومقرئي القرآن، والفقهاء، والوعاظ، والصوفية، واللغويين، والأدباء، والشعراء، والسلاطين والولاة، وأصحاب المناصب، والأغنياء، والفقراء، والنساء، والعامة.

ويلاحظ أنه ركز بصفة خاصة على الصوفية والزهاد، وكشف عن مواطن انحرافهم عن المبادئ الإسلامية الصافية في الحياة الدينية والاجتماعية، ويكاد يبلغ هجومه على الصوفية أكثر من ثلثي الكتاب ويعتمد ابن الجوزي فيه على كثير من النقول ليدعم بها آراءه الجريئة في نقد تلك الطوائف التي كان لها خطرها الكبير في المجتمع.

وأما الكتاب الثاني: "صيد الخاطر" ، فهو عبارة عن تأملات متفرقة في الشئون الدينية والاجتماعية والأخلاقية والفلسفية ــ كانت تسنح لابن الجوزي في أوقات هدوئه النسبي، وعندما لاحظ أهميتها من ناحية، وسرعة نسيانها من ناحية ثانية، بادر إلى تسجيلها في هذا الكتاب القيم الذي يحتوي على نظرات صائبة في أمور مازالت تتكرر حتى اليوم.

ويلاحظ أن النقول في هذا الكتاب تقل كثيرًا جدًّا عن الكتاب السابق، وهذا بالطبع ناتج عن اعتماد مادة "صيد الخاطر" بصفة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أساسية على الملاحظات الشخصية، والتجارب الذاتية التي مر بها ابن الجوزي.

وسوف نقوم فيما يلي بتصنيف الطوائف التي نقدها ابن الجوزي، ويلاحظ أننا استبعدنا نقده للفلاسفة والمتكلمين، نظرًا لما يتطلبه هذا النقد من الدخول في مشكلات عقلية خالصة، ونحن هنا نهتم، في المقام الأول، بنقد الواقع العملي.

نقد مقرئى القرآن:

تأمل ابن الجوزي حالة قراء عصره، فلاحظ عددًا من العيوب العلمية والأخلاقية يمكن إجمالها فيما يلي:

١- أن بعضهم يشتغل بالقراءات الشاذة وتحصيلها، فيفنى أكثر عمره في جمعها وتصنيفها والإقراء بها، ويشغله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات، فربما رأيت إمام مسجد يتصدى للإقراء ، ولا يعرف ما يفسد الصلاة، ولو تفكر مثل هؤلاء لعلموا أن المراد: حفظ القرآن، وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم العمل به، ثم الإقبال على ما يصلح النفس، ويطهر أخلاقها، قال الحسن البصري: "أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً"(١).

٢- أن أحدهم يقرأ في محرابه بالشاذ ويترك المتواتر المشهور، والصحيح عند العلماء أن الصلاة لا تصح بهذا الشباذ، وإنما

(١) تلبيس إبليس، ص ١١٢، ١١٣.

مقصود هذا إظهار الغريب لاستجلاب مدح الناس وإقبالهم عليه، وعنده أنه متشاغل بالقرآن، ومنهم من يجمع القراءات فيقول (ملك ــ مالك ــ ملاك) وهذا لا يجوز؛ لأنه إخراج للقرآن عن نظمه(١).

٣- أن بعضهم يكاد يجعل تلاوته القرآن على نمط تلحين الأغاني، وكلما قرب ذلك من مشابهة الغناء زادت كراهيته. والواقع أن جماعة من متقدمي القراء هم الذين (أحدثوا) قراءة الألحان ، وعلى الرغم من أنها كانت، إلى حد كبير، بصورة مقبولة، فقد كرهها الإمام أحمد بن حنبل وغيره، وأباحها الشافعي، لكن ابن الجوزي يرى أن الشافعي إنما أشار في إباحتها إلى ما كان في زمانه (النصف الثاني من القرن الثاني الهجري) وكانوا يلحنون يسيرًا، ولو رأى الشافعي حال التلاوة في عصر ابن الجوزي لما أباحها على الإطلاق! (٢).

٤- أن بعضهم يتسامح بشيء من الخطايا كأن يتناول زميلاً له في غيابه، وربما أتوا أكبر من ذلك الذنب، واعتقدوا أن حفظ القرآن يرفع عنهم العذاب، واحتجوا بقول الرسول: "لو جعل القرآن في إهاب ما احترق" وذلك من تلبيس إبليس عليهم؛ لأن عذاب من

(١) نفس المصدر، ص ١١٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١١٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يعلم أكثر من عذاب من يجهل ، فزيادة العلم تقوي الحجة، وكون القارئ لم يحترم ما يحفظ ذنب آخر[1].

نقد الفقهاء:

كان الفقهاء في صدر الإسلام هم أهل القرآن والحديث، فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون: يكفينا أن نعرف فقط آيات الأحكام من القرآن، وأن نعتمد فحسب على الكتب المشهورة في الحديث، ثم استهانوا بهذا الأمر أيضًا وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها، وبحديث لا يدري: أصحيح هو أم لا؟ وربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح وهو لا يعلم، لقلة معرفته بعلم الحديث، وإنما الفقه استخراج الأحكام من الكتاب والسنة، فكيف يستخرجها من شيء لا يعرفه[2].

وبالإضافة إلى هذا التقصير، لاحظ ابن الجوزي ــ في فقهاء عصره ــ عددًا من مظاهر الضعف العلمي والأخلاقي يمكن إجمالها فيما يلي :

١- أن معظم اعتمادهم على تحصيل علم الجدل، والاهتمام بمسائل عامة تتيح للناظر فيها التقدم عند الناس "فهمّ أحدهم بترتيب

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة،

(٢) تلبيس إبليس، ص ١١٨.

المجادلة والتفتيش على المناقضات طلبًا للمفاخرات والمباهاة وربما لم يعرف الحكم في مسألة صغيرة تعم بها البلوى"[1].

٢- أنهم يؤثرون القياس على الحديث المستدل به في مسألة ما، ليتسع لهم المجال في النظر العقلي، وإن استدل أحدهم بالحديث هُجن، ومن الأدب تقديم الاستدلال بالحديث[2].

٣- أن طلبهم للرئاسة بالمناظرة تثير غريزة حب الرئاسة الكامنة في النفس، فإذا وجد أحدهم في كلامه ضعفًا يتيح لخصمه أن ينتصر عليه خرج إلى المكابرة، فإن رأى خصمه قد استطال عليه بلفظ أخذته حمية الكبر فقابل ذلك بالسب، فصارت المجادلة مخاذلة[3].

٤- إن بعضهم يقدم على الفتوى وما بلغ مرتبتها بعد، وربما أفتى بعضهم بواقعاتهم المخالفة للنصوص، ولو توقفوا في المشكلات كان أولى، وقد روى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: ركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول"[4].

٥- أنهم جعلوا النظر في مسائل الخلاف جل اشتغالهم، ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن، وسماع الحديث، وسيرة

(١) نفس المصدر، ص ١١٩.

(٢) نفس المصدر، ونفس الصفحة.

(٣) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٤) نفس المصدر، ص ١٢٠، ١٢١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الرسول ﷺ وأصحابه، ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير، وهي محتاجة إلى التذكار والمواعظ لتنهض لطلب الآخرة[1].

والواقع أن هذه الحقيقة مما أدركه ابن الجوزي نتيجة تجربة، فهو يقول في "صيد الخاطر"[2]: "رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين الذين تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها، والمراد بها، وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق".

٦- ومن تلبيس إبليس على الفقهاء مخالطتهم الأمراء والوزراء والسلاطين ومداهنتهم وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك، وربما رخصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه، لينالوا من دنياهم عرضًا، فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه:

الأول: الأمير يقول: لولا أني على صواب لأنكر على الفقيه، وكيف لا أكون مصيبًا وهو يأكل من مالي؟!

الثاني: العامي أنه يقول: لا بأس بهذا الأمير ولا بماله ولا بأفعاله فإن فلانًا الفقيه لا يبرح من عنده.

(١) تلبيس إبليس، ص ١١٩.
(٢) صيد الخاطر، ص ٢١٦.

الثالث: الفقيه فإنه يفسد دينه بذلك[1].

٧- وأخيرًا لاحظ ابن الجوزي ميل صغار الفقهاء إلى التبسط في المنهيات: فبعضهم يلبس الحرير ويتحلى بالذهب إلى غير ذلك من المعاصي، وقد بحث عن السبب الذي يدفع هؤلاء لمثل هذه الأعمال فوجده متنوعًا.

فمنهم من يكون فاسد العقيدة في أصل الدين، وهو يتفقه ليستر نفسه، أو ليأخذ من الوقف، أو ليرأس، أو ليناظر.

ومنهم مَنْ عقيدته صحيحة، لكن يغلبه الهوى، وحب الشهوات، وليس عنده صارف عن ذلك؛ لأن نفس الجدل والمناظرة تحرك إلى الكبر والعجب، وإنما يتقوم الإنسان بالرياضة ومطالعة سير السلف.

ومنهم من يزين له إبليس بأنك عالم وفقيه ومفت، والعلم يدفع عن أربابه، وهيهات! فإن العلم أولى أن يلزم صاحبه الحجة، ويضاعف عذابه، قال الحسن البصري: "إنما الفقيه من يخشى الله"[2].

نقد الوعاظ:

وهذه الطائفة هي التي كانت ابن الجوزي يعد نفسه واحدًا منها، ويبدو أن إدراكه لدورها الذي كان من الممكن أن تؤديه في عصره جعله يفرد لها كتابًا سماه "كتاب القصّاص والمذكرين"[3]، تناول فيه

(١) نفس المصدر، ص ١٢٢، ١٢٣.
(٢) تلبيس إبليس، ص ١٢٣.
(٣) هذا الكتاب لم يصل إلينا.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

آداب الوعظ، وطرق أدائه، وكشف عن عيوبه وآفاته، وهو يذكر أن ما يعرضه هنا من آفات الوعاظ مقتطف من الكتاب المذكور، فمن ذلك:

١- أن بعض الوعاظ كانوا (يضعون) أحاديث الترغيب والترهيب، وأغراهم إبليس بأنكم إنما تقصدون حث الناس على الخير، وكفهم عن الشر.

وهذا افتئات منهم على الشريعة؛ لأنها عندهم ــ بهذه الصورة ــ ناقصة تحتاج إلى تتمة، ثم نسوا قول رسول الله ﷺ : "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"(١).

٢- ومنهم من يظهر من التواجد والتخاشع زيادة على ما في قلبه، وتدفعه كثرة الحاضرين إلى زيادة التصنع في هذا، وقد تسمح نفسه بفضل بكاء وخشوع، فمن كان منهم كاذبًا فقد خسر الآخرة ومن كان صادقًا لم يسلم صدقه من رياء يخالطه(٢).

٣- ومنهم من يزوق عبارات لا معنى تحتها، وأكثر كلامهم اليوم فى (موسى والجبل) و(زليخا ويوسف) ولا يكادون يذكرون الفرائض ولا ينهون عن ذنب، فمتى يرجع صاحب الزنا، ومستعمل الربا، وتعرف المرأة حق زوجها، وتحفظ صلاتها؟(٣).

(١) تلبيس إبليس، ص ١٢٤.
(٢) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(٣) تلبيس إبليس، ص ١٢٤، ١٢٥.

٤- ومنهم من يتكلم في الرجاء والطمع من غير أن يمزج ذلك بما يوجب الخوف والحذر، فيزيد الناس جرأة على المعاصي، ثم يقوى ما ذكر بميله إلى الدنيا من المراكب الفارهة، والملابس الفاخرة ، فيفسد القلوب بقوله وفعله(١).

والواقع أن تحقق المبادئ الأخلاقية في المصلح الأخلاقي أولاً ينبغي أن يسبق دعوته الناس إلى التمسك بها، وهذه نقطة تتصل بمنهج الإصلاح، ويمكن القول بأنها كانت ــ وما زالت ــ تقف وراء نجاح كل الدعوات الإصلاحية ، كما أن غيابها كان يؤدي دائمًا إلى فشل دعوات أخرى.

٥- كذلك لاحظ ابن الجوزي أن مما يسئ إلى مهمة الوعظ الأخلاقى اتخاذها وسيلة للاكتساب، فهو يقول: "ولقد ظهر في زماننا هذا من القصاص ما لا يدخل في التلبيس؛ لأنه أمر صريح من كونهم جعلوا القصص معاشًا يستمحنون به الأمراء والظلمة، والأخذ من أصحاب المكوس (الضرائب) والتكسب به في البلدان، وفيهم من يحضر المقابر فيذكر البلى وفراق الأحبة، فيبكي النسوة، ولا يحث على الصبر"(٢).

(١) نفس المصدر، ص ١٢٥.
(٢) نفس المصدر، ص ١٢٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

نقد الأدباء والشعراء:

أفرد ابن الجوزي لنقد كل من هاتين الطائفتين فصلاً خاصًا لكننا نلاحظ أنه لم يعطهما الاهتمام الذي أعطاه لغيرهما، لذلك وضعناهما تحت عنوان واحد.

وأهم ما انتقد فيه ابن الجوزي الأدباء وأهل اللغة أنه رأى فيهم كبرياء عظيمة، وهو يرجعها إلى اعتقادهم بأن الأدب والنحو واللغة من علوم الإسلام، وبها يعرف معنى القرآن العزيز.

ويوافقهم ابن الجوزى على هذا، لكنه يرى أن المهم في معرفة اللغة والنحو هو ما يقيم اللسان فقط، ثم إن ما بعد ذلك هو من فضول العلم التي يعد غيرها أهم منها بكثير(١).

ولا شك في أن ابن الجوزي لا يغض من قيمة هذه العلوم في حد ذاتها، وإنما يحاول هنا أن ينبه أصحابها المتكبرين فقط إلى أنهم يقفون في بداية طريق العلم الطويل، ومن الأجدر بهم أن يهدهدوا من كبريائهم التي لا مبرر لها.

أما الشعراء فمن أطرف ما لاحظه ابن الجوزي ظاهرة شكواهم وتسخطهم ولومهم الأقدار، إذا ضاق بهم رزق، كقول بعضهم:

لئن سمت همتي في الفضل عالية ... فإن حظى ببطن الدهر ملتصق

كم يفعل الدهر بي ما لا أسر به ... وكم يسئ زمان جائر حنق

(١) تلبيس إبليس، ص ١٦٢.

ويعلق ابن الجوزي على ذلك قائلاً: إن هؤلاء نسوا أن معاصيهم هي التي تضيق أرزاقهم فهم لا يتحاشون من لبس الحرير، والكذب في المدح، ولا يتورعون عن حكاية اجتماعهم على الفسق وشرب الخمر، ثم على أي شيء رأوا أنفسهم مستحقين للنعم، مستوجبين السلامة من البلاء(١).

فهل بمكن القول بأن ابن الجوزي كان يرجو من شعراء عصره أن يساهموا في إصلاح مجتمعهم عن طريق الكلمة الموجهة، والقدوة الطيبة، في الوقت نفسه؟!

نقد الصوفية:

يرى ابن الجوزي أن التصوف "طريقة" كان ابتداؤها " الزهد الكلى"، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص في حلقاتهم : مال إليها طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليها أيضًا طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللهو(٢).

ثم يبين التطور الذي أدى إلى هذه الظاهرة، فيقول: إن النسبة في زمن الرسول ﷺ كانت إلى الإيمان والإسلام، فيقال: (مسلم ومؤمن) ثم حدث اسم (زاهد وعابد)، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا

(١) السابق، ص ١٦٣.

(٢) السابق، ص ١٦٣، وانظر تفصيلاً أكثر لهذا الموضوع في كتابنا "معالم التصوف الإسلامي" الفصل الأخير بعنوان "نقد التصوف" .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها فسموا (صوفية أو متصوفة).

وقد اختلف في منشأ تسمية هذه الظاهرة باسم (التصوف). وابن الجوزي يرجح أنها تعود إلى "أهل الصُّفّة" وكانوا جماعة فقراء يقدمون على الرسول ﷺ وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صُفّة (بضم الصاد) – مظلة أو تعريشة – في مسجده، وقيل عنهم: أهل الصفة[1].

لكن ابن الجوزي يؤكد أن هذا اللقب لم يظهر إلا في أواخر المائة الثانية من الهجرة، ولما ظهر أوائلهم تكلموا به، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة[2]، وحاصلها: أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المديح في الدنيا، والثواب في الآخرة[3].

وعلى هذا كان أوائل الصوفية.. فلبَّس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد طمعه في

(١) تلبيس إبليس، ص ١٦٢.
(٢) أورد المستشرق الإنجليزي، نيكلسون للتصوف حوالي مائتي تعريف (باللغة العربية فقط) في كتابه: التصوف الإسلامي وتاريخه، الترجمة ص ٢٨ــ٤١.
(٣) تلبيس إبليس، ص ١٦٣.

القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

والواقع أن ابن الجوزي قد اختص صوفية عصره بحملة عنيفة، ويبين عنفها مقدار ما وصلت إليه هذه الطائفة من نفوذ، كما يدل على مدى ما انحطت إليه من مفاسد دينية وأخلاقية.

يقوم نقد ابن الجوزي للصوفية على منهجين: أحدهما عقلي يعتمد على مناقشة حججهم، وبيان ما وقعوا فيه من أخطاء كدعوى انصرافهم عن العلم، والاقتصار على العمل، وفصلهم بين علم الظاهر وعلم الباطن، وسوء فهمهم لمعنى التوكل... إلخ.

أما المنهج الآخر فيعتمد على إيراد النقول الدينية من القرآن والسنة وسير السلف في مواجهة ذلك الحشد الهائل من التراث الصوفي الذي خلفه شيوخ الصوفية، وصار الأتباع يتلقونه عنهم في تقديس، ثم يحتجون به في عناد.

ويمكن الوقوف على أحد تطبيقات هذا المنهج الثاني من النموذج التالي الذي يتناول بعض مظاهر الصوفية الاجتماعية، وعلاقتها بالصدق مع النفس، يقول ابن الجوزي: "تأملت على متزهدي زماننا أشياء تدل على النفاق والرياء، وهم يدعون الإخلاص: منها أنهم يلزمون زاوية، فلا يزورون صديقًا، ولا يعودون مريضًا، ويدعون أنهم يريدون الانقطاع عن الناس اشتغالاً بالعبادة، وإنما هي إقامة نواميس ليشار إليهم بالانقطاع، إذ لو مشوا بين الناس زالت هيبتهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولما كان الناس كذلك، كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشتري الحاجة من السوق، وأبو بكر يتجر في البز (بفتح الباء: الحرير) وأبو عبيدة بن الجراح يحفر القبور، وابن سيرين يغسل الموتى، وما كان عند القوم إقامة ناموس.

وأصحابنا يلزمون الصمت بين الناس والتخاشع والتماوت، وهذا هو النفاق، فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار، وبين الناس، ويبكي بالليل.

وقد رأيت من المتزهدين من يلزم المسجد ويصلي، فيجتمع الناس فيصلون بصلاته ليلاً ونهارًا، وقد شاع هذا له فتقوى نفسه عليه بحب المحمدة والنبي ﷺ قال في صلاة التطوع: "اجعلوا هذه في البيوت".

وفي أصحابنا من يظهر الصوم الدائم، ويتقوت بقول الناس: فلان ما يفطر أصلاً، وهذا الأبله ما يدري أنه لأجل الناس يفعل ذلك.

وفيهم من يأخذ الصدقات وهو غني، ولا يبالي: أخذ من الظلمة أو من أهل الخير؟ ويمشي إلى الأمراء يسألهم، وهو لا يدري: من أين حصلت أموالهم؟

وقد بلغنا أن أحد الصوفية دخل على أمير ظالم فوعظه، فأعطاه شيئًا فقبله، فقال الأمير: "كلنا صيادون، وإنما الشباك تختلف"[1].

(١) تلبيس إبليس، ص ١٨٥.

ثم يعلق ابن الجوزي على هذه الملاحظات بقوله: "فالله الله في إصلاح النيات، فإن جمهور هذه الأعمال مردود، وليعلم المرائي أن الذي يقصده يفوته، وهو التفات القلوب إليه، فإنه متى لم يخلص حرم محبة القلوب، ولم يلتفت إليه أحد، والمخلص محبوب، فلو علم المرائي أن قلوب الذين يرائيهم بيد من يعصيه لما فعل، وكم رأينا من يلبس الصوف، ويظهر النسك لا يلتفت إليه، وآخر يلبس جيد الثياب ويبتسم، والقلوب تحبه[1].

نقد السلاطين والولاة:

يقصد ابن الجوزي بالسلاطين: الأتراك السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية منذ عام ٤٤٧ هجرية، واستمر نفوذهم أكثر من قرنين، تعرض العالم الإسلامي فيهما لأهم موجتين من موجات التدمير في تاريخه القديم، وهما الحملات الصليبية التي استولت على بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ، وزحف التتار الذي اكتسح مدينة بغداد سنة ٦٥٦هـ.

وقد أثبت التاريخ أن نظام الإقطاع الذي أقره السلاجقة ونشروه كان أهم عوامل ضعفهم[2] والواقع أن ابن الجوزي أدرك هذا العامل أثناء نقدهم لهم، حين ذكر أن إبليس قد زين لهم الانبساط في أموال

(١) صيد الخاطر، ص ٣٨٧.

(٢) انظر ص ١٧٥ــ١٨٧، من كتاب "الخلافة والدولة في العصر العباسي"، ط أولى، للأستاذ الدكتور محمد حلمي محمد، حيث يكشف عن أسباب ضعف السلاجقة بالتفصيل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المسلمين ظنًّا منهم أنها تحت حكمهم، وهذا تلبيس يكشفه وجوب الحجر على المفرط في مال نفسه، فكيف بالمستأجر في حفظ مال غيره.

وإن من له حق المال يقدر عمله فلا وجه للانبساط، وقد يزين لبعضهم منع المستحقين، وهو نظير التبذير[1].

كذلك يرى ابن الجوزي أن إبليس قد زين لهم استجلاب الأموال واستخراجها بالضرب العنيف، وأخذ كل ما يملكه الخائن واستخلافه، وإنما الطريق إقامة البينة على الخائن، وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز أن أحد ولاته كتب إليه: أن قومًا خانوا في مال الله، ولا أقدر على استخلاص ما في أيديهم، إلا أن أنالهم بعذاب، فكتب إليه: لأن يلقوا الله بخيانتهم أحب إليَّ من أن ألقاه بدمائهم[2].

بالإضافة إلى ما سبق، لاحظ ابن الجوزي على سلاطين عصره وولاتهم عددًا من الخصال، نجملها فيما يلي:

١- أنهم – على الرغم من قيام حكمهم على نظام الإرث الذي لا يقره الإسلام – يعتقدون أن الله يحبهم، ولولا ذلك ما ولاهم سلطانه، ولا جعلهم نوابًا عنه في عباده. ويوضح ابن الجوزي أنهم لو كانوا نوابًا عنه في الحقيقة لحكموا بشرعه واتبعوا مراضيه،

(١) تلبيس إبليس، ص ١٣٧.

(٢) تلبيس إبليس، ص ١٣٣.

فحينئذ يحبهم لطاعته، فأما صورة الملك والسلطنة فإنه قد أعطاها خلقًا ممن يبغضهم، وقد بسط الدنيا لكثير ممن لا ينظر إليه!.

٢- أنهم يرون أن الولاية تتطلب مزيدًا من الهيبة، فيتكبرون عن طلب العلم، ومجالسة العلماء، فيعملون بآرائهم، فيتلفون الدين، والمعلوم أن الطبع يسرق من خصال المخالطين، فإذا خالطوا مؤثري الدنيا، الجهال بالشرع سرق الطبع من خصالهم، مع ما عنده منها، ولا يرى ما يقاومها ولا ما يزجره عنها، وذلك سبب الهلاك.

٣- أنهم يخافون الأعداء، فيضطرون إلى تشديد الحجاب فلا يصل إليهم أهل المظالم، وفي هذه الظروف قد يهمل المكلف برفع الظلم إليهم، وقد روى عن الرسول ﷺ: "من ولاه الله شيئًا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله، عز وجل ، دون حاجته وخلته وفقره"[1].

٤- أنهم يطعمون من لا يصلح ممن لا علم عنده ولا تقوى، فيجتلب الدعاء عليهم بظلمه الناس، ويطعمهم الحرام بالبيوع الفاسدة ويعاقب من لا يجب عليه العقاب، ويظنون أنهم يتخلصون من الله، عز وجل، مما جعلوه في عنق الوالي – هيهات – إن العامل على الزكاة إذا وكل الفساق بتفرقتها فخانوا ضمن.

(١) تلبيس إبليس، ص ١٣٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٥- أن إبليس قد يلبس على أكثرهم بأنه قد قام بما يجب من جهة أن ظواهر الأحوال مستقيمة، ولو حقق النظر لرأي اختلالاً كثيرًا، وقد روى عن علي بن عيسى الوزير أنه وظف رجلاً يطوف على باعة العنب فإذا اشترى أحد سلة عنب خمري لم يعرض له، وإن اشترى سلتين فصاعدًا طرح عليها الملح لئلا يتمكن من عملها خمرًا، وكان بعض الحكام يمنع المنجمين من القعود في الطريق حتى لا يفشوا العمل بالنجوم(١).

٦- وأخيرًا، يلاحظ ابن الجوزي أن بعض الولاة يعمل لمن فوقه فيأمره بالظلم فيظلم، ويوهمه إبليس بأن الإثم على الأمير، لا عليك.

ويصرح ابن الجوزي بأن هذا باطل؛ لأنه معين على الظلم، وكل معين على المعاصي عاص، فإن الرسول ﷺ لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه.

ومن ذلك أن يجبى المال لمن هو فوقه، وقد علم أنه يبذر فيه ويخون، فهذا معين على الظلم، قال مالك بن دينار: "كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينًا للخونة"(٢).

نقد أصحاب المناصب (المسئولين فى الدولة) :

يقول ابن الجوزي: "مازلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب أنهم يشربون الخمر ويفسقون، ويظلمون ويفعلون أشياء

(١) تلبيس إبليس، ص ١٣٣.
(٢) نفس المصدر، ص ١٣٤.

توجب الحدود، فبقيت أتفكر وأقول: متى يثبت على هؤلاء ما يوجب حدًا؟ ولو ثبت فمن يقيمه؟ وأستبعد هذا في العادة؛ لأنهم في مقام احترام لأجل مناصبهم.

فبقيت أتفكر في تعطيل الحد الواجب عليهم، حتى رأيناهم وقد نكبوا وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجائب، فقوبل ظلمهم بأخذ أموال، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل، والقيد الثقيل، والذل العظيم، وفيهم من قتل بعد ملاقاة كل شدة، فعلمت أنه ما يهمل شيء"(١).

ومن الواضح أن طريقة ابن الجوزي في الإصلاح تتخذ هنا شكلاً يختلف تمامًا عن الوعظ المباشر، فهي تعتمد في تنبيه المنحرفين وزجرهم على اطراد قانون العدالة الإلهية الذي لا يخطئ أبدًا، وإذا أمهل بعض مرتكبي المعاصي لفترة من الوقت، فإنه لا يهملهم بحال ما إلى الأبد.

نقد الأغنياء:

يطلق عليهم ابن الجوزي "أصحاب الأموال" ويعني بهم: التجار، وأصحاب الصناعات، والمزارع وغيرها، ويتجه نقده لهذه الطوائف على أساس أموالهم: من أين اكتسبوها؟ وكيف يبخلون بها؟ وما هو الشعور الذي يملؤهم نتيجة الحصول عليها؟ وفي أي الجهات ينفقونها؟

(١) صيد الخاطر، ص ١٥٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأما من جهة كسبها، فقد أصبحوا لا يبالون كيف حصلت؟ وقد فشا الربا في معاملاتهم وأنسوه، حتى إن جمهور معاملاتهم قد أصبحت خارجة عن الإجماع[1].

وأما من حيث البخل بها فمنهم من لا يخرج الزكاة أصلاً، اتكالاً على العفو، ومنهم من يخرج بعضها ثم يغلبه البخل فيظن أن ما أخرجه يدفع عنه، ومنهم من يحتال لإسقاطها مثل أن يهب المال قبل الحول (العام) ثم يسترده، ومنهم من يحتال بإعطاء الفقير ثوبًا يقومه عليه بعشرة دنانير وهو يساوي دينارين، ويظن أنه بذلك الجهل قد تخلص، ومنهم من يخرج الردىء مكان الجيد، ومنهم من يعطي الزكاة لمن يستخدمه طول السنة فهي على الحقيقة أجرة[2].

أما من حيث التكبر بالمال نتيجة الحصول عليه، فإن الغني يرى نفسه خيرًا من الفقير، وهذا جهل؛ لأن الفضل إنما يكون بفضائل النفس اللازمة لها، لا بجمع حجارة خارجة عنها[3].

وأخيرًا من حيث إنفاق الأموال على وجه التبذير والإسراف، تارة في البنيان الزائد على مقدار الحاجة وتزويق الحيطان، وزخرفة البيوت وعمل الصور، وتارة في الزي الخارج بصاحبه إلى الزهو والخيلاء، وتارة في المطاعم الخارجة إلى السرف، وهذه الأفعال لا

(١) تلبيس إبليس، ص ٣٩٥.
(٢) نفس المصدر، ص ٣٩٦.
(٣) نفس المصدر، ونفس الصفحة.

يسلم صاحبها من فعل محرم أو مكروه، وهو مسئول عن جميع ذلك[1].

نقد الفقراء:

من الغريب حقًا أن يشمل نقد ابن الجوزي هذه الطائفة التي قد توحي حالتها أو حتى مجرد اسمها بغض الطرف عنها، والتوجه كلية إلى الأغنياء لعطف قلوبهم عليها.

ولكن ابن الجوزي الذي عايش الناس على اختلاف طبقاتهم، وكثيرًا ما استمع إلى شكواهم، واطلع على دخائل نفوسهم، قد لاحظ أنه في داخل طائفة الفقراء أنفسهم توجد جماعة من الأغنياء لكنهم يفضلون أن يظهروا دائمًا بمظهر الفقر، والدوافع مختلفة، فمنهم من يظهر الفقر وهو غنى، فإن أضاف إلى هذا سؤال الناس والأخذ منهم، فإنما يستكثر من نار جهنم قال رسول ﷺ : "من سأل الناس أموالهم تكثرًا فكأنما يسأل جمرًا، فليستقل منه أو ليستكثر"[2].

وإن لم يقبل هذا الرجل من الناس شيئًا، وكان مقصوده بإظهار الفقر أن يقال: رجل زاهد، فقد راءى.

وإن كتم نعمة الله عنه ليظهر عليه الفقر، حتى لا يضطر إلى الإنفاق، فقد جمع إلى البخل، الشكوى من الله.

(١) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(٢) تلبيس إبليس، ص ٣٩٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أما الفقراء الحقيقيون، فالمستحب لهم كتمان الفقر ــ ما أمكن ــ وإظهار التجمل، فقد كان في السلف من يحمل مفتاحًا يوهم أن له دارًا، وهو لا يبيت إلا في المساجد.

ومن تلبيس إبليس على الفقراء أنهم يرون أنفسهم خيرًا من الأغنياء، وهذا غلط فإن الخيرية ليست بالوجود والعدم، وإنما هي بأمر وراء ذلك[1].

نقد النساء:

يذكر ابن الجوزي أن تلبيس إبليس على النساء كثير جدًّا، وأنه قد أفرد كتابًا للنساء ذكر فيه ما يتعلق بهن من جميع العبادات وغيرها[2]، وقد اقتطف منه هنا بعض النقدات التي وجهها، بصفة خاصة إلى الزوجات وهي تتمثل في أصل عام هو إساءة الزوجة معاملة زوجها، وربما كلمته بالمكروه، وتقول: هذا أبو أولادي، وما بيننا تحفظ!

وقد تخرج بغير إذنه، وتقول: ما خرجت في معصية، ولا تعلم أن خروجها بغير إذنه معصية.

وقد تفرط الزوجة في مال زوجها، وليتها تعلم أنه لا يحل لها أن تخرج من بيته شيئًا إلا أن يأذن لها، وتعلم رضاه.

(١) نفس المصدر، ص ٣٩٩.

(٢) لم يصلنا هذا الكتاب.

وقد تعطي من ينجم لها بالحصى ويسحر، ومن تعمل لها نسخة محبة وعقد لسان، وكل هذا حرام.

وفيهن من تلازم القبور، وتلزم نفسها الحداد على أحد أقاربها، وقد روى عن رسول الله ﷺ : "لا يحل لامرأة تؤمن بالله ورسوله أن تحد على ميت ــ إلا على زوج ــ أربعة أشهر وعشرًا".

نقد العامة:

أهم ما استنكره ابن الجوزي على العامة هو ما جروا عليه من التقليد "فهم يقلدون الآباء والأسلاف في اعتقادهم على ما نشأوا عليه من العادة، فترى الرجل منهم يعيش خمسين سنة على ما كان أبوه، ولا ينظر أكان على صواب أم خطأ؟

ولا يقتصر تقليدهم على العقائد، وإنما يشمل كذلك أمور الدين العملية، فترى أكثر المسلمين يجرون في صلاتهم وعباداتهم، مع العادة: يعيش الرجل سنين يصلي على صورة ما رأى الناس يصلون، ولعله لا يقيم الفاتحة ولا يدري ما الواجبات ولا يسهل عليه أن يعرف ذلك هوانًا بالدين، ولو أنه أراد تجارة لسأل قبل سفره عما ينفق في ذلك البلد[1].

ومما يتصل بتقليد العامة: تقديمهم المتزهدين على العلماء ، فلو رأوا جبة صوف على أجهل الناس عظموه، خصوصًا إذا طأطأ رأسه

(١) تلبيس إبليس، ص ٣٩٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتخشع لهم، ويقولون: أين هذا من فلان العالم؟ ذلك طالب الدنيا، وهذا زاهد لا يأكل عنبة ولا رطبة، ولا يتزوج أبدًا ــ جهلاً منهم بفضل العالم على الزاهد، وإيثارًا للمتزهدين على شريعة محمد ﷺ [1].

ويبلغ ابن الجوزي غاية تهكمه من أمثال هؤلاء قائلاً: ومن نعم الله على هؤلاء أنهم لم يدركوا رسول الله ﷺ إذ لو رأوه يكثر التزويج، ويأكل لحم الدجاج، ويحب الحلوى، لم يعظم في صدورهم"[2].

ومن جريان العامة مع العادات كثرة الأيمان الحانثة، ولبس الحرير، والتختم بالذهب، وإهمال الإنكار على من يرتكب المنكر حتى إن الرجل يرى أخاه أو قريبه يشرب الخمر، ويلبس الحرير فلا ينكر عليه، ولا يتغير، بل يخالطه مخالطة حبيب[3].

وقد غلب الغش على أكثر معاملاتهم، فقلما باعوا شيئًا إلا وفيه غش، ويغطيه عيب ، والجلاء يغطي عيوب الذهب الرديء، حتى إن المرأة تضع الغزل في الأنداء، وتنديه ليثقل وزنه.

كما لاحظ ابن الجوزي اهتمام كل فرد من العامة بمصالحه الخاصة، دون أن يراعي في تحقيقها مصالح المجتمع. ومن ذلك أن

(١) نفس المصدر، ص ٣٩٩.
(٢) تلبيس إبليس، ص ٣٩٠.
(٣) نفس المصدر، ص ٤٠٠، ٤٠١.

يبني الرجل على باب داره مصطبة يضيق بها طريق المارة[1]، وكذلك الامتناع عن المساهمة في خدمة الآخرين، ومن ذلك أن يجتمع على باب داره ماء المطر ويكثر، فيجب عليه إزالته، فإذا لم يفعل أثم بكونه كان سببًا في أذى المسلمين[2] !

ويحذر ابن الجوزي من عادة سيئة بين العمال في عصره، ومن ذلك أن الرجل يستأجر ليعمل طول النهار، فيضيع كثيرًا من الزمان، إما بالتثبط في العمل، وإما بالبطالة، أو بإصلاح آلات العمل مثل أن يحد النجار الفأس، والشقاق المنشار ومثل هذا خيانة ــ إلا أن يكون يسيرًا قد جرت العادة بمثله[3].

كما يهاجم ابن الجوزي عادات العامة في المآتم: المغالاة في ثمن الكفن، وإقامة النوح على الميت، ولطم النساء خدودهن، وتمزيق ثيابهن، ثم زيارة المقابر في أوقات معلومة من السنة[4]، والعجب ممن يقول: "أخرج إلى المقابر فأعتبر بأهل البلى، ولو فطن علم أنه مقبرة يغنيه الاعتبار بما فيها من غيرها"[5].

وأخيرًا، ينبه ابن الجوزي الناس في عصره إلى (قيمة الوقت)، والواقع أن احترام هذه القيمة يعد حجر الزاوية في تقدم الأمم،

(١) نفس المصدر، ص ٤٠١.
(٢) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(٣) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(٤) نفس المصدر، ص ٤٠٢.
(٥) نفس المصدر، ٣٦٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وازدهار الحضارات، ويمكن القول بأنك لا تجد الوقت ضائعًا إلا لدى الشعوب المتخلفة، يقول ابن الجوزي: "ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين والغلاء والرخص، إلى غير ذلك"(١).

ومن الطريف أن جماعة من هؤلاء الفارغين قد تعودوا زيارة ابن الحوزي في منزله، وكانوا "يطلبون الجلوس" ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يغني، وما يتخلله من غيبة" فثقل عليه ذلك، ووقف حائرًا بين تصرفين:

أن ينكر عليهم الزيارة، فيستجلب وحشة قلوبهم.

أو يقبل منهم ذلك، فيضيع وقته.

وهو يصف حالته حينئذ فيقول: "فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلب قصرت في الكلام، لأتعجل الفراق".

ثم اكتشف حلاً وسطًا، وهو أن يعد لأوقات زيارتهم أعمالاً تمنع من المحادثة، ويكون لها فائدة في عمله العلمي "مثل قطع الكاغد (الورق) وبرى الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها،

(١) صيد الخاطر، ص٢٢٨، بتحقيق الأستاذ محمد الغزالي، ط القاهرة.

ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي".

وأخيرًا، يتوجه ابن الجوزي بالدعاء قائلاً: "نسأل الله، عز وجل، أن يعرفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه".

* *

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أخلاق الوظيفة عند السبكى

ولد عبد الوهاب السبكى ، الملقب بـ "تاج الدين السبكى" بالقاهرة سنة ٧٢٧هـ . وقد نشأ فى بيت علم وفضل . فأبوه هو : تقى الدين السبكى ، قاضى القضاة بمصر . وعندما انتقل الأب إلى الشام ليتولى قضاءها ، اصطحب ابنه عبد الوهاب، حيث استقر هناك فى دمشق ، متخذًا منها وطنه الثانى . وحين أرهقت الشيخوخة الأب ، تنازل لابنه عن منصب القضاء سنة ٧٥٦هـ ، فقام بأعبائه عن جدارة ، واستمر فيه حتى أصابه الطاعون ، وهو بمنزلة ، بإحدى ضواحى دمشق ، سنة ٧٧١هـ. وبذلك يكون قد توفى عن عمر لا يتجاوز أربعًا وأربعين سنة[١] .

لم يسلم عبد الوهاب السبكى من مكائد الطامعين فى منصب القضاء الذى تولاه ، فتعرض للعزل عدة مرات ، نتيجة اتهامات زائفة ، لكنه كان يعود إليه مكرمًا فى كل مرة . كذلك مارس عبد الوهاب السبكى مهنة التدريس ، فى أشهر مدارس دمشق حينئذ (العادلية ، والغزالية ، والأمينية ، والناصرية ، والشامية ، ودار

(١) انظر تحقيق سنة المولد ، والوفاة فى كتاب "البيت السبكى" للأستاذ محمد الصادق حسين، ص١٤ – دار الكاتب المصرى – القاهرة ١٩٤٨ .

الحديث الأشرفية) ويروى أن خطبة الجمعة ، التى كان يلقيها فى الجامع الأموى بدمشق ، كانت تحظى بإعجاب شديد من معاصريه[١].

تدور معظم مؤلفات عبد الوهاب حول الفقه الشافعى ، وعلم أصول الفقه[٢] . وقد دفعه اقتناعه الشديد بمذهب الشافعى ، وحبه له ، إلى أن يؤلف موسوعة ضخمة بعنوان "طبقات الشافعية الكبرى"[٣] استقرأ فيها تراجم فقهاء المذهب الشافعى ، وأتباعه من كبار الشخصيات الإسلامية حتى عصره . وما زالت هذه الموسوعة من أهم كتب التراجم التى يرجع إليها الدارسون فى وقتنا الحاضر.

كتاب معيد النعم ومبيد النقم :

أما كتاب السبكى المسمى "معيد النعم ومبيد النقم"[٤] والذى نعتبره أحد المصادر الهامة فى مجال الأخلاق العملية ، فقد جاء تأليفه إجابة عن سؤال عابر ، يقول فيه صاحبه :

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ج١ ، ص١٨٣ ، ط. القاهرة ١٢٩٩هـ .

(٢) له فى أصول الفقه كتاب "جمع الجوامع" الذى ظل يدرس فى الأزهر لفترة طويلة جدًا ، وحتى عهد قريب – انظر "البيت السبكى" ، ص٢٠ .

(٣) طبعت فى القاهرة سنة ١٣٢٤هـ ، ثم قام بتحقيقها أخيرًا الأستاذان عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحى ، ط. الحلبى ١٩٦٦ .

(٤) حققه وضبطه وعلق عليه الأساتذة : محمد على النجار ، أبو زيد شلبى ، محمد أبو العيون . وقد اعتمدنا فى هذا البحث على طبعته الأولى سنة ١٩٤٨ – مكتبة الخانجى بالقاهرة ، والمتنبى ببغداد .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

– هل يوجد طريق ، بالنسبة لمن سُلب نعمة ، دينية أو دنيوية ، إذا سلكها عادت تلك النعمة إليه ، وردت عليه ؟

وكانت إجابة السبكى على النحو التالى :

طريقه أن يعرف

أ–من أين أتى ، فيتوب (أى من أى نقطة ضعف سقط فى المعصية؟).

ب–ويعترف بما فى المحنة من الفوائد ، فيرضى بها.

ج–ثم يتضرع إلى الله ، تعالى ، بالطريق التى نذكرها .

هذه ثلاثة أمور هى طريق (هذا الشخص) التى يحصل بمجموعها على دواء مرضه ، ويعقبها زوال علته ، بعضها مترتب على بعض ، لا يتقدم ثالثها على ثانيها ، ولا ثانيها على أولها[1] .

ويبدو أن السائل لم يقتنع بهذه الإجابة المختصرة ، فعاد يطلب من السبكى توضيحًا أكثر ، وهو الأمر الذى دفعه إلى أن ينهض لوضع هذا الكتاب ، الفريد حقا فى بابه ، والذى يتناول فيه الواجبات الأخلاقية لأكثر من مائة وظيفة فى الدولة ، وحقوق المجتمع الإسلامى على من يتولى هذه الوظائف .

ولا شك أن هذا الكتاب يعتبر أيضًا مصدرًا أساسيًا لكل من علماء التاريخ ، والاجتماع ، والإدارة فهو يقدم لكل منهم معلومات

(١) معيد النعم ، ص١ .

على قدر كبير من الأهمية ، وخاصة فيما يتعلق بنظام الدولة فى عصر السلاجقة ، والعلاقات المتشابكة بين أصحاب الحرف ، والأسلوب الذى كانت تدار به .

لكن ما يهمنا منه هو الجانب الأخلاقى ، الذى يتجلى فى ربط فكرة أداء الوظيفة أو العمل بالضمير الدينى ، والنقد اللاذع الذى يتبدى فى كثير من المواضع لانحرافات خطيرة تمس جوهر الدين من ناحية ، وطريقة تطبيقه فى حياة الفرد والجماعة من ناحية أخرى .

يرى السبكى أن مسئولية الموظف فى الدولة مسئولية مضاعفة، فهو من ناحية مسئول عن أداء عمله المكلف به ، على النحو الموضح له من رؤسائه ، أو من يحق لهم مساءلته ، ومن ناحية أخرى ، يعتبر الموظف مسئولاً أمام ضميره الدينى الذى يتصل مباشرة بمصلحة المسلمين ، ولا شك فى أن المساءلة ، من هذا الجانب ، تكاد تكون غائبة ، وخاصة من الناحية الظاهرية ، لكن غيابها لا يعنى أبدًا سقوطها عن المسلم ، الذى يتولى وظيفة عامة ، ترتبط ارتباطًا مباشرًا بمصالح المسلمين . والواقع أن الموظف عندما يراعى فى أداء عمله ذلك الجانب الخفى ، فإنما يراعى – فى نفس الوقت – حق الله ، تعالى ، عليه ، ويؤدى له ما يجب من الشكر فى مقابل نعمة الوظيفة التى أنعم بها عليه .

وهكذا نجد السبكى يقرر أن أى إنسان يتقلد منصبًا ، أو يمارس مهنة ، عليه أن يدرك جيدًا أنه فى نعمة إلهية . والدليل على

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك ، أن هذه النعمة – مهما كانت بسيطة أو متواضعة – لن يحس بقيمتها الحقيقية إلا بعد أن تزول عنه ، أو يعزل منها . لذلك ينبغى عليه الشكر الدائم لله عليها[1] .

ويؤكد السبكى أن زوال النعم إنما يأتى من طريق التقصير أو الإخلال بحقوقها : أى بعدم الشكر عليها. وقد روى أن "النعمة إذا شكرت قرت ، وإذا كفرت فرت" ، وقيل : لا زوال للنعمة إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت"[2] . والحاصل أن كتاب الله ، وسنة رسوله دالان على أن كفران النعمة يؤذن بزوالها ، وشكرها يقضى بمزيدها[3] .

وقد ذكر العارفون أن الرب قطع (أى أكد وجزم) بالمزيد مع الشكر ، ولم يستثن فيه ، واستثنى فى خمسة أشياء : فى الاغتناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة . فقال تعالى :

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء﴾[4]

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء﴾[5]

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاء﴾ [6]

(١) معيد النعم ، ص٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص٣ .
(٣) نفس المصدر ، ص٣ .
(٤) سورة التوبة ، الآية ٢٨ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية ٤١ .
(٦) سورة البقرة ، الآية ٢١٢ .

﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء﴾[1]

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء﴾[2]

وقال فى الشكر من غير استثناء :

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3]

وسائل الشكر ، ومراتبه :

يرى السبكى أن الشكر إنما يتم بوسيلة من ثلاث : القلب ، واللسان ، والأفعال (الجوارح). وهو يقرر أن شكر القلب هو الأعظم. فكيف يكون هذا الشكر ؟

يكون شكر القلب باعتقاد أن الله ، تعالى ، هو مانح النعمة ، لا أحد غيره ، فالخير كله من الله ، وهو إنما يجرى على أيدى العباد فقط ، "فإذا فرضنا إن إنسانًا ما قدم إليك ، بمحض اختياره ، معروفًا، فلا ينبغى أن تغفل قط عن أن هذا الإنسان نفسه فى قبضة رب العالمين ، وأن مثل هذا المخلوق مضطر ، قد سلط الله عليه الإرادة ، وهيج عليه الدواعى ، وألقى فى قلبه أن يعطيك ، فلا يجد – بعد ذلك – سبيلاً إلى دفعك ، ولا يعطيك – والحالة هذه – إلا لغرض نفسه ، لا لغرضك . ولو لم يكن له من غرض فى الإعطاء لما أعطاك ، ولو لم يعتقد أن له نفعًا فى نفعك لما نفعك . فهو إذن إنما

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٠ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٢٧ .
(٣) سورة إبراهيم ، الآية ٧ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يطلب نفع نفسه بنفعك ، ويتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى يرجوها لنفسه ، وما أنعم عليك ، فى الحقيقة ، إلا الذى سخره له ، وألقى فى قلبه ما حمله على الإحسان عليه"[1].

وهكذا نرى أنه بهذا التحليل العميق لمفهوم العطاء ، والشكر عليه ، تتسع نظرة المسلم لترى فى كل نعمة تصل إليه ، أو أى معروف يبلغه اتصالاً مع الله تعالى ، وفى خلال ذلك ، يدرك أن الشخص الذى جرى الخير على يديه إنما هو مجرد واسطة لتحقيق النعمة الإلهية التى تتوزع على جميع المخلوقات بالحكمة والعدل[2] .

من هنا ينبغى أن يكون الشكر القلبى على أى نعمة خالصًا لله وحده ، لا يشاركه فيه أحد من المخلوقين ، "إذا استقرت هذه القاعدة عندك ، بحيث صرت تتلقى كل ما يأتيك من الله تعالى ، لا من أحد من خلقه ، فهذا شكر عظيم للنعمة ، وهو أعظم أركان الشكر ، ولذلك أطلق عليه كثير من المحققين أنه : نفس الشكر ، حيث قالوا : الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع"[3] .

والخلاصة أن الشكر القلبى يتمثل فى المعرفة والاعتراف : معرفة المسلم بواهب النعمة ، ومصدرها الحقيقى ، بعد أن يتخطى جميع الأسباب والوسائل الظاهرية التى أوصلت النعمة إليه ،

(١) معيد النعم ، ص٥ .
(٢) معيد النعم ، ص٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٦ ، ٧ .

واعتراف المسلم ، فى نفس الوقت ، بفضل الله وحده فى إسباغ تلك النعمة عليه ، دون أن يشركه معه فى ذلك أحد آخر[1].

وهنا يشير السبكى إلى فكرة دقيقة ، وهى أن الإنسان عندما يشكر الله ، تعالى ، فإنما يشكره بجوارحه ، وقدرته ، وسائر الأمور التى هى أسباب الحركة والسكون . وهذا كله من خلق الله تعالى ، ونعمته : "فنحن نشكر بنعمته نعمته . وإلى هذا أشار الإمام الشافعى بقوله : الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه .. إلا بنعمة منه"[2].

أما الشكر باللسان ، فالمراد به – عند السبكى – حمد الله ، تعالى ، على نعمه ، والتحدث بها امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [3] فيتحدث بها الإنسان .. لا لرياء وسمعة وخيلاء ، بل للثناء على الرب ، تبارك وتعالى . وقد كان جماعة من السلف يجلسون فيتطارحون حديث نعمهم ، حتى ينتهى مجلسهم ، وهم على ذلك[4] .

وأما الشكر بالأفعال ، فالمراد به امتثال أوامر المنعم ، واجتناب نواهيه . وهذا يخص كل نعمة بما يليق بها . فلكل نعمة

(١) نفس المصدر ، ص٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص٨ .
(٣) سورة الضحى ، الآية ١١ .
(٤) نفس المصدر ، ص١١ .

شكر يخصها "والضابط : أن تستعمل نعمة الله ، تعالى ، فى طاعته ، وتتوقى من الاستعانة بها على معصيته . فليس من شكر النعمة أن تهملها ، وتشكر على وجه غير الوجه الذى عليه بنيت ، فمن عدل عنها إلى نوع آخر من الشكر فقد قصر ، وترك الأهم . وإنما الرشيد من جمع بين الأمرين ، فإن كان لابد من التفرق فالأنسب استعمال كل نعمة فيما خلقت له" .

يقصد السبكى إلى أن كلاً من شكر القلب ، وشكر اللسان عام ومتوحد ، بمعنى أن الإنسان يعترف فى شكر القلب بأن النعمة إنما جاءت من الله تعالى وحده ، كما أنه فى شكر اللسان يثنى عليه تعالى بما أفاض به عليه ، أما شكر الفعل ، فهو شكر عام ومتنوع ، يختلف باختلاف أنواع النعم الممنوحة . يقول السبكى : "وهذا يتضح بأمثلة :

المثال الأول : من شكر نعمة العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وتغضهما عن كل قبيح ، إلى غير ذلك من أحكام النظر . فإن أنت أخذت تصلى كل ليلة ركعتين على شكر نعمة العينين ، وأنت مع ذلك تستعملهما فى النظر المحرم . فلست بشاكر هذه النعمة حقها .

المثال الثانى : من شكر نعمة الأذنين ألا تسمع حرامًا ، وأن تستر كل عيب تسمعه ، فإن أنت تصدقت بدرهمين شكرًا لله على نعمة الأذنين ، وهتكت كل قبيح سمعته ، وأصغيت إلى كل حرام وعيته ، فلست من الشاكرين" .

ويتضح من المثالين السابقين أن أعضاء الإنسان لها وظائف ، قد ضبطها الشرع ، وأن من شكر الإنسان على نعمة هذه الأعضاء : استعمالها دون خلط فى وظائفها المشروعة لها .

أما باقى أمثلة السبكى ، التى تتوالى بانتظام ، بعد هذين المثالين ، لكى تبلغ بالتحديد(١١١) مثالاً ، فإن كلاً منها يتضمن الإشارة إلى وظيفة فى الدولة ، أو مهنة فى المجتمع الإسلامى ، مع بيان حقوق هذه الوظائف والمهن ، أو بمعنى آخر : وسائل الشكر عليها .

ومن الجدير بالذكر أن الشكر الفعلى لنعمة الوظيفة – عند السبكى – يتمثل فى أداء هذه الوظيفة على أكمل وجه ، مع الإخلاص العميق فى هذا الأداء . وبهذا يمتزج الإسهام فى الحياة الدنيوية بالدافع الدينى المرتبط أساسًا بالحياة الآخرة يقول السبكى :

"ونحن نرى أن نخص غالب الناس بأمثلة ، تستوعب معظم الوظائف التى استقرت عليها قواعد المسلمين فى هذا الزمان (الإشارة إلى القرن الثامن الهجرى)، ونذكر ما يطالب به صاحب تلك الوظائف يوم القيامة ، ويخشى عليه فى الدنيا والدين سوء العاقبة بسبب التفريط فيه ، ما يكون موقظًا له من سنة الغفلة ، ومرشدًا إن شاء الله تعالى .. لعل الله ينفع به أقوامًا"[١] .

---

(١) معيد النعم ، ص١٢ ، ١٣ .

تصنيف الوظائف :

يلاحظ على ذلك العدد الكبير من الوظائف التى ذكرها السبكى أنها تتوالى فى مجموعات تضم كل مجموعة منها عددًا معينًا من الوظائف الأساسية ، ثم الوظائف الأخرى التابعة لها . ويمكن بقدر من التصنيف تحديد هذه المجموعات الأساسية فيما يلى :

أ-الوظائف القيادية والإدارية فى الدولة .

ب-وظائف العلماء .

ج-أصحاب الحرف والصناعات والتجار وأصحاب الأموال .

ومما يلفت النظر أن السبكى قد بدأ هذه الوظائف بمنصب الخليفة أو السلطان ، وانتهى بالتعرض للشحاذ فى الطرقات .. أما فيما بين هذين الطرفين ، فإن كتاب "معيد النعم" يشتمل من الناحية التاريخية على بعض الوظائف التى اختفت حاليًا من المجتمع الإسلامى ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ارتباطها بنظام حكم السلاطين الأتراك ، واستيلاء المماليك على السلطة الفعلية فى ذلك العصر . لهذا نجد عددًا كبيرًا من هذه الوظائف يحمل أسماء غير عربية ، وهى إما فارسية ، أو فارسية – تركية – مثل (البقشمدار) أى الشخص الذى يحمل نعل الأمير ، و(أمير شكار) وهو الشخص المختص بطيور الصيد وكلابه .

ومع ذلك ، فهناك أيضًا عدد كبير من هذه الوظائف ، على الرغم من أنها ترتبط بفترة تاريخية محددة ، يمكن "إسقاطها" بسهولة على وظائف حديثة فى العصر الحاضر ، ولا يقتصر هذا فقط على نظم الحكم فى البلاد الإسلامية ، وإنما يشمل أيضًا نظم الحكم الأخرى فى معظم بلاد العالم . فمثلاً هناك وظيفة (الدوادار) وهو يطابق حاليًا ما أصبح يسمى : مدير مكتب الحاكم ، و(الطبردار) الذى يحمل السلاح بين يدى السلطان لحفظ نفسه ، وهذا ما ينطبق تمامًا على الحرس الخاص ، أو ما يسمى بالإنجليزية Body-gard . ومن هذه الزاوية ، فإن كتاب "معيد النعم" يحتوى على مادة أخلاقية متجددة العطاء ، تتجاوز بالتأكيد حدود العصر الذى كتب فيه ، لتمد ظلها على العصور اللاحقة ، بما فى ذلك عصرنا الحاضر .

وسنكتفى فيما يلى بتناول بعض النماذج المعبرة من كل مجموعة من المجموعات الثلاث التى سبق تصنيفها .

من المجموعة الأولى :

أ-وظيفة الولاية :

يقول السبكى : إذا ولاك الله ، تعالى ، أمرًا على الخلق ، فعليك البحث عن الرعية والعدل بينهم فى القضية ، والحكم فيها بالسوية ، ومجانبة الهوى والميل ، وعدم سماع بعضهم فى بعض ، إلا من يأتى بحجة مبينة ، وعدم الركون إلى الأسبق (فى تقديم الشكوى) .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فإن وجدت نفسك تصغى إلى الأسبق ، وتميل إلى صدقه (تصديقه) فاعلم أنك ظالم للخلق ، وأن قلبك إلى الآن متقلب من الأغراض ، يميله الهوى كيف شاء . وإن وجدت الأسبق والآخر سواء ، فأنت أنت (أى الحكم مفوض إليك بناء على فحص حجج الجانبين) [1] .

ثم يستطرد السبكى إلى ملاحظة مباشرة لواقع الولاة الأتراك فى عصره ، فيجد أنهم يميلون دائمًا إلى تصديق أول من يطرق بابهم شاكيًا ، دون أن يقيموا اعتبارًا للشاكى الذى يجئ بعد ذلك ، حتى لو كان الحق معه . ومن الواضح أن هذه الملاحظة تتصل مباشرة بمبدأ سماع كل وجهات النظر فى القضية الواحدة ، قبل إصدار الحكم فيها لصالح أحد الطرفين . يقول السبكى :

"وقد اعتبرت كثيرًا من الأتراك ، فوجدتهم يميلون إلى أول شاك ، وما ذاك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم التى صيرت قلوبهم كالأرض الترابية التى لم ترو بالماء ، فإذا أتاها ماء رويت : سواء كان ذلك الماء صافيًا أم كدرًا ، زلالا باردًا أم كدرًا حارًا ، ثم إذا رويت وجاء ماء آخر صاف حسن لم تشربه ، وصار مانعًا عليها"[2].

كذلك يقتضى شكر نعمة الولاية : "إن تعرف أنك والرعية سواء ، لم تميز عنهم بنفسك ، بل بفعل الله تعالى الذى لو شاء

(١) معيد النعم ، ص١٣ .

(٢) معيد النعم ، ص١٣ .

لأعطاهم ومنعك ، فإذا كان قد أعطاك الولاية عليهم ومنعهم ، فما ينبغى أن تتمرد ، وتستعين بنعمته على معصيته وأذاهم ، بل لا أقل من أن تتجنب أذاهم ، وتكف عنهم شرك ، وتجانب الهوى والميل والغرض . فنعمة الولاية لا تطلب منك غير ذلك"[1] .

وهكذا يتبين أن شكر نعمة الولاية ينبغى أن يتحقق صاحبها بأدائها على الوجه الصحيح ، وهو إقامة العدل بين الناس ، وعدم التكبر عليهم . أما أن يقوم شخص بإساءة أداء هذه الوظيفة علنا ، واللجوء إلى الله فى السر لغفران الذنوب ، فهذا ما يعتبر إساءة فى حق الوظيفة أو النعمة ذاتها . يقول السبكى : "ولو أنك تركت الناس هملاً ، يأكل بعضهم بعضًا ، وجلست فى دارك تصلى وتبكى على ذنوبك ، لكنت مسيئًا على ربك ! فملكك لم يطلب منك أن تتهجد بالليل ، ولا أن تصوم الدهر ، وإنما يطلب منك ما ذكرناه"[2] .

ب-وظيفة الوزارة :

يذكر السبكى أن وظيفة الوزير قد انحصرت على عهده ، فى فرض المكوس (الضرائب) على أصحاب الأموال ، وتحصيلها منهم، وتوقيع العقوبات على من يقصر فى أدائها . وبذلك فقد عادت هذه الوظيفة الهامة إلى ما كانت عليه لدى الفرس ، قبل أن تنتقل إلى

(١) نفس المصدر . ونفس الصفحة .

(٢) نفس المصدر ، ص١٤ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المسلمين ، وتصبح مهمتها مساعدة الخليفة أو الوالى فى تسيير شئون الدولة .

ومن حق الوزير : بذل النصيحة للملك ، وكف أذاه عن أموال الرعية ، وتخفيف الوطأة عنهم ما أمكنه . وقد علم أن المكوس حرام، فإن ضم الوزير إلى أخذها : الإجحاف فى ذلك ، وتشديد الأمر فيه ، والعقوبة عليه ، فقد ضم حرامًا إلى حرام . بل إذا لم يقدر على إبطال حرام ، فلا يزيد الطين بلة ، بل لا أقل من الرفق والتخفيف !

ومما يجب على الوزير مراعاته أخلاقيًا : التيقظ إلى الأموال التى تجتمع عنده . ومنها حلال ومنها حرام ، فعليه ألا يخلطها ، بل يدع الحلال بمفرده ، والحرام بمفرده ، وإلا فمتى خلطهما ، ولم تتميز صار الكل حرامًا .

وفى أذهان كثير من العامة أن الأموال إذا خلطت ، ودخلت بيت المال صارت حلالاً ، وهذا جهل . ما اجتمع الحلال والحرام إلا غلب الحرام الحلال . وبيت المال لا يحل ما حرم الله تعالى . ثم إذا تميز الحلال عن الحرام صرف (الوزير) الحلال على أهل العلم والدين ومن يتحرى (أى يدقق فى) أكله .

ويتعين على الوزير التخفيف فى العقوبات على من تتوجه عليه بغير حق ، إذا لم يمكنه دفعها .

فليت شعرى ، إذا جلس وزير يعاقب الرعايا ليستخرج منهم الخبائث (الأموال المفروضة عليهم بدون وجه حق) التى لا يجوز له أخذها ، ودفعها إلى من يأخذها ظلمًا ، ويصرفها فيما لا يحل له ، فكيف يكون وجهه عند الله تعالى ؟! وكيف لا يتبادر إليه الوخم (الثقل وعدم القبول) وسوء العاقبة فى الدنيا؟![1] .

من المجموعة الثانية :

مهنة التدريس :

على المدرس واجبان : واجب نحو نفسه يتمثل فى ضرورة التمكن من العلم ، والتثقيف المستمر للذات ، وواجب نحو من يعلمهم، ويتمثل فى مراعاة أحوالهم وإعطائهم القدر الذى يناسبهم حتى يثمر تدريسه لهم .

يقول السبكى : "وحق عليه (أى على المدرس) أن يحسن إلقاء الدرس ، وتفهيمه للحاضرين . ثم إن كانوا مبتدئين ، فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات بل يدربهم ، ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق . وإن كانوا منتهين ، فلا يلقى عليهم الواضحات"[2] .

---

(١) معيد النعم ، ص١٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص١٠٥ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا من ناحية منهج التدريس الذى يتصل مباشرة بمصلحة الطلاب ، ويراعى حالاتهم المتدرجة فى الفهم والتحصيل والتدريب ، أما فيما يتعلق بكفاءة المدرس ، وتثقيفه الذاتى لنفسه ، فيقول السبكى: "ومن أقبح المنكرات مدرس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب ، ويجلس يلقيها ثم ينهض ، فهذا إن كان لا يقدر إلا على هذا القدر ، فهو غير صالح للتدريس" (١) ، بل إنه يذهب أبعد من ذلك حين يقرر عدم استحقاق مثل هذا المدرس لراتبه حين يقول : "ولا يحل له تناول معلومة – أى راتبه" (٢) .

والواقع أن التهاون فى هذا المجال – كما يرى السبكى – هو السبب الرئيسى فى انهيار حالة التعليم نتيجة اهتزاز وضع المدرس أمام الطلاب . يقول السبكى : "ولو أن أهل العلم صانوه ، وأعطى المدرس منهم التدريس حقه ، فجلس ، وألقى جملة صالحة من العلم ، وتكلم عليها كلام محقق عارف ، وسأل وسئل ، ، واعترض وأجاب ، وأطال وأطاب : بحيث إذا حضره أحد العوام أو المبتدئين أو المتوسطين فهم من نفسه القصور عن الإتيان بمثل ما أتى به ، وعرف أن العادة أنه لا يكون مدرس إلا هكذا – والشرع كذلك – لم تطمح نفسه فى هذه المرتبة ، ولم تطمع العوام بأخذ وظائف العلماء" (٣) .

---

(١) معيد النعم ، ص ١٠٦ .

(٢) نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر ، ص١٠٧ .

وينبه السبكى المدرسين إلى ضرورة أداء مهنتهم على الوجه الأكمل ، لأن كلا من التهاون فى هذا الأداء ، والتقصير فيه هو الذى يؤدى إلى أن يمارس هذه المهنة الجليلة من لا يصلح لها . والنتيجة أن ينتصر الجهل على العلم ، وتعم بالتالى حالة من الفوضى تسىء أول ما تسىء إلى المدرسين أنفسهم : "فإذا رأينا العلماء يتوسعون (بمعنى لا يدققون) فى الدروس ، ولا يعطونها حقها ، ويعطلون كثيرًا من أيام العمالة ، وإذا حضروا اقتصروا على مسألة أو مسألتين من غير تحقيق ، ولا تفهيم ، ثم رأيناهم يقلقون من تسلط من لا يصلح على التدريس ، ويعيبون الزمان وأولياء الأمور .. فالرأى أن يقال لهم : أنتم السبب فى ذلك بما صنعتم ، فالجناية منكم عليكم!" (١) .

ومن الواضح أن هذا النص الأخير يضع مسئولية مراعاة أصول كل مهنة ، أو شرفها ، على عاتق أبنائها أنفسهم ، وهو يبين أن الإخلال أو التقصير فى أدائها من جانب البعض يعتبر مساسًا بشرف المهنة لدى المجتمع ، وبالتالى ، فعليهم جميعًا أن يصونوها عما يسىء إليها ، ويصلحوا أنفسهم بأنفسهم ، بدلاً من أن يتدخل غيرهم للقيام بهذا الإصلاح .

من المجموعة الثالثة :

تضم هذه المجموعة عددًا كبيرًا من الحرف والمهن التى كان يتكون منها النشاط الاقتصادى والاجتماعى فى عصر السبكى ، والتى

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٨ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما زال الكثير منها يحتل نفس المكانة فى عصرنا الحاضر كحرفة البناء ، والصيد ، والحياكة ، والجزارة ، والصيرفة ، والوراقة ، والفراشة ، والكناسة .. إلخ . وسنكتفى هنا بإيراد نموذجين من هذه المجموعة .

أ-مهنة الطيان :

والمقصود به الشخص الذى يضع الطين على الجدران ليسد ما بين الطوب من فجوات[1] . يقول السبكى : "ومن حقه ألا يطين مكانًا قبل الكشف عنه : هل فيه شىء من الحيوانات أو لا ؟ فأنت ترى كثيرًا من الطيانين يعملون فى وضع الطين على الجدار ، وربما صادف فيه ما لا يحل قتله ، لغير مأكلة ، من عصفور ونحوه ، فقتله، واندمج فى الطين ، ويكون حينئذ خائنًا لله ، تعالى ، من جهة قتله هذا الحيوان ، ولصاحب الجدار من جهة جعله مثل ذلك (الطائر) ضمن جداره"[2] .

ولا شك فى أن هذه اللفتة الرقيقة تجاه الطيور الضعيفة يمكنها وحدها أن تضع السبكى فى مصاف الأخلاقيين ذوى النزعة الإنسانية Humanisme وتوسع من اتجاهه الأخلاقة ، بحيث يشمل – فضلاً عن الإنسان – الكائنات الحية كلها .

(١) معيد النعم ، ص ١٢٨ ، وهو المعروف حاليًا باسم "عامل المحارة" .

(٢) نفس المصدر ، ص١٢٩ ، ١٣٠ .

والمتأمل فى تصور السبكى لأداء هذه المهنة يلاحظ بوضوح المزج الكامل بين العمل والضمير الخلقى . ومن المعروف أن ألفاظ "النصح" و"الأمانة" مما لا يتحدث عنه العقد المبرم بين العامل وصاحب العمل بصراحة ، ولكنه يتطلبهما ضمنًا ، وأهم من ذلك أن السبكى ينبه العامل ، فى مثل هذا المجال ، الذى لا يراقبه فيه إنسان آخر ليرى حقيقة عمله ، إلى أن الله تعالى هو الذى يراه ، ويراقبه ، لذلك فإن عليه مراعاة ذلك ، وإذا كان الإنسان قادرًا على أن يرفع صوته بالشكوى من ظلم أخيه الإنسان له ، فإن مثل هذه الحيوانات والطيور الضعيفة لن تستطيع أن تبلغ شكواها إلا إلى الله وحده .

ومن ناحية أخرى ، يلاحظ السبكى على أهل تلك المهنة فى عصره لونًا من عدم مراعاة الضمير : رغبة فى الحصول السريع على الأجر ، حتى لو قام عملهم على غير أساس ، أو أدى إلى نتائج غير مرغوب فيها : "وكثير من الطيانين ، لرغبتهم فى الأجرة وسرعة العمل ، يدعوهم داع إلى تبييض جدار ، فيرون ذلك الجدار منشقًا آيلا إلى السقوط ، فلا ينبهون صاحبه ، بل يطينونه ، رغبة فى الأجرة ، ويعمى (الواحد منهم) خبره على صاحبه ، ويكون سببًا لوقوعه على نفس (شخص) أو أكثر . وذلك من الخيانة فى الدين"[1].

وبهذه العبارة الأخيرة فى النص ، يدخل السبكى أداء المهنة أو الوظيفة فى منطقة "الضمير الدينى" ، وما يترتب عليه من حساب ،

(١) معيد النعم ، ص١٣٠ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يعلم الإنسان تمامًا أن القائم به هو أعدل العادلين ، وأنه لا يظلم مثقال ذرة ، كما أنه يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

ب-سائس الدواب :

يقول السبكى : "ومن حقه : النصح (هنا بمعنى الإخلاص) فى خدمتها ، وتنقية العليق (الطعام) لها ،وتأدية الأمانة فيه . فإنه لا لسان لها يشكوه إلا إلى الله تعالى"(١) .

فأى دعوة إلى "الرفق بالحيوان" يمكنها أن تتجاوز هذه الدعوة؟! الواقع أن مثل هذه الروح النبيلة التى يبديها السبكى تجاه سائر الحيوانات إنما تتصل اتصالاً مباشرًا بدعوة الإسلام نفسه إلى الرفق ، والرحمة ، والعطف .. وهى مبادئ أخلاقية تهدف إلى أن يقيم الإنسان مع عناصر البيئة المحيطة به روابط التصالح بدلاً من الصراع ، وعلاقات المودة والأنس بدلاً من الاستيحاش .

وهناك ملاحظة هامة يسوقها السبكى فى هذا الصدد ، وهى تتعلق بسوء استخدام القرآن الكريم ، عندما يضعه بعض الناس على هيئة "حجاب" أو "تعويذة" بقصد حفظ الحيوانات أو حراستها ، يقول : "وقد كثر من السواس تعليق حرز مشتمل على بعض آيات القرآن الكريم على الخيل رجاء الحراسة ، مع أنها تتمرغ فى النجاسة .

(١) نفس المصدر ، ص١٤٤ .

وأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بأن ذلك لا يجوز وهو بدعة ، وتعريض الكتاب العزيز للإهانة"(١) .

وبعد أن ينتهى السبكى من عرض الوظائف ، وما ينبغى على أصحابها من حقوق نحو الله تعالى أولاً ، ثم تجاه سائر أفراد المجتمع الإسلامى بعد ذلك ، يلخص فكرته : فى أنه لا يوجد إنسان إلا ولله تعالى عنده نعمة "يجب عليه أن ينظر إليها ، ويشكرها حق شكرها بقدر استطاعته – حسب ما وصفناه – ولا يستحقرها ، ولا يربأ بنفسه عليها . وذلك ميزان يستقيم فى كل الوظائف .

فليعرض كل ذى وظيفة تلك الوظيفة على الشرع .. فما من منزلة إلا وأبان لنا (الرسول ﷺ) عما ربطه الشارع بها من التكاليف .. فليبادر صاحبها إلى امتثاله ، منشرح الصدر راضيًا ، ويبشر عند ذلك بالمزيد .

وإلا .. فإن هو تلقاها بغير قبول ، ولم يعطها حقها خشى عليه زوالها عنه ، واحتياجه إليها ، ثم يطلبها فلا يجدها . وإذا زالت فليعلم أن سبب زوالها تفريطه فى القيام بحقها"(٢) .

(١) معيد النعم ، ص١٤٤ ، ١٤٥ . ويلاحظ أن هذه العادة السيئة ما زالت جارية حتى الآن فى بلادنا . وقد امتدت إلى أصحاب السيارات الذين يصرون على وضع مصحف (مغلق أو مفتوح) فى مؤخرة السيارة ظانين أن مجرد وجود المصحف يصونهم من الحوادث أو الحسد!!

(٢) معيد النعم ، ص١٤٨ ، ١٤٩ .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومع ذلك ، فليس الطريق أمام المخطئ أو المقصر مسدودًا ، إنه دائمًا مفتوح لرؤية موضع التقصير ، والاعتراف به ، ثم الندم عليه ، والتوبة منه ، وطلب الغفران الذى يعيد الصلة بالله تعالى ، وينبت الأمل من جديد فى النفوس اليائسة .

* *

مؤلفات أ.د. حامد طاهر

في الفلسفة الإسلامية

أولاً : الكتب

- الفلسفة الإسلامية : مدخل وقضايا .
- الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث .
- معالم التصوف الإسلامى .
- الخطاب الأخلاقى في الحضارة الإسلامية .
- المدينة الفاضلة بين أفلاطون والفارابى .
- منهج البحث بين التنظير والتطبيق .

ثانيًا : التحقيق

- كتاب روح القدس في مناصحة النفس لابن عربى .
- رسالة الولاية والنبوة لابن عربى .

ثالثًا : الترجمة

- كتاب المنهج التجريبى : تاريخه ومستقبله لرينيه ليكليرك .
- بحث الإسلام من وجهة نظر المسيحية للويس جارديه .
- الإسلام فى مواجهة التدهور الثقافى للغرب لجارودى .
- المنهج الأرسطى والعلوم الكلامية والفقهية في الإسلام لإبراهيم مدكور.
- التضاد وتعدد القطب فى التصوف الإسلامى لروجر أرنالديز .

رابعًا : كتب تذكارية وموسوعات

- الإشراف على كتاب : محمود قاسم ، العالم والإنسان .
- الإشراف على موسوعة الفلسفة الإسلامية .
- الإشراف على موسوعة الأخلاق الإسلامية .
- المشاركة في الكتاب التذكارى عن أبى حيان التوحيدى .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

- المشاركة في الكتاب التذكارى عن محمد عبده .
- المشاركة فى الكتاب التذكارى عن زكى نجيب محمود .

خامسًا : بحوث فى الفلسفة الإسلامية

- المفهوم المتكامل للإسلام .
- الإسلام بين الحقيقة والادعاء .
- نظرية خلق الإنسان فى القرآن الكريم .
- الدفاع عن القرآن الكريم ضد خصومه (ابن قتيبة نموذجا) .
- المسلمون بين الواقع والتحديات .
- الثقافة الإسلامية ومكوناتها المعرفية .
- الفلسفة الإسلامية ودورها الجديد فى العالم المعاصر .
- الأفكار الرئيسية فى الفلسفة الإسلامية .
- الأفكار الرئيسية فى التصوف الإسلامى .
- فلسفة السؤال والتساؤل عند أبى حيان التوحيدى .
- المضمون الأخلاقى فى كتاب "كليلة ودمنة" .
- العلاقة بين الفلسفة والدين بين ابن تومرت وابن رشد .
- موقف ابن خلدون من علم الكلام .
- رأى الغزالى في نشأة الجدل وعيوب المناظرة .
- الدولة المثالية عند محيى الدين بن عربى .
- سياسة الدولة الرشيدة عند الماوردى .
- الأخرويات Eschatologie عند ابن عربى .
- مقال فى العقيدة .
- مقال فى الحوار .

معظم هذه البحوث موجودة بموقعى الالكترونى على الأنترنت :
www. hamedtaher. com.

الفهرس

تقديم	أ
مقدمات تمهيدية فى علم الأخلاق	٧
– مفهوم الخلق وتحليله	٧
– نشأة الأخلاق وعالميتها	٨
– الأخلاق والعادات	٨
– الأخلاق والقانون	٩
– الخُلق : طبع أم اكتساب	١٠
– الخلق والوراثة	١١
– الخلق والبيئة	١١
– الخلق والتربية	١٢
– الطبيعة الإنسانية والأخلاق	١٢
–الأخلاق والمسئولية الفردية	١٦
– الأخلاق والضمير	١٧
الأخلاق الإسلامية	١٩
– أخلاق العرب فى الجاهلية	٢٠
– موقع الأخلاق من المفهوم المتكامل للإسلام	٢٢
أ–الأخلاق من القرآن الكريم	٢٦
– فى دائرة الأسرة (الوالدين)	٢٧

www.alukah.net

- معاملة الزوجه ٢٨
- علاقة المسلم بأقاربه ٣١
- علاقة المسلم بجيرانه ٣٢
- معاملة المسلم لأصدقائه ٣٣
- معاملة المسلمين ٣٥
- معاملة غير المسلمين ٣٨
- تعامل المسلم مع البيئة ٤٠

ب- الأخلاق من السنة النبوية ٤٣

- من السنة القولية ٤٥
- من السنة الفعلية ٤٩

آداب المجالسة عند ابن المقفع ٥٥

ظاهرة الحسد عند الحارث المحاسبى ٨٧

مواجهة الشر عند الحكيم الترمذى ١٠٣

ظاهرة البخل عند الجاحظ ١٢١

أدب العالم والمتعلم عند الماوردى ١٥١

التجربة الأخلاقية عند ابن جزم ١٨٥

نقد أخلاق العصر عند ابن الجوزى ٢٠٩

أخلاق الوظيفة عن السبكى ٢٣٩

مؤلفات الدكتور حامد طاهر ٢٦٣